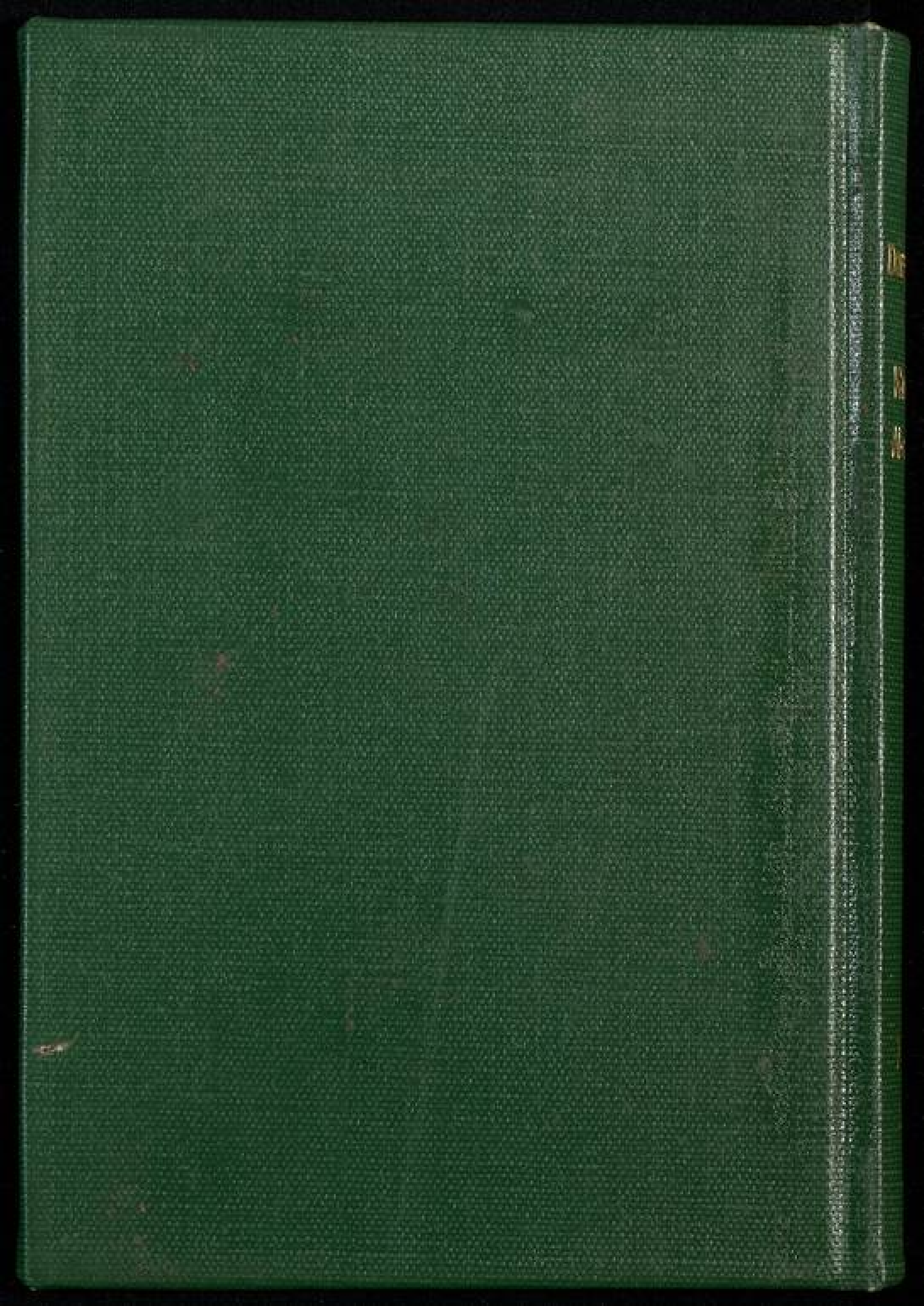
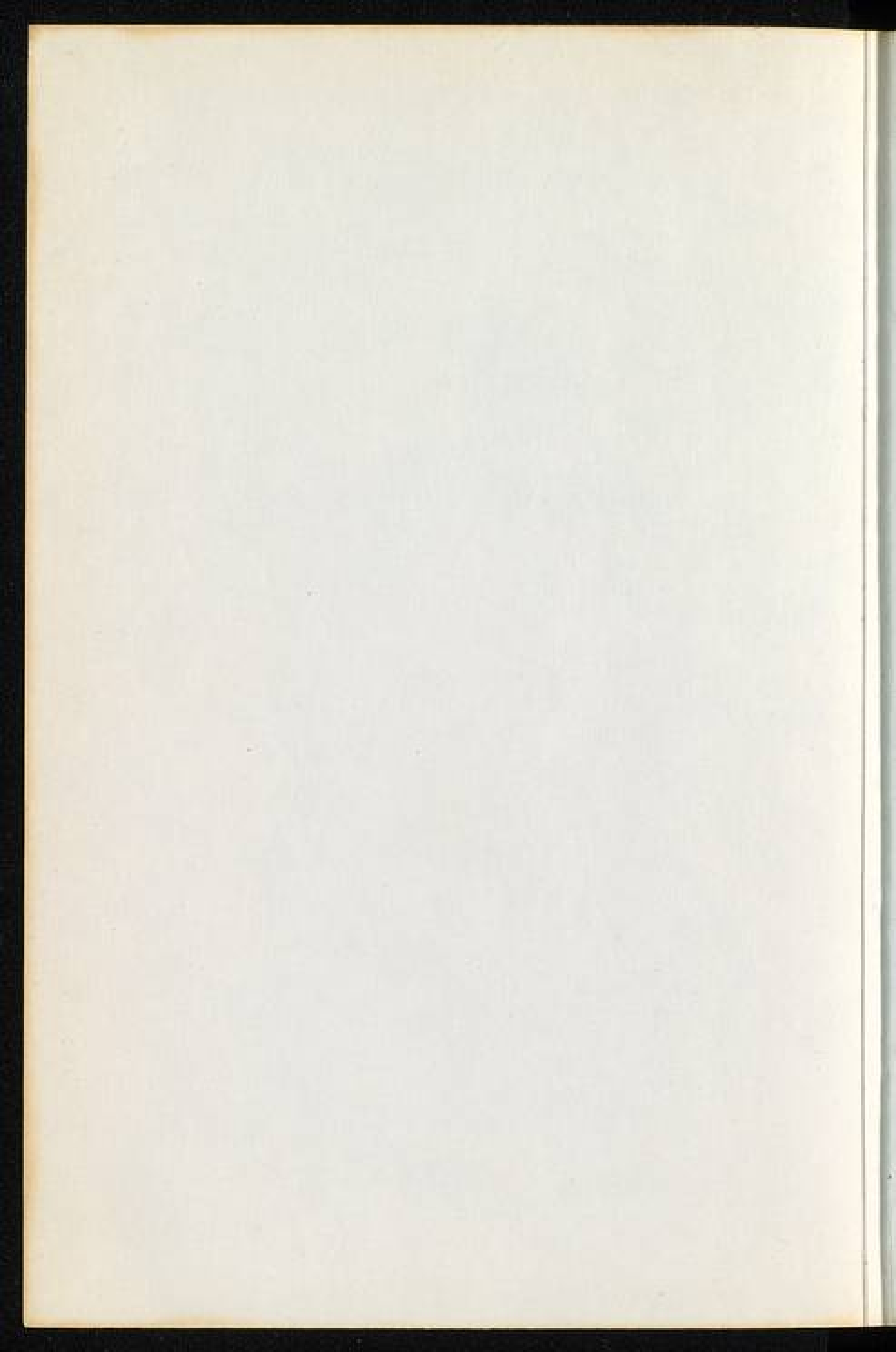
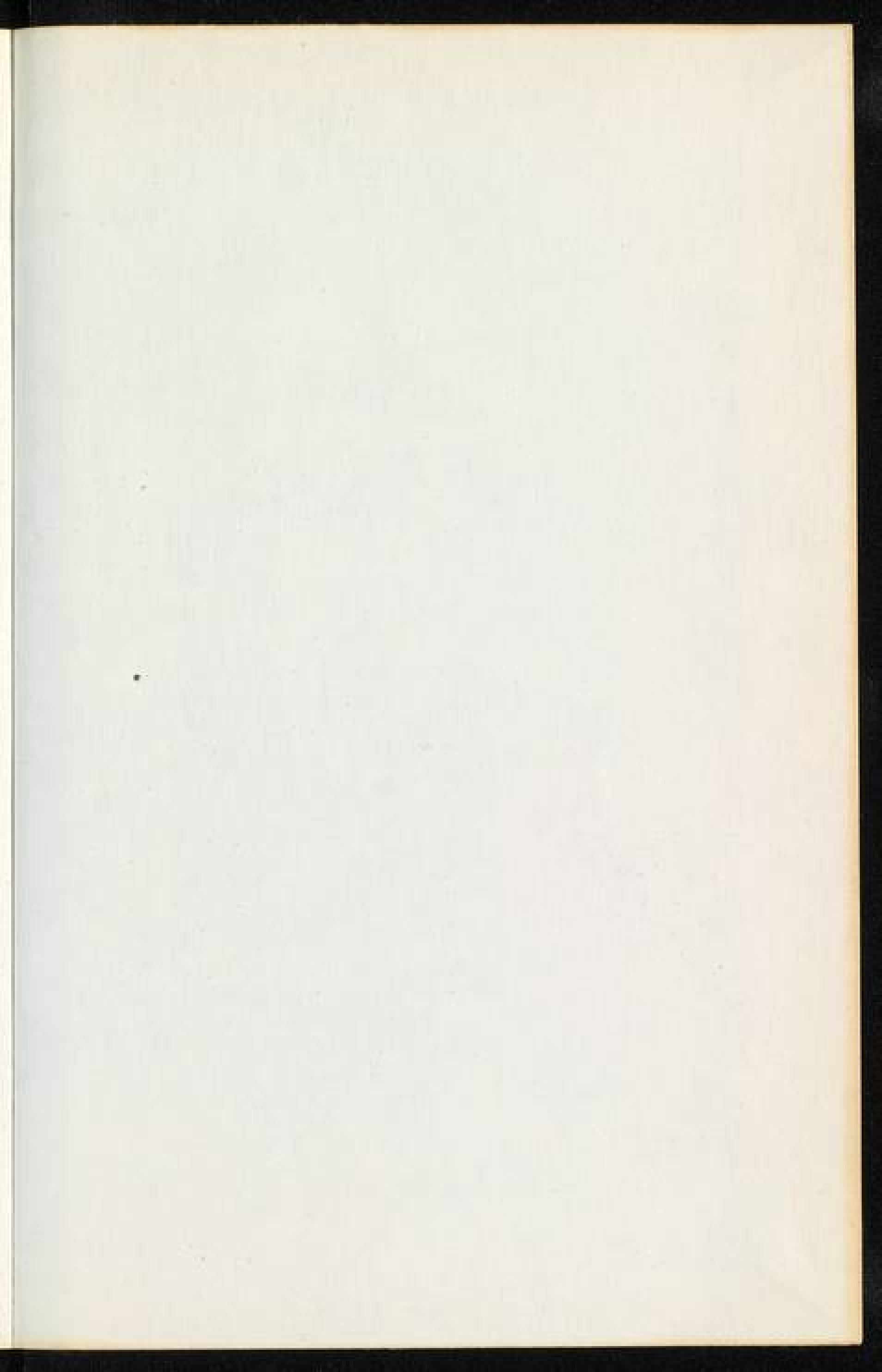
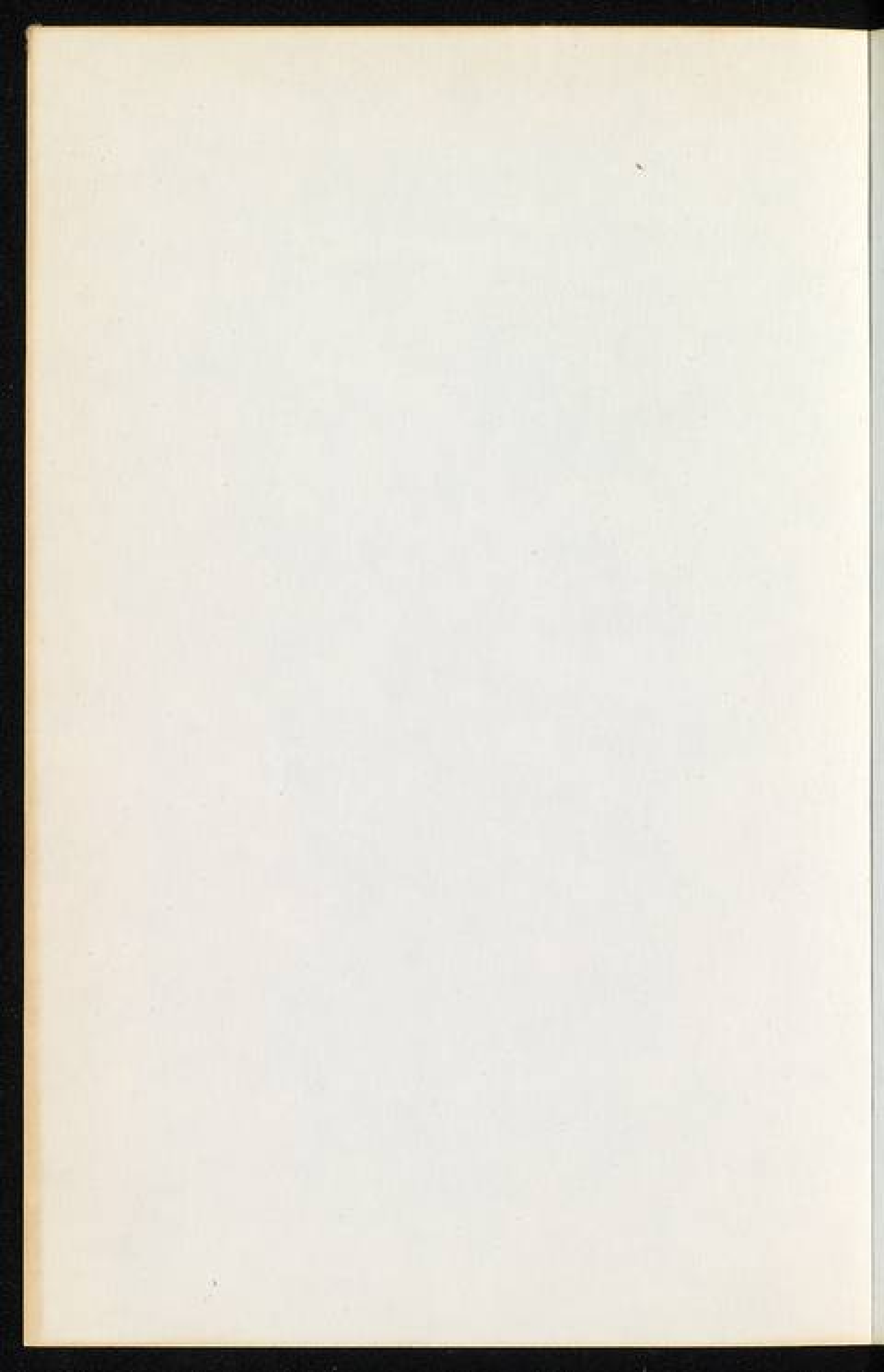
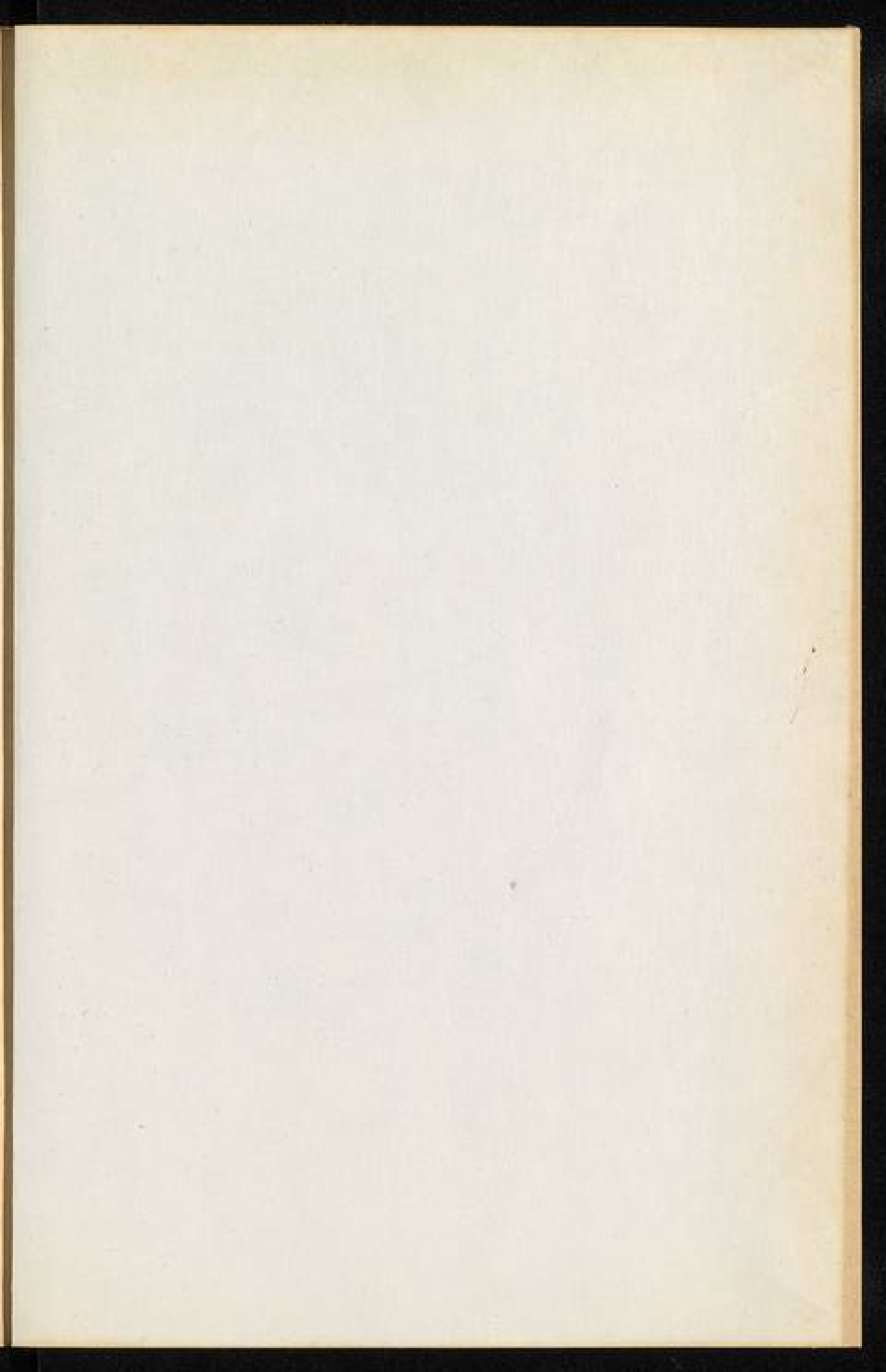



BOBST LIBRARY
3 1142 02886 4992









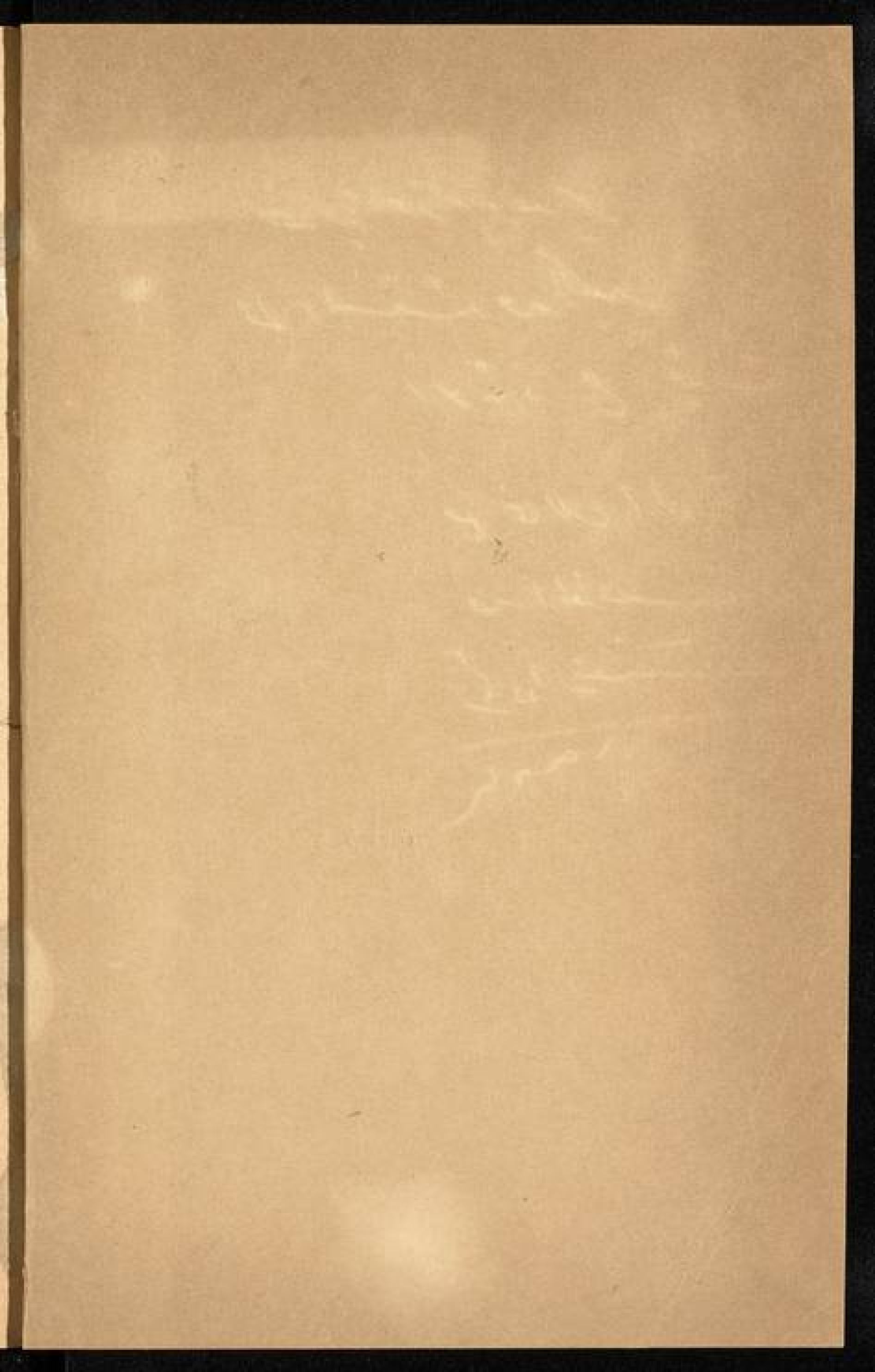
رشاد المغربي داغوث



رواية

منشورات «دار المكشوف» بيروت

١٩٣٨



هدية احترام وتقدير

للاستاذ محمد الكبير

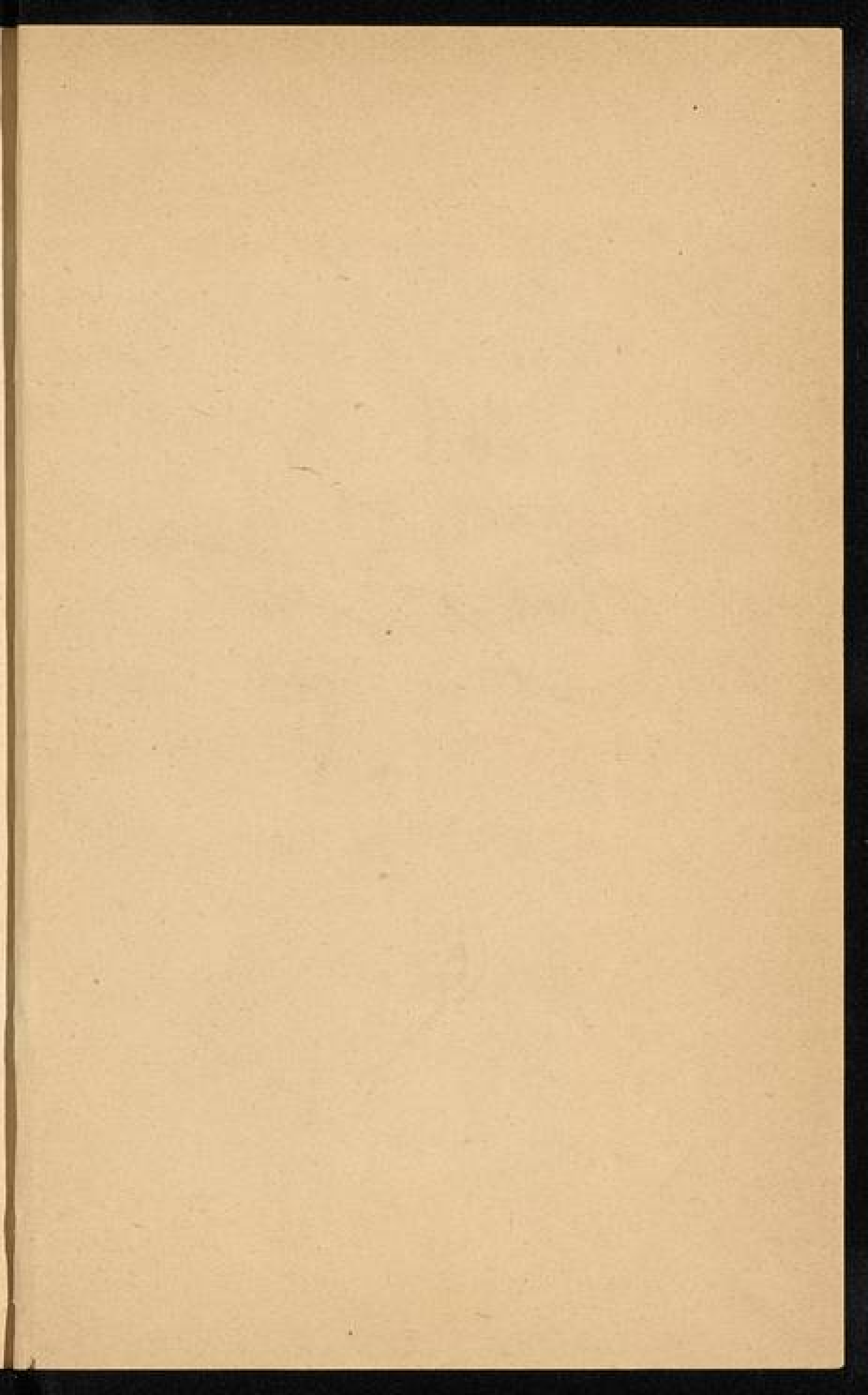
والاستاذ ج. فيلات

مع فائق المودة

من المؤلف

كوركيس عواد

١٩٥٦



رشاد المغربي دارغوث



رواية

منشورات «دار المكشوف» بيروت

١٩٣٨

الى الرجل

الذي كشفت لي حياته عن معنى الرجولة

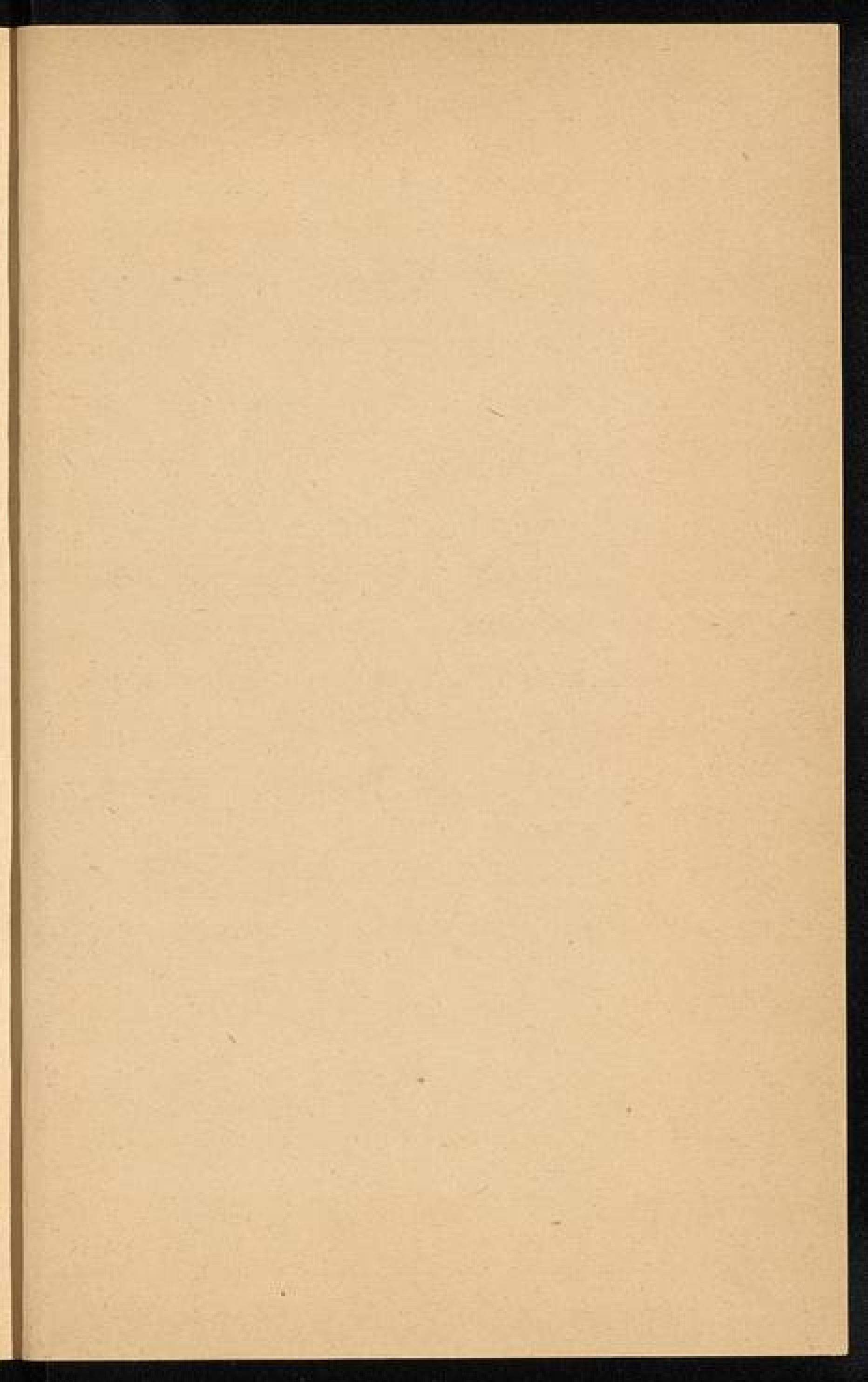
فاذا عركتني الحياة ادركت سر آلامه فيها

الى والدي :

كمال درغوث

مع الاخلاص والاحترام

بيروت رشاد درغوث المغربي

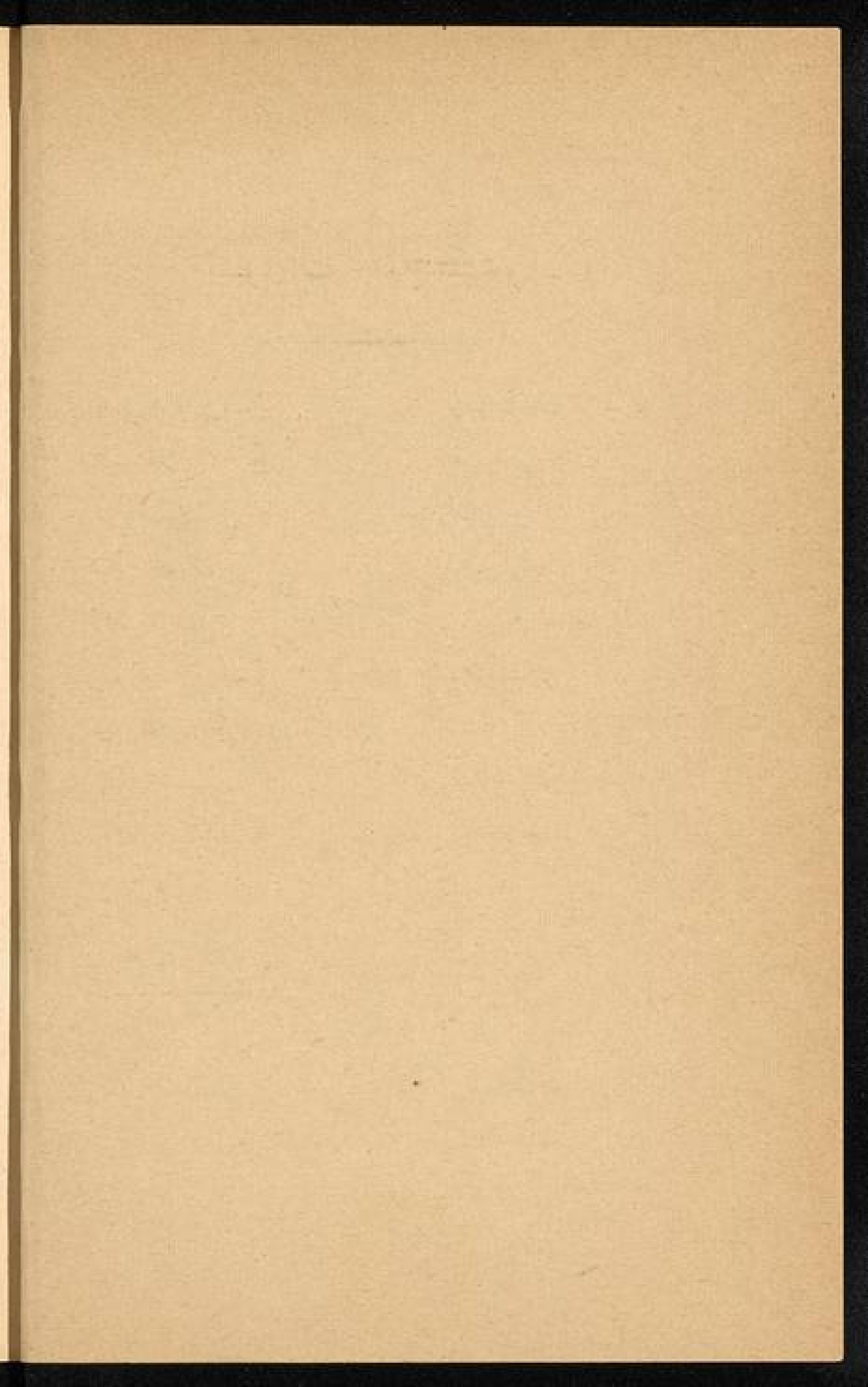


منشورات « المكشوف »

الصبي الاعرج (نفد)	توفيق يوسف عواد
عشر قصص (نفد)	خليل تقي الدين
عمر افندي	لطفي حيدر
قميص الصوف	توفيق يوسف عواد
كان ما كان	ميخائيل نعيمة
ليلة القدر	احمد مكي
على المنبر (الجزء الاول)	الدكتور نقولا فياض
ارجوحة القمر	صلاح لبكي
الاشتراكية العملية	ابراهيم حداد

تحت الطبع :

الباب المرصود	عمر فاخوري
الرغيف	توفيق يوسف عواد
عيسى بن مريم	احمد مكي
الشيوعية	ابراهيم حداد



لقد طلق الدنيا واهلها — حتى اقرباءه الادنين— فما يزور أخاً ، ولا يعود شقيقة . وآوى الى عزلة صارمة ، لا يعكر عليه صفوها غير نفر من العامة ، اعجبوا بعلمه ، فكانوا يأتون اليـه ، في اكثر الايام ، بعد صلاة العشاء ، فينصرفون الى الحديث — او ينصرف اليه وحده — وهم مصغون حتى ساعة متأخرة من الليل .

ذاك هو الشيخ الصافي الذي ابدعته الطبيعـة ، كما شاءت لا كما شاء . ولو خُيِّر لازداد عدد الجملاء واحداً ، وكذلك عدد الثقلاء . ولكنها مع هذا لم تجر عليه الجور كله : فقد منحته عينين فيهما من الحور لون فتان ، ومنكبين عريضين ، فيهما من الرجولة كل مظاهرها . الا ان انصباب الشيخ على المطالعة طيلة ثلاثين سنة ، اورثه احديداباً في ظهره ، قصر من قامته ، فبدا ربعة ، وهو الى الطول اقرب .

ولولا انفه الضخم على دقة في ارنبته ، وحاجباه الاثيثان المقرونان فوق ذلك الانف الشهواني ، لبدا الشيخ الصافي لرائيه رجلا متوسط الجمال ، تبعث لحيته المرسلة امام عينيه اشباح الصحراء ، وتذكره بحسن البادية . حتى اذا حدقت النظر الى وجهه ، بدت لك ما خلفتـه الجدري فيه من آثار ، تثير في النفس ما لا ادري من اشمئزاز ، وثورة ، ورحمة .

لذا اعرض الشيخ الصافي عن النساء في مطلع الحياة ، وهو في بلد يلهب الدم فيه : شباب باكر ، وطبيعة فتانة . فيعرف الفتى الحب في الرابعة عشرة ، ويتزوج قبل العشرين . وها هو قد اشرف على الخمسين ، ولم يفكر في ان يجد لنفسه رفيقة تؤنسه في وحدته المريرة ، على الرغم من الحـاح الناس في تزويجه ، منعاً للقال والقيل ، وتأميناً لراحة الشيخوخة .

— « لكم ما تريدون ! هاتوا لي الزوجـة التي تطيق حياتي الممضة ، وتسايرني في تحمل هذه الحياة ! »

فالشيخ الصافي أثر (أناني) ، لا يطيق التنازل عما الف من طراز معيشة وعادات . وهو يخشى ان تفسد عليه المرأة التي ينتخبهـا له الناس — لا هو نفسه — تلك الحياة : فكتبه الصفراء التي ورثها عن ابيه ، وعقـاقيره التي يحضرها بيديه ، وعطوره التي يستقطرها بنفسه ، وطيوره التي يتعهدهابذاته ، كل ذلك كان احب اليه من امرأة ، يرى من واجبه الانصراف اليها بكليته ، والانقطاع عن كل ما يشعرها باشتغاله عنها بسواها ، وان خالف في ذلك عرف الناس اجمعين .

لذا عاش ماعاش قابعاً في منزله ، ينفق ما تغله مزرعة انتقلت اليه بالارث ، كالبيت الذي يسكن ؛ بين كتبه التي لا يمل من مطالعتها ، وتكرار تلك المطالعة ؛ وعقاقيره التي يوزعها على الناس ، حسنة لوجه الله ، وطلابا لمرضاته ؛ وعطوره التي يدهن بهـا ، ويهب اصدقاءه منها ما يدهنون به ، يوم الجمعـة والعيدين .

والشيخ الصافي رجل تقى ودين ، ورث صلاح القلب عن آبائه واجداده . فهو يمت بالنسب الى اسرة عريقة في الشرف ، لها امجادها في بلاد العربية — ومن قبل في الجزيرة — ولها مفاخرها . فمن دمشق الى القاهرة ، ومن بغداد الى الساحل الشامي — ومنه الى رمال الحجاز — اسرة يعتمد رجالهـا الذكاء للفوز في الحياة ، والمواهب للنجاح ، شأن الشرق منذ اعتقد ابناؤه برائع جماله ، وخصب ارضه ، وقدسية تربه .

فأبو الشيخ علم من الاعلام ، وامام من الائمـة ، وكذلك كان اجداده

واسلافه · جمعوا ثروة من المال لا تقل عما جمعوا من ثروة العلم · ولكنهم لم يكونوا يرون تدوين ذلك العلم ، ليخلدوا ذكراهم ، ولينتفع به الناس ، بعد موتهم ، انتفاعهم به في حياتهم · فهم ارفع من ان يفكروا في تخليد ذكر هو خالد حتما ، شاء الناس او ابوا ؛ وهم ابلغ اثرة من ان يحملوا انفسهم مشقة الكتابة والتأليف ، لينتفع بمجهودهم قوم ، قد لا يفقهون العلم الذي يودعون بطون الصحائف · فكان احدهم يقضي العمر علماً في رأسه نور الهدى ، وبين جنبيه روح الصلاح ، يهرع اليه الناس ، فيتزودون مما افاض الله عليه ؛ فبيته بيت الامة ، وتعاليمه نورها الذي به تهتدي ، وعلى ضوئها تسير · حتى اذا انتقل الى رحمة الله ، ظل عارفوه ولداته يشيدون بذكره العطر ، وعلمه الغزير ، وقلبه الطهور ؛ فاذا اخرس الموت السنتهم ، أو أنطق الحسد تلك الالسنة بهجر ، انطفأ ذكر ذلك العالم الفرد ، والامام المتبع :

« كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   انيس ولم يسمر بمكة سامر »

كل هذا كان يعلمه الشيخ الصافي حق المعرفة ؛ ويرى ان وراء تلك الاثرة رغبة في احتكار العلم · لذا كان يشعر بأن عليه رسالة تختلف عما اداه آباؤه من رسالات في الحياة : وهي ان يخلف كتابا يودعه ما في صدره من معرفة ، لا نسلا يورثه اخلاقه واستعداداته · لذا حبس نفسه ، وآثر العزلة ، مردداً قوله : « ان النبوغ المثمر قد ولدته العزلة من الثبات اضعاف ما ولدته العبقرية من الذكاء »

— « ولكن بم ابدأ ؟ أأخلد في كتاب ما اكتشفت من اسرار الكيمياء وتركيب العقاقير ؟ ام اثبت في الصحائف ما علمت من اسرار مزج العطور ، وتربية الطيور ؟ ام ما فقهت من خفايا العقائد والديانات ؟ »

والحق ان الشيخ الصافي مكتبة جامعة ، على سوء في ترتيبها ، واختلال في نظامها . فهو اشبه بعلمة ، او سفر ضخم ، حشي بشتى العلوم ومختلف المعارف ؛ ولكن يداً عبثت به ، فافسدت تسلسل صفحاته، وتتابع فصوله. فبات آخره اوسطه ، واوله آخره ... وما بين هذا وذاك فوضى لا يجد المرء فيها الى الهدى سبيلا . لقد كان الشيخ عالماً شرقياً : علم جامع ، ومعرفة متنوعة الافانين ، واسعة الافاق. ولكن.. ! فوضى واضطراب ايضاً، يضعفان ثقة المرء بنفسه ، ويحولان بينه وبين الاستفادة من ذلك العلم الغزير ، وتلك المعرفة الكبيرة.

ثم ان على الشيخ الصافي ان يقوم بدورين ! دوره كرجل رب بيت — وان لم يبق في المنزل سواه بعد موت امه — ودوره كامرأة تدبر ذلك البيت. ولكنه كثيراً ما كان يغفل الثاني عجزاً لا كسلا . فتسرح العناكب في كل مكان ، وتتجمع الطناجر والصحون ، ويتراكم الغبار ، ويتكاثر الذباب وسائر الحشرات . في الاربعين يشيخ الشرقي وتهن قواه ، وقد جاوز الشيخ الصافي الاربعين، منذ امد غير قصير.

٢

خرج يوماً في نزهة الى قلعة خربة تجاور منزله ، يرجع تاريخها الى عهد الصليبيين، كيما يمتع النظر بمرأى البحر الذي لا يراه ، حتى من على سطح بيته، والبحر منه قاب قوسين او ادنى . فنوافذ منزله مرتفعة ، لا يبلغها الرجل مهما طالت قامته ويداه —وهو محاط بمنازل تلاصقه ، فتحجب عنه الشمس والهواء— ولولا صحن الدار ، يطل منه الشيخ على السماء ، او تطل السماء منه عليه ، لكان بيته ، كأكثر بيوت المدينة ، اشبه بقبر منه بمنزل ، يجد ساكنوه فيه صحة الابدان ، وانشراح الصدور ، وسرور النفوس . هو الحجاب ... حجاب المرأة الذي يقضي بكل ذلك : بالنوافذ المرتفعة ، ذات «الشعريات»، وبالبيوت الخالية من شرفات ينعم المرء عليها بالهواء الطلق ، والشمس المحيية، والنور الطهور .

جلس الشيخ الصافي عند اسفل برج ما يزال قائماً في تلك القلعة المتداعية، ينطق بعزها الغابر وعظمتها المندثرة . واخذ يسرح الطرف في الآفاق ، مسبحاً الخلاق العظيم ، في شبه ذهول ، كأن عينيه تبصران ما يرى اول مرة: فمن بحر تحاكي زرقته زرقة السماء ، الى جبل تموجت فيه الخضرة تموج الماء ، الى شمس تنحدر الى اليم كتلة من لهيب اصفر ، فتنعكس اشعتها ، على سطح المياه وزجاج النوافذ ، متلألئة راقصة ، ويبدو الكون كأن النار اضرمت في جنباته .

لوح أخاذ ! يفتن اللب ، ويستهوي القلب ، بتنوع ألوانه واختلاف صوره .
ألوان تناسقت في لبنان تناسق جباله الشامخة ، وصور تتابعت تتابع الاشباح في مخيلة الحالم . فما استفاق الشيخ الا والليل مرخ بعض سدوله . وسرعان ما تجهم وجه السماء ، واسرع الظلام الى شوارع المدينة الضيقة المسقفة ، حتى لا يتبين المرء طريقه .

عندها لعن الشيخ الصافي الكتب التي زادته بعداً عن الناس ، ولم تفده غير قصر البصر . وراح يتلمس سبيله تلمس الاعمى ، ساعة التقى رجلا اسرع اليه ، وسار بين يديه ، حتى اوصله الى بيته . ولما بلغ الشيخ اعلى السلم الذي تعود صعوده وهبوطه في الظلام — وان لم يكن ذا درابزين يقي المرء شر السقوط — وهو يفكر في اقفال النافذة الغربية ، في غرفة نومه ، خوف الريح والمطر ، التفت الى رفيقه مودعاً . وكأنه ، وقد اجهده تسلق عشرين درجة من سلم حجري شديد الانحدار ، بسرعة لا تنبغي لمن ودع الشباب في الامس البعيد ، قد فقد توازنه فانقلب ، وسقط الى الارض .

لم يصرخ الشيخ فقد اغمي عليه . وان سقوط رجل ، في مثل سنه ، من علو يتجاوز الامتار الثلاثة ، حري بان يقضي عليه . ولكن الشيخ الصافي قوي العضلات ، على نحافته ، سليم القلب . فهو لم يسرف في انفاق قواه ، شأن اكثر الشباب في هذا الشرق الجميل .

ولما عاد اليه وعيه ، تلمس اعضاءه ، فاذا هي سليمة الا من رضوض مؤلمة حملت الى عينيه الدمع . عندها بدت له صور حياته المريرة حية نابضة . وتجسمت له عزلته التي احبها بافظع صورها . وتطلع الى المستقبل ، فرآه اظلم وابشع . فبكى وهو الذي ما ذرفت عيناه دمعة قط ، حتى يوم وارى

امه في التراب ، وقد كانت منه بمنزلة العالم من سواه .

بكى الشيخ الصافي حتى بل الدمع لحيته: فقد شعر في تلك اللحظة بمرارة الوحدة ، وحدة الشيخ العانس القاتلة . وايقن انه لن يستطيع صبراً على ما اختط لنفسه من خطة . فالمرأة من الرجل كروحه منه ، بل هي معنى حياته، ولحنها المطرب . ولئن استطاع الشيخ ان يقطع الشباب وثباً ، لاهيا بكتبه وعقاقيره ، تحنو عليه ام ليس لها من الذكور سواه ، ولا من الاناث غير شقيقته تماضر ، فهو الان على مثل اليقين بانه لن يستطيع العيش من بعد، ووهن الشيخوخة قد راح يدب فيه ، ومصائبها تكتنفه ؛ بعد ان فقد امه ، وقاطعته شقيقته ، واهله اجمعون .

تلمس الشيخ اعضاءه ، فاذا برجليه قد رضتا ، وبذراعه اليمنى قد جرحت ، كما جرحت عينه اليسرى . واذا به يغمى عليه مرة ثانية . فقد تحمل من الآلام ما ناءت به نفسه . ولم يصح الا بعيد الفجر ، على دقات متتابعة ، ما تعود سماعها في مثل تلك الساعة من الهزيع الثالث من الليل . فاستجمع قواه ، وراح يزحف على بطنه حينا ، وعلى جنبيه حيناً آخر ، حتى وصل الى الباب ففتحه . واذا هو وجهاً لوجه امام صلاح ، ابن اخيه لابيه ، الذي انفرد بين ابناء الاسرة جميعهم بزيارة عمه بين الحين والحين . فقد كان يؤدي صلاة الفجر في المسجد الذي يرتاده عمه ، فلم يشاهده في المصلين ، وهو من لا يقطع صلاة ولا صوماً ، فرابه امره وساورته الوساوس . فجاء يتفقد ذلك العم المسكين، وهو يضطرب خوفاً ووجلا .

لم يتمالك الشيخ من ذرف العبرات ، ومن تقبيل ابن اخيه، وقد انحنى على يده يقبلها ، وهو يسأله بلهفة :

– ما بك يا عمي ؟ ماذا اصابك ؟

والعم ينهنه عبرات تخنق صوته ، فلا يستطيع الكلام ؛ وينظر الى ابن اخيه بعينين،ما بدا عرفان الجميل ناطقاً صارخاً فيهما مثله في تلك اللحظة ، كما لم ينبض قلب بالعطف والحنان والرحمة نبضان قلب ذلك اليافع بها في تلك الساعة . وكأني بصلاح قد استشف ما يجول في صدر عمه ، وما تضطرب به نفسه ، فقال له بجرأة كانت من ابرز صفاته :

– والى متى تتحمل هذه الآلام يا عماه ؟ ولم تتحملها وحيداً ؟

فاجابه الشيخ ، وهو يجفف لحيته بطرف كمه :

– صدقت يا صلاح ! صدقت ! لقد اضعت افضل شطري عمري . . . ولكنني لن اضيع الشطر الاخير !

قال الشيخ الصافي هذا،والشمس تزحف من وراء الافق متباطئة ،فتمحو يوماً لتنفخ الروح في يوم . حتى اذا طلعت كان الشيخ قد خلق خلقاً جديداً . فودع امسه « باف » طويلة ممدودة ، اودعها كل ما في قلبه من حرقة ، وما في نفسه من ألم .

٣

وقف صلاح عند رأس عمه ، ينظر الى « المجبر » يضمد جراحه ويداوي رضوضه ، بعين ملؤها القلق . والمجبر يطمئنه بنظراته الباسمة حيناً ، ويزيده قلقاً باضطرابه حيناً آخر .

ولقد ود صلاح لو يعنى بعمه طبيب اخذ العلم عن اربابه ، لامجبر انتقلت اليه مهنته بالوراثة . الا انه ما استطاع حمـل الشيخ على ذلك ، وهو الذي لا يثق بالاطباء .

— يا ابن اخي ! انهم علموا شيئاً وغابت عنهم اشيـاء ! انهم يتاجرون بعلم اقسموا ان يجعلوه في خدمة الناس ، ويبذلوه لرفاهيـة البشر ، والتخفيف من اوجاعهم !

شاع الخبر في المدينة : فحزن قوم وسُرّ قوم . وتوافد الناس على الشيخ يعودونه ، او يشمتون به . فيستقبلهم في غرفة نومه التي خلت من كل اثاث ، عدا فراشه الذي ينام فيه ، وبعض بسط كانت لابيه ، وحصير ابتاعته والدته المرحومة قبيل وفاتها ، لتفرش به الدار يوم العيد . وفوق ذلك ، فقد كان ذلك الاثاث البسيط يشكو الاهمال ، كما تشكو الجدران ما تراكم عليهـا من غبار ، حوّل لونها الابيض الناصع الى لون مزيج من الغبرة والصفرة . حتى اذا لام الشيخ معارفه على اهماله امر بيته ، وهو احد افراد تلك الاسرة العريقة في المجد والشرف ، ضحك منهم هازئاً وهو يقول :

– وما فائدة اثاثكم الذي تفاخرون به ؟

ثم يستعيذ بالله ممن ألهتهم زخارف الدنيا عن الآخرة وطيباتها ، ويستغفره عما اصاب من نعيم الحياة .

وسرعان ما ابلَّ الشيخ الصافي من رضوضه ، ولكنه لم يشف من غرابة اطواره : فدجاجاته وحماماته ما برحت اعز الخلق لديه ، دون ان يستفيد منها سوى البيض الذي يستحله لنفسه ، دون سواه مما تعطيناه الطيور . وعقاقيره ما زالت موضع اهتمامه بل شغله الشاغل ، دون ان تدر عليه ربحاً او نفعاً . وعطوره ما برحت ملهاته التي يتلهى بها ، دون ان يتطيب الا يوم الجمعة والعيدين ، او بعد تناوله السمك من المآكل . فالشيخ لا يستعمل الصابون : فهو يغسل يديه قبل الطعام ، عملاً بالسنة الشريفة ، ولكنه لا يغسلها بعده ، وان كان ممن يتناولون الاطعمة بايديهم ، لان ذلك ابرك ، واشهى ، والذ .

ولكن تلك الرضوض قد تركت في فخذه اليمنى اثراً رافقه طول حياته ، على الرغم من مهارة ابي علي المجبر وعنايته . فكان الشيخ يحلج اذا مشى ، ويعرج عرجاً يكاد يخفى الا على بعض الاعين ؛ كما تركت الجروح ، التي اصابته في عينه اليسرى ، غشاء يحول بينها وبين رؤية ما دق من الاشياء او بعُد . وقد يكون جهل المجبر بطرق معالجة العين مما سبب ذلك الغشاء ! ولكن الشيخ الصافي ممن يثقون بابي علي ، ويحترمونه . فهو قديم في مهنته ، وهو من ذوي البيوت الكريمة ، وممن يقبلون يد الشيخ صباح مساء ، كلما التقاه . وهو اخيراً ممن يذكرون الله ، ويقيمون الصلاة وسائر الفرائض . وقد رافق ابو علي الشيخ الى الحج ، لسنوات خلت . فرآه يمسح يديه على الكعبة ، وهو يقول ، بخشوع وايمان :

– « اللهم يامن آتيت عيسى الحكمة ، ومحمداً حبيك فصل الخطاب ، آتني حكمة انفع بها الناس ، واكفيهم مصائب الدهر ، وعوادي الايام ، واجعلني من الموفقين في هذه الدار وفي الآخرة ، يا ارحم الراحمين ! »

فيعجب الشيخ الصافي ببلاغة هذا الرجل الامي ، ويفعم السرور قلبه ، لما شاهده من تقاه وحبه للغير . فانما الشيخ رجل لا تغره مظاهر الناس، وتظاهرهم بالتقوى ، لانه يعلم ان تقى اكثرهم تقية ونفاق، وتجارة . لهذا فاتح الشيخ الصافي ابا علي بما نوى ، وطلب اليه ان يدله على فتاة يقترن بها .

لا تسل عن تعجب ابي علي ساعتئذ ، ولا عما احدث ذلك الخبر ، وقد ذاع في المدينة ، من ضجة :

– الشيخ .. يريد .. ان يتزوج ؟!

– الشيخ .. يتزوج !

فانما الشيخ الصافي رجل عُرف بزهده في الدنيا، وعزوفه عن ملذاتها ، وان كان بعض اقاربه يتهمونه بما هو منه براء ، مرددين قول الحكيم : « لا تستغني المرأة عن الرجل الا بالرجل ، ولا يستغني الرجل عن المرأة الا بالمرأة . »

لذلك لم يحركوا ساكناً ، ولم يتدخلوا في امره . فهم لم يصدقوا ان الشيخ ممن يمكن ان يصيروا ازواجاً وآباء . فكان على الناس ان يعنوا بشأن الشيخ دون ذويه . وكان على ام علي – زوجة المجبر – ان تكون خطابته . والنساء يسرهن ان يسعين في التزويج متى جاوزن حد الشباب ..

فلم تمض ايام حتى جاءت ام علي، تحمل الى الشيخ بشرى اكتشافها الفتاة المنشودة :

– يا سلام عليها ! ما احلاها ! شعر كأنه حبال الجمال ، ووجه كأنه

طلعة البدر ! فم قدر الفستقة ، وانف صغير ، وقامة قصيرة ، وور كان عبلتان و . . . و . .

فيقاطعها الشيخ باسماً راضياً :

— ولكن ابنة من هذه الفتاة ؟

— انها اخت تلميذك موسى ، وابنة السيد عبد الكريم الرجل الطيب .

فيتجهم وجه الشيخ ، ويضطرب . ثم يطرق مفكراً ، والغضب يعقد حاجبيه :

— كيف يتزوج ابنة ملاح ساذج ، واخت بياع مسكين ؟! وهو الشيخ الصافي الذي علمت منزلة اسرته ومبلغ شرفها . ثم كيف يتزوج اخت رجل يتهمه بعض الناس بانه يحبه . . وان كان الشيخ يبرأ الى الله من كل ماتتقوله الالسن الخبيثة ؟ وكيف . . وكيف . .

ثم يرفع الشيخ رأسه ، وعيناه تنطقان بما يختلج في نفسه . ويلتفت الى ام علي ، فاذا بها تشير اليه اشارة فهم معناها ، ولكنهـا ابت الا التصريح . فقالت وهي تتلمظ ، وتغمز بعينيها السوداوين :

— لا مهر ولا نفقات : غسّل رجليك وادخل ! ثم لا يفوت سيدنا ان هذه العيلة شريفة . . فهي ذات حسب ونسب ، وهي . .

نعم انها عيلة شريفة ! وبحر الانساب ، الذي يحفظه الشيخ بين مخلفات ابيه ، ويحرص عليه ، يشهد بذلك . وفوق هذا ، فان لدى السيد عبدالكريم « شجرة » فيها نسب اسرته . وما زال الشيخ يذكر انه دعي يوماً الى حفلة « فتح » تلك الشجرة ، لاثبات اسماء الاجيال الجديدة فيها ، وانه تعشّى من الخروف الذي نحر قرباناً وتبركاً . فهم يعتقدون ان « فتح الشجرة » ، دونما

نحر كبش ، او ما هو بمثابته ، عمل مشؤوم ، يقضي بعده على جميع الاحياء من الاسرة الشريفة ..

تذكر الشيخ الصافي كل هذا ، فابتسم بعد العبوس ، حتى بــدت نواجذه السوداء . ثم حك لحيته الكثة بيديه ، وازاح عمامتــه عن جبينــه الاصلع ، وانتصب واقفاً . لقد قرر الشيخ الزواج من تلك الفتاة . ولكنه احب ان يعلم مبلغ ما لها من العمر . فلما اطمأن الى انها لا تتجاوز الثالثة عشرة ، اقبل على ام علي يربتها ويقول :

— قدر الله لي مكافأتك يا ام علي ! اذهبي واخطبي هذه الفتاة ، ولتكن في بيتي بعد ثلاثة اسابيع .

وهكذا كان . فاننا السيد عبد الكريم رجل يجد في مصاهرة الشيخ اعظم شرف يمكن للمرء ان يناله في هذه الدار .

٤

لم تغمض لسعاد ، في تلك الليلة — ليلة الزفاف — عين . وهي التي تعودت ان تنام منذ غروب الشمس حتى شروقها . فقضتها ليلة بيضاء ، تبكي ألماً .. وتبكي يأساً . تتلفت الى الشيخ النائم بقربها في الفراش، يغطُّ غطيطاً مزعجاً ؛ وتحدق النظر الى وجهه ، وقد جعدته السنون ، وشوهته الجدري ؛ والى لحيته ، وقد التهبت شيباً ، فبدت على ضوء السراج الضئيل بيضاء في حمرة الشعر المخضب بالحناء ؛ فتشيح بوجهها ؛ ينعقد اليأس بين عينيها الصغيرتين غضباً صامتاً . فتتشنج اعصابها ، وتغمض باصرتيها ، وتفتح فمها كمن تود ان تصرخ او تستغيث .. فيمر امام بصرها شبح امها واخيها ، وقد حملت الاولى عصا ضخمة تلوح بها ، وانتضى الثاني خنجراً رهيباً يهدد به .. ساعة تجرأت هذه الفتاة المسكينة على القول :

— ولكن ! انه في مثل سن ابي يا اماه !!

فتصرخ الام غاضبة :

— اصمتي ! واحمدي ربك على شرف نلته .

ويقول الاخ محنقاً :

— سدي فمك ! هذا لا يعنيك . ستتزوجين الشيخ وكفى !

والاخت المتزوجة :

— يا لك من حمقاء ! أزوجي الشاب الفوال خير ، ام زوجك الشيخ العالم؟

هذا بركة يا اختي ، ونعمة ارسلها لك الله !

ثم تتململ في الفراش كالعصفور في قفصه ، يود الانطلاق ، فلا يجد الى الحرية سبيلا ؛ وتقضي قضبانه القاسية على كل حلم شاده في العيش الطليق ، والعين المتدفقة ، والاغصان الوارفة .. فان ما فقدته تلك الليلة من كنز تصونه العذراء وتعتز به ، كان يعيدها الى حظيرة الواقع : فقد اصبحت زوجة الشيخ الصافي ، وهي التي لم تبلغ مبلغ النساء ، الا لاشهر خلت ،وهي التي كانت قبل ايام تلعب مع اترابها ، بالكعاب حيناً ، وبالدمية (العروس) حينا آخر ، كلما انهت عملها في المطبخ او لدى الخياطة .

— رباه ! ما لجفوني لا تجد الى النوم سبيلا ؟ وما لرأسي يدور كأنني في طاحون ؟ كم الساعة الان ؟

وتلفتت سعاد الى الجدار ، حيث علقت ساعة ، لم يكن في البيت مستيقظا سواها . وحاولت ان تتبين الوقت الذي هي فيه ، على ضوء السراج ، فلم تستطع ، لانها تجهل كل شيء ، حتى الارقام ؛ وهي التي لم تتعرف في حياتها الى الكتاب . الا ان الساعة كانت ارحم من ان تترك هذه الفتاة في حيرتها طويلا . فاخذت تدق ،وسعاد تعد على اصابعها تلك الدقات الجميلة ، التي لا يستشعر ما فيها من انس ولذة ، الا من ارق الليل مهموماً ، في بلدة ينام من فيها بعد غروب الشمس بقليل ، كي لا يصحوا الا قبيل شروقها . فلا حانوت يسهر صاحبه ،ولا صيدلية تفتح ليلا ،ولا عاس (حارس) يؤنس الأرقين وقع اقدامه على بلاط الشارع . حتى امها ، التي رافقتها من بيت ابيها الى بيت زوجها ، قد غفت وراحت تغط ايضاً .

عدّت سعاد عشر دقات . فهي اذن من الفجر قاب قوسين او ادنى .

لقد ذهبت عشر ساعات من هذا الليل الذي لم تجد أطول منه ، وهي التي لم تشعر بطول الليالي قبل ليلتها الحمراء هذه .

ولكن سعاد لا تصدق كل ذلك ، وهي في مثل بحران المحموم . أهذا هو الزواج الذي كانت تحلم به ورفيقاتها ، عند الخياطة ، فتشع عيونهن وتبرق اسرتهن ؟ امرأة تأتي فتتفحص عن الفتاة كما يتفحص الشاري عن بضـاعة او متاع ؟ تجسها من هنا ، وتشمها من هناك ، وتطلب اليها ان تقف ، وان تمشي . ثم رجال يجتمعون ، ويسمّون مهر الفتاة ، كما يسمي التاجر ثمن سلعة . وقـد يتساومون ، ويختلفون على قـدر المعجّل والمؤجّل من (الثمن) .. ، ثم تُحمل الى رجل لا تعلم من امره الا انه زوجها الذي رضي به اهلها ، فصاهروه . فما عليها الا ان ترضى به قريناً وعشيراً !!

أهو الزواج حمام يسلخ فيه جلد الفتاة بعقود السكر ، ويحرق بماء يكاد يغلي ؟ ثم حناء تصبغ بها الاطراف ، وكحل للعيون ، وتزجيج للحواجب ، وتصفيف للشعر ؟ حتى اذا استكملت ، او استكملن ، زينتهـا ، جلست النساء من حولها يتفرجن عليها ، دون ان تستطيع حراكاً او كلاماً ؛ بل دون ان تفتح عينيها لترى هذا الافق الجديد من حياتها ، وتستشعر اللذة التي يجدها من ينتقل من عالم الى عالم ، ومن جو الى جو !!

لا لا ! ليس هذا ما كانت تحلم به سعاد . بل شابا فيه عذوبـة ، وفيه لطف ، وفيه ذكاء ، كالذي كان يتراءى لها في احلامها الطاهرة . واثوابا حريرية كالتي ترتديها بنت « المتصرف » . وحلى كثـيرة ، من اساور في معصميها الدقيقين ، الى اقراط في اذنيها الصغيرتين ، وقلادة في عنقها .. حتى اذا حان يوم الزفاف رقصت واترابها ؛ وغنت سلمى صديقتها ذات الصوت

البديع، وزغردت خالتها زغاريدها الرائعة. فاذا جاء العروس، في ختام السهرة، وزاح عن وجهها الخمار، فبدا براقاً وسط هالة الشعر السوداء، اعجب بها واحبها .. وكان له منها الاخلاص والحب والبنون .

كانت تود سعاد ان تسمع صديقتها تغني، ليلة الزفاف، هذه الاغنية التي تستسيغها كثيراً :

« آه يا اسمر اللون !	حبيبي الاسمراني
اسمر وعيونه سود	وكحل عينه رباني! »

كما تحب هذه الزغردة من فم خالتها :

آهوها ! من قال عنك سمرا	يا طلعة البدر !
آهوها ! يا سمسم مقشور	ياعسل بشهده!
لأحط لك ظهري	لتقطعي مجرى النهر

واخاف عليك يا حاجة الدهر !

بل كانت تود ان تقف في زينة الزفاف، بين اترابها وصديقاتها، فتفاخرهن باثوابها اللماعة، وحليها المتلألئة، ثم تستجلي «تنجلي» رافعة يديها، باسطة كفيها، مغمضة عينيها، في حياء ودعة، وخالتها تردد :

قومي البسي الثوب الكحلي	قومي اشلحي الثوب الكحلي
والله لاهجر الدنيا واهلي	على شانك يا .. شامية !

٥

والطبل والمزمار اللذان سمعتهما سعاد ،يوم عرس بنت الجيران ؟ لله مـا اجمل انغام الزمّار ابي رامز ، اذ تتردد في قصبته ، كما يتردد الصوت في صدر الفرس اذ يحمحم ! بل لله ما اطول نفَسه ! لقد عدت سعاد حتى المئة ،قبل ان تنتهي زمرته ! والاغرب من ذلك انه يستطيع ان يزفر من فمه في المزمار ، وان يشهق من انفه ، في لحظة واحدة ! فصدر ابي رامز اشبه بمنفاخ غريب ، يمتلىء هواء ويفرغ ، ويفرغ ويمتلىء في وقت واحد .

لقد كانت سعاد تأمل ان يعلن ابو رامزعرسها بطبله ومزماره ، فيتم فرحها وسرورها ، وتُشهد اهل المدينة ، صغارهم وكبارهم ، عـلى ذلك السرور والفرح ؛ فيتحدثون بما كان اياماً وليالي ، ويضربون الامثال .

لم تنعم سعاد بشيء من كل ذلك : فلا غناء ولا رقص ، ولا مزمار ولا طبل .. ولا شيء مما كانت تحلم به .فقد جيء بها من الحمام الى بيت ابيها، تتألم مما اصابها بين يدي الماشطة ، وهي لاتبدي حراكاً ، ولوغرزت في رأسها الصغير دبابيسها الحادة ؛ فليس من الادب ان تتألم العروس، او تتململ، وليس

من اللياقة ان تظهر ذلك الالم بوجه من الوجوه . ثم حملت الى بيت الشيخ لتكون زوجة له ..

تذكر سعاد كل ذلك الآن ، كما يذكر المرء حلماً بعيداً . فقد مشت من الحمام ، في شارع المدينة الرئيسي ، تكاد تتعثر ، فوق بلاطه الناتىء ، كأنه بقايا صخور نحتها البحر على مر العصور ، فحولها الى ما يشبه الاضراس النخرة . ومشت من حولها امها ، وهي تكفكف دمعاً فيه من الفرح بزواج ابنتها مثل ما فيه من الحزن على فراقها . واختها يتدلى بطنها حتى لتشبه الحامل في شهرها الاخير ، لولا ما يرى من خفة في حركتها . ويتبعهن على قيد خطوات خالة سعاد ، وابنتها ليلى الارملة ، وامرأة خالها واختها ..

ولعل هذه الاخيرة اشد من في هذه الحاشية سروراً ، فقد بلغت مناها ، فرأت سعاد زوجة رجل هرم ، وهي التي كانت تعيّرها بزواجها ، منذ سنتين ، من ابي يوسف الارمل ، ذي الاولاد الاربعة . ولعل ليلى اشدهن حزناً ، فقد كانت تتمنى ان يكون الشيخ لها ! وهي التي فقدت بعلها منذ عشر سنوات ، بعد عام وثلاثة اشهر فحسب من زفافها ، دون ان يخلف لها ولداً تتسلى به ، او تتعزى عن فقده ، في ابان شبابها .

وسرعان ما وصلت العروس وحاشيتها الى المنزل الابوي الذي ستفارقه عما قريب . فهو على قيد خطوات من الحمام — وان كان ما بينها ابعد مسافة يقطعها السائر في شوارع تلك المدينة القديمة .

هؤلاء هن النساء يتممن زينة العروس ، ثم يجلسن من حولها ، يتكلمن جميعاً في وقت واحد : فهذه تقص قصة ، وتلك تروي حديثاً ، والاخرى تتمنى امنية .. ويتعالى الصخب والضجيج ، حتى ليخيل اليك ان هذا الجمع من البشر

قد استحال الى ألسنة فحسب ، تتكلم ، ولا من آذان تصغي او تسمع .
وهذه احداهن تشهق وتنتحب : فقد تذكرت اختها التي توفيت في مستهل صباها ، دون ان تذوق لذة الزواج وتتمتع بخيراته . ثم تكفكف دمعها ، وتبتسم ، وهي تتمنى للعروس خير الاماني ، ولاهلها دوام السرور ..

وتنقضي السهرة بين هرج حيناً ، وسكوت حيناً آخر ، حتى يأزف الوقت . فتقوم العروس ، تتبعها امها والقابلة . وتتفرق النساء من بيت عبد الكريم ، كما يتفرق الرجال من بيت الشيخ الصافي ، وقد سامروه ...

امـا ابو سعاد واخوها ، فقد قضيا سهرتهما عند بعض الاصدقاء ، اذ لا يليق باهل العروس ان يجتمعوا ، ليلة الزفاف ، الى صهرهم اويدخلوا منزله .

مضت ساعة حسبها الشيخ دهراً . فالانتظار صعب . وانتظار العروس اشد صعوبة ومضضاً . وهو عصبي المزاج ، حاد الطبع ؛ فقام يـذرع صحن الدار جيئة وذهابا ، يقتل الوقت بالتسبيح حيناً ، وبقراءة ما تيسر من الاوراد حيناً آخر .

اخيراً ، وصلت العروس ومن معها . فاستقبلهن الشيخ بابتسامته العريضة ، وقد لبس احسن ما عنده من ثياب : عمة بيضاء ناصعة تتوج بهـا رأسه ، فاكسبته روعة ، زادها بهاء لحيته المسرحة ؛ وجبة سوداء لماعة سترت سرواله الفضفاض ، واسترسل فوق حذائه الاحمر ، المكفوفة مقدمته ومؤخرته . وقد تمنطق بشملة من الشال الجميل ، لفّت اسفل بطنه ، كمـا سترت نصف صدره ، وتدلى منها سلسلة ساعته الذهبية .

ظل الشيخ الصافي واقفاً لا يتحرك منه غير يديه وشفتيه : فهو يرحب بالقادمات دون ان يخطو نحوهن خطوة ، اذ على العروس ان تتقدم منه وتقبل

يده ، فيأخذ هو بيدها ويقودها . وقد فعلت سعاد واجبها بكل لباقة . فتقدمت من زوجها الشيخ ،واهوت على يده تقبلها . الا انها ذهلت عن تجفيف ما علق بانامـلها من آثار الخميرة ،بعد ان الصقتها على الباب . فأحس الشيخ بمادة لزجة تعلق في كفه ، وادرك الامر فوراً . ثم التفت الى حماته باسماً بسمة فيها كل الازدراء، وقال :

– كوني براحة ! فستختمر ابنتك في منزلي وتتمّر ! فنحن قوم لا يفارق الرجل منا زوجه الا الى القبر . .

٦

والحق ان الشيخ الصافي يمقت كل تلك الخرافات ، التي يعتقدها اكثر الناس ، ويتمسكون بها تمسكاً يفوق تمسكهم بالحقائق . فالبخور يُحرق يشفي من كل مرض ، ويقي من العين ، كما تفعل التعاويذ . والخميرة ، تلصقها العروس على باب البيت اذ تدخله ، تجعلها في منجى من كل ما يسبب الطلاق او الفراق . والرمانة تسحقها بقدمها ، تجلب لها وفرة البنين .. خرافات تنتقل من الامهات الى البنات ، ومن الآباء الى الابناء ، منذ اجيال ، ويكسبها الزمن والصُدف قداسة تجعلها في مرتبة اليقين .

— « ذلك شأن الناس يا بني ! يقوم الوهم في اذهانهم ، فيحاولون اثباته لانفسهم وللناس ، مستدلين بالمصادفات على صحته ، بدلا من ان يسعوا الى ابطاله ودحضه ، بادلة العقل وبراهين المنطق . والاغرب من كل ذلك انهم يحاولون اقامة الدليل على صحة اوهامهم من صلب الدين . فيؤلون الآيات ، ويبدلون الاحاديث ، او يختلقونها ، فيكذبون على الله ، وعلى انفسهم وعلى الناس ...

« فكم مريض جاءني مستشفياً برقية فطردته ! وكم امرأة وفدت علي راغبة في الحمل بتعويذة فصرفتها ! »

ثم يصمت الشيخ قليلاً، ليعود الى الحديث اشد حماسة، ومريدوه (تلامذته) مصغون، كأن على رؤوسهم الطير:

— « انا اعتقد ان الله قادر مقتدر، يفعل ما يشاء. وان كلا ميسر لما خلق له. فليس اذاً من قوة تغير من قضاء الله او تبدل من قدره.. « يمحو الله ما يشاء ويثبت » اذا اخذ المرء بالاسباب التي دلَّ عليها الله تعالى، وارشد اليها العقل. اما ان تعويذة ترد قضاء الله، واما ان رقية تمحو ماقدر، فهذا من الشرك بالله، والهزء بذات الحق! »

ويذكر الشيخ الصافي لمريديه انه حاول مراراً ان يطعن تلك الاوهام بسيف السخرية، فيقضي عليها في العقول، ويبقر ما تحدثه فيها من دمل، يحول بينها وبين رؤية الحق ونشدان الحقيقة.

جاءه مرة رجل «رومي»، نصح اليه جيرانه ان يذهب الى الشيخ مستشفياً من ألم في ضرسه، سبب ورماً في حنكه وانتفاخاً في رقبته، حتى كاد يختنق. فنصح الشيخ اليه ان يستشير (المزين) او من يتعاطى طب الاسنان غيره، كالمجبر ابي علي، والقابلة ام توفيق.. فأبى الا ان يرقيه الشيخ. فقد سمع بما له من مكانة، وحدثه الجيران عما في يديه من بركة، وما خصه الله به من نعمة. والشيخ ينكر كل ذلك ضاحكاً هازئاً. اخيراً لم ير بداً من تنفيذ رغبة هذا الابله المسكين وقد راح يقبل يديه، مترحماً مستعطفاً. فوضع الشيخ يده على خد الرومي وبدأ رقيته، والرجل لا يفقه ما يقول:

— اللهم العن عبدك هذا... وانزل عليه جام غضبك وسخطك... وباعد بينه وبين الخير والصحة والعافية...

والرومي يردد: « آمين.. آمين! » بايمان وحرقة. حتى اذا انتهى الشيخ،

قبّل الرجل يده بخشوع المتعبد، واخلاص المؤمن، وانصرف وهو يدعو له بالخير.

وما اصبح اليوم الثالث حتى دُق باب الشيخ . فاذا هو الرومي عينه، جاء وقد زال المه، يشكر للشيخ رقيته : انه يهوي على قدميه متبركاً بهذا الولي « القديس »، مقدماً له « مجيديين » عربوناً على اعترافه بالجميل، وتقرباً من هذا الرجل الطاهر . فأخذ الشيخ بيد الرجل، ورفعه من الارض محوقلا، وهو يردد بالتركية :

— قم يا بني .. استغفر الله ..! ادع لنا بالخير فقط، وخذ مالك هذا وانفقه على عيالك ..

والرومي يصر على ان يتنازل الشيخ فيأخذ منه ذلك المال الزهيد :

— لا على سبيل الاجر، معاذ الله يا سيدي ! بل على سبيل التبرك ...

والشيخ يأبى ويتكلف الوقار، محاولا كظم ضحكة امتلأ بها صدره .

وفي شبابه، كان الشيخ الصافي اشد نقمة على الخرافات واهلها منه في شيخوخته . فهو ما برح يذكر قصة ابي حسين الراعي المسكين :

— فقد جاءني يرجو تعويذة لبقرته الوحيدة، بعد ان فتكت العيون « عيون الحساد والمبغضين يا سيدي بطرشي ولم تترك لي سواها، فهي كل ثروتي في الحياة . » وعبثاً حاولت ان اعيد الراعي الى حظيرة الصواب والمنطق، فاخذت القلم وكتبت بالحبر الاحمر :

« اللهم ياذا القدرة ! اقصف عمر هذه البقرة . » ثم طويت الورقة على شكل مثلث متساوي الاضلاع، ووضعتها ضمن غلاف من قماش، وقدمتها الى الراعي، وانا اوصيه بان يحرص عليها :

— لا تضعها يا ابا حسين في مكان غير لائق، ولا تقرأها ولا تعطها لآخر!

مضت الايام وبقرة ابي حسين على احسن حال ، تُدرُّ في النهار اربعة ارطال من الحليب ، وتأكل بشاهية غريبة . ولكن الداء الذي فتك برفيقاتها سرت اليها جراثيمه ، وفرخت في دمها وتكاثرت ، فمرضت البقرة وماتت ، على الرغم من بكاء ابي حسين ، وصلواته وتعويذته . فجلس المسكين الى جانبها سادراً ذاهلا ، يفكر في مستقبله ، بعد هذه الرفيقة الثمينة ، وفيما عساه ان يصنع لاعالة ام حسين ، واطفالها الخمسة ! ساعة وقع نظره على «التعويذة» فأحسّ بالغضب يطبق صدره ، وبالحنق يلهب قلبه . فمد يده واخذها ، ومزق غلافها ، وحاول ان يتبين ما كتب فيها — على الرغم من علمه بحرمة قراءة التعاويذ — ولكنه امي . . فتألم مرة ثانية ، لجهله هذه الاشارات التي تفهم بعض العيون ما انطوت عليه من معان ، ولا يفهم منها البعض الآخر شيئاً .

ولكن ابا حسين تذكر ان امرأته تقرأ القرآن الكريم ، فبوسعها ان تقرأ ما كتب في تلك التعويذة .

— خذي . . اقرأي يا امرأة . .

حاولت ام حسين بدورها ان تميز كلمات التعويذة ، فلم تستطع قراءة كلمة منها ، ما عدا الكلمة الاولى (اللهم) التي تراها مراراً في القرآن ، وان كانت لا تستطيع الجزم بصحة ذلك — لما بين هذا الخط وخط القرآن من فروق .

تعجب ابو حسين من عجز امرأته عن قراءة سطر في ورقة ، بينما هي تقرأ في المصحف كل يوم عدة صفحات .

— كيف تقرأين القرآن اذاً ؟

— انا تعلمت القرآن فقط عند الشيخة ، ولم اكمل لأتعلم القراءة والكتابة .

ما كان كل هذا الا ليزيد الراعي غضباً وحنقاً . فأخذ تلك الورقــة من يد امرأته ومزقها ، وهي تنظر اليه بعينين كبيرتين من العجب ، وتكــاد ترتجف خوفاً من ان يصيبها بعض ما اصاب التعويذة — وهي التي خبرت طباع ابي حسين ، وذاقت المر من سوء معاملته وحماقته . فاكتفت بان استغفرت الله لها وله ، وطلبت العفو مراراً .

ومع ان ابا حسين ممن يغمضون اعينهم ، ويفتحون افواههم ، ويمدون السنتهم ، ويغتابون الناس ويبهتونهم احياناً ، فلم يترك واحداً من معارفه الا أخبره بشؤم تعاويذ الشيخ ، وحدثه عن جهله .. مع ذلك كله ظل الرجال والنساء يلجأون الى الشيخ الصافي، كلما شعروا بتوعك في صحتهم ، او رغبوا في جلب خير او دفع شر . اخيراً عمد الشيخ الى عزلته ، واقفل بابه في وجه اكثر الناس ، وخاصة في وجه هؤلاء الذين يعيشون على وجه الارض ، تكبل عقولهم الخرافات ، وتقيدها الاوهام .

٧

اختلى الشيخ وزوجه في الغرفة ، او ظن انه كذلك . ولم يدر بخلده ان عيوناً تراقبه من خارجها ، وتعد عليه انفاسه . فأم العروس والقابلة تتناوبان استراق النظر من ثقب القفل : تلك لتطمئن الى مصير ابنتها ، وهـذه لتعلم مدى تأثير نصائحها في العروس .

تضع الام عينها على الثقب ،فترتجف .. ويصعد الدم حاراً الى خديها المتجعدين، ويخفق قلبها ويضطرب صدرها ،وتكاد تختنق بنفسها ،وتدور الارض من حولها .. فتترك « المرصد » للقـابلة ، حاملة رأسها بين يديها ، وهي تجر رجليها جراً، وترتمي على مقعد هناك ، كمن صرعته الحمى .

وتقف القابلة بجثتها الضخمة وقامتها الجبارة ، وتضع عينها على الثقب . فتشعر بالنار تلهب جنبيها، وترتخي مفاصلها ، حتى لتصطك ركبتاها، وتغمض عينيها في شبه غيبوبة الحالم ، وتنتفخ اوداجها ، وتنفرج شفتاها ، وتتقطـع انفاسها . ثم تترك مكانها الى حيث ام العروس ،وهي اشد ما تكون شوقاً الى زوجها المرحوم ،واسفاً عليه ..

وهكذا دواليك، حتى شعرت الام ان الشيخ قد قضى لبانته، على اهون سبيل ...

٨

الضوء يزحف من وراء الافق متباطئاً ، متئـداً ،والكون في سكون المزيع الاخير من الليل .

هذا ديك يصيح معلناً انبلاج الفجر ، وهذا مؤذن يصرخ موحداً الله . واذا بالصياح يتعالى من كل ناحية . واذا سكون الليل لحن موسيقي تنافرت انغامه تنافرا رائعاً . والمؤذن ينشد :

« قم في الدجى يا ايها المتعبد حتى متى فوق الاسرة ترقد؟ »

روعة تأخذ عليك مشاعرك فتنتشي بخمرتين : خمرة الحركة والحياة بعد السكون والموت ،وخمرة البصر والضياء بعد العمى والظلمة .وجلال تستشعره في صوت يهبط عليك من اعلى المئذنة ملؤه الخشوع ، وكأنه يهبط من السماء . وفتنة هي مزيج من روعة الساعة المسكرة ،وجلالها الماتع .

تلك لذة ما برح الشيخ الصافي ينعم بها ، منذ ان بلغ التاسعة من عمره ، وبات مكلفاً ما يؤمر المسلم به من صلاة وصوم . الا ان ما يستشعره اليوم من الوانها هو اسمى ، وانصع ، وادق . بل بات ما يحسه الشيخ منها الان لذة

يشوبها الألم والاشفاق على قوم يقضون الليل ، الا بعضه ، بين كأس مترعة ، وغادة خليعة . فاذا اسكرتهم الخمرة ، وانهكت قواهم الموبقات ، آووا الى الفراش ، والليل يشمر مودعاً ، ليغطوا غطيط الجمال ، ويئنوا انين المرضى .

اما الشيخ، فانه يسبق الضوء الى الحياة ، ويكحل الطرف بجمال الطبيعة تهب وسنى عريانة ، وينتشي بكأس من الشعر يترعها الكون الواناً فتانة . حتى اذا دعاه صوت الحق، قام الى حضرة الله يعبـده ويسأله العفو والمغفرة . فاذا هو في عالم ودّ الخطاة لو يعفرون عنده الجباه تذللا وقرباناً .

فتح الشيخ الصافي عينيه، والمؤذن ينشد بصوت بُحّ من خشية الله :

« قم وادع مولاك الذي خلق الدجى والصبح وامضِ فقد دعاك المسجد »

فهب من فراشه عجلا كعادته ، على الرغم من انـه قضى اكثر الليل ساهراً .. فما مشى بضع خطوات ، يتبعـه ظله الهائل يلقيه ضوء السراج ، وقد وضع على طاولة واطئـة في زاوية الغرفة ، حتى تذكر انه لم يبت ليله وحيداً ... فعاد ادراجه . فاذا قارب الفراش ، عثرت رجـله بطرف السجادة ، فوقع منكباً على وجهه فوق عروسه . فافاقت سعاد ، وهي التي ما غمضت لها عين الا قبيل الفجر ، مذعورة خائفة . وصرخت صرخة اضطرب لها الشيخ ، وندم على خطأ فرط منه ، واقبل على عروسه يربتهـا معتذراً ، ثم اهوى عليها يود تقبيلها . . ساعة فتح الباب ، وبدا عند عتبته شبح قد اقشعر شعر رأسه ، وارتسمت على وجهه علامة استفهام كبيرة . تلك ام العروس ، جاءت تبحث عن سبب الصراخ ، وتسأل ما الخبر ? حتى اذا تبيّنت الشيخ في وضعه قرب زوجه ، وادركت ان الامر لا يعنيها ، عادت ادراجهـا ، تبسم ابتسامة فيها كل الرضاء .

الشيخ يغتسل الآن ، في زاوية من زوايا المطبخ ، هي حمامه في عزوبته الطويلة ، وستبقى حمامه وحمام عيلته،ما عاش وانتظم شمل تلك العيلة . فهو يكره الحمامات العامة ، بعد ان باتت بؤراً للامراض وضروب الموبقات . انه يبدأ بالوضوء ،فيغسل يديه ويدلكهما ، وهو يقول :

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .نويت رفع الحدث »

ثم يمضمض الماء في فمه متغرغراً به : « اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ! »

من بعد يتنشق الشيخ الماء في انفه ، مزيلا ما فيه من اقذار ،وهو يرتل : « اللهم ارحني رائحة الجنة ، ولا ترحني رائحة النار . »

ثم يغسل وجهه ،من منبت شعر الرأس حتى اسفل الذقن،وهو يقول : « اللهم بيض وجهي ،يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . »

حتى اذا غسل ذراعيه الى المرفقين ، قال اذ يغسل اليمنى : «اللهم اعطني كتابي بيميني ،وحاسبني حساباً يسيراً .»وقال اذ يغسل اليسرى«اللهم لاتعطني كتابي بيساري ،ولا تحاسبني حساباً عسيراً . »

بعد ذلك يمسح الشيخ رأسه بيديه ، وقد بلها بالماء : « اللهم اظلني تحت ظل عرشك، يوم لا ظل الا ظل عرشك! »

ثم يمسح رقبته وهو يردد : « اللهم اعتق رقبتي من النار . »

ويغسل بخنصريه المبتلتين باطن الاذنين ، كما يغسل بسائر اصابع يديه ظاهرهما : « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه . »

واخيراً يطهر الشيخ قدميه حتى الكعبين ، ويقول اذ يغسل اليمنى :

« اللهم اجعل عملي مبروراً وسعيي مشكوراً ، وتجارتي لا تبورا » ويقول اذ يطهر اليسرى : « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم ، يوم تزل فيه الاقدام . اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . »

هذا ما يفعله الشيخ الصافي خمس مرات في النهار . وهو يعتقد انه لايبقى عليه بعد ذلك قذر او درن . لذا يأبى استعمال الصابون ، اذ لا يجد له حاجة ، حتى في الحمام . فيكتفي بصب الماء ثلاثاً على رأسه ، ومثلها على كتفه اليمنى واليسرى ، وهو يقول : « بسم الله! نويت اسقاط الحدث الاكبر . » ويدلك بدنه دلكاً شديداً . حتى اذا انتهى ، جففه وارتدى ملابسه ؛ وخرج الى الدار ، فصلى ركعتين ، حمداً لله وشكراً ؛ وملء برديه نشاط لم يكن يشعر به قبل اغتساله ، وفي نفسه طمأنينة لم تكن لها قبل صلاته .

ثم التفت الشيخ الى الساعة في الحائط ، فاذا وقت صلاة الفجر مع الجماعة قد فاته . فتألم لحرمانه من تلك اللذة ، وهو الذي ما برح منذ نشأ يهرع الى الصلاة في المسجد ، كلما ارتفع صوت المؤذن ينادي : «حي على الصلاة ! » ولا يذكر الشيخ انه تأخر يوماً عن صلاة الفجر ، وفي الصف الاول من المصلين ، الا يوم وقع من اعلى السلم ورضت اعضاؤه ، وفي الايام العشرة التي تلته . اذ كان مضطراً الى الصلاة منفرداً ، بل الى الصلاة وهو متمدد ، في الايام الخمسة الاولى ، التي تلت ذلك اليوم المشؤوم .

لذلك عاد الشيخ الصافي واستقبل القبلة ، وصلى صلاة الفجر اداء ، في البيت ، بعد ان وجد لنفسه عذراً ، حيال مريديه وسائر المصلين في الجامع ...

— « انهم يعلمون امر زواجي الليلة البارحة . فيعذرونني ... »

٩

والواقع ان تغيب الشيخ عن صلاة الفجر مع الجماعة ، في ذلك اليوم ، كان بمثابة اعلان عن زواجه :

– ما بال الشيخ الصافي لم يبكر الى الصلاة اليوم كعادته ؟

– لا ادري ! لنسأل تلميذه المقرّب موسى !

– يا موسى ! لمَ لم يأت الشيخ اليوم ؟ أأصابه مكروه ؟

– نعم . . لا . . والحمد لله . ولكنه . . . تزوج . .

– الشيخ . . . تزوج ؟! . .

– بهذه السرعة ؟

– ودون ان يخبر احداً ؟

– ودون ان يدعو احداً ؟

– يا اخوان ! انتم خبرتم مثلي اخلاق الشيخ . وتعلمون ان كل ما يقوم به الناس ، من طقوس في الاعراس وطنطنات ، يخالف لروح الدين . . . لانه اسراف وتبذير ، وحب ظهور . . . والشيخ يبرأ الى الله من كل ذلك !.

– ولكن . . . الناس . . . الناس يعتبون ويتقولون . . .

– ما للشيخ وللناس ! الم تسمعه مراراً يردد : « النـاس . . . الناس !

لم اجد في حياتي قيمة لهؤلاء الناس، اذا اجتمعوا ، ولن يفعلوا . انهم «كالبعبع» يخاف منه الاطفال ، وان كان خيالا محضاً !»

فينصرف احد المستمعين ،وقد تجمهروا حول مريدي الشيخ بالعشرات ، وهو يتمتم :

— « اعوذ بالله من كل متجبر ! »

ثم يتبعه آخر وهو يقول بحنق :

— « هؤلاء الوجهاء والعلماء يحتقرون شأننا ! »

وثالث ورابع وخامس ، وهم يحوقلون مغيظين :

— «لا حول ولا قوة الا بالله ! »

ثم ينادي المؤذن باعلى صوته : « الله اكبر ! الله اكبر ! اشهد ان لا اله الا الله ! اشهد ان محمداً رسول الله ! حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! قد قامت الصلاة ! الله اكبر ! لا اله الا الله ! »

فينفرط عقد الاجتماع ، ويهب الجميع ،يتسابقون الى اخذ مكانهم ، خلف الامام ، في صفوف متراصة مستقيمة . فتلتصق الاكتاف وتلتحم الجوانب ، حتى ليعود المصلون كأنهم كتائب الجند يزحفون . ثم تدوي اصواتهم الخافتة في جنبات المسجد — وقد غص بهم هذا اليوم ، وكان يوم جمعة ، حتى عتبة الباب الخارجي — فيتردد صداها ، وسط سكون المدينـــة عند الفجر ، في الجوار القريب ، كأنه هدير البحر الهائج يعود الى الهدوء :

— « نويت ان اصلي لله ركعتين ،فرض صلاة الفجر ، مؤتماً بهذا الامام ! »

حتى اذا صرخ الامام : « الله اكبر ! » مبتدئاً الصلاة الجامعة ، سكن ذلك الهدير ، ليعود اشد وضوحاً ،واحن نغماً :

«سبحانك اللهم وبحمدك ! وتبارك اسمك ! وتعالى جدك ! ولا اله غيرك ! »

الامام يقرأ ، فيصمت الكل دون حراك ، حتى لتحسبهم اصناماً :
« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين . . . »
فاذا انتهى من ترتيله فاتحة الكتاب ، صمت وردد المصلون دفعة واحدة، وبصوت واحد « آمين » . . ممدودة ، بلحن يأتي قراراً لنغمه . ثم يعود الامام فيقرأ بصوته الجهوري الأبح :
« ووصينا الانسان بوالديه احساناً . اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما ، فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً ! » متفنناً ما شاء له علمه باصول الموسيقى والحانها ، وما شاءت روعة الآيات . والمصلون مصغون، منصرفون الى الله عن كل ما عداه . ثم يصرخ الامام : « الله اكبر ! » فيردد المؤذن التكبيرة ، ويركع المصلون، وهم يدعون الله متمتمين بأسمائه الحسنى .
— « سمع الله لمن حمده ! »
فينهض المصلون ، ويرتفعون بابصارهم الى السماء وهم يجيبون : « ربنا لك الحمد والشكر ! »
— « الله اكبر ! » فيسجد المصلون معفرين الجباه تذللا لله ، وهم يسبحونه تسبيحاً تضطرب بـه الشفاه ، وتضطرم القلوب . ثم ينتصبون للركعة الثانية، فيرتل الامام الفاتحة ، ثم يقرأ : « ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجزَ به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات ، من ذكر او انثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة، ولا يظلمون نقيراً . »
ويركع المصلون ، ثم يسجدون . . . وتنتهي الصلاة بالتسبيح، والدعاء، والاستغفار، كما تبدأ .

ويخرج الامام من الصلاة، فيخرج معه المصلون، وهم يرددون ما يقول، اذ يلتفت الى يمينه ويساره: « السلام عليكم ورحمة الله! استغفر الله العظيم الذي لا آله الا هو الحي القيوم واتوب اليه . . . »

وينصرف الناس من المسجد، هؤلاء الى اعمالهم، واولئك الى بيوتهم، وينتشرون في الارض. والضوء ما برح عند قمم الجبال واعالي الهضاب، ينير جنبات الافق وبعض السماء، فينعكس منه على المدينة نور ضئيل، يختلط بالظلمة المدبرة، كأنه الشعر الابيض يشتعل في الراس الفاحم. فيسير الناس متمهلين في الشوارع المسقفة، يتعثرون في اذيالهم فوق بلاطها الناتىء، وقد انطفأت قناديل البترول، اذ نفد زيتها؛ ويتحدثون عن امس الدابر بحسرة والم، لا يخفف من اثرهما سوى امل يختلج في الصدور باليوم المقبل.

— « وهذه الحرب التي طال امدها . . . ؟

— سبحان الله! ما تنطفيء نار حرب حتى تشب نار اخرى!

— انا لا اعي ان « الدولة » ارتاحت يوماً من الحروب . . .

— ولكن الحرب اوشكت ان تنتهي!

— لمن تكون الغلبة يا ترى؟ اللاعداء ام للدولة وحلفائها؟ »

ويمر احد الجنود مسرعاً. حتى اذا اقترب من الجماعة المتحدثين، تمهل في مشيته وخفف الوطء، كمن يسترق السمع. فيراه احدهم، ويصرخ باعلى صوته:

— « يا اخوان! قولوا معي: « الله ينصر السلطان! »

— الله ينصره! »

ثم يتفرقون، والليل يسحب آخر ذيوله السوداء.

١٠

ما اشرقت الشمس ، حتى كان زواج الشيخ الصافي حديث اهل المدينة باسرها :

– « اعندك خبر ؟ . . . الشيخ تزوج !

– صحيح ؟ الشيخ . . . تزوج ؟! »

ويسمع المتحدثين رجل عابر :

– « الشيخ . . . تزوج ؟

– نعم ! الشيخ تزوج ! »

ويسري الخبر في المدينة بسرعة كل طريف جديد ، من فم الى اذن ، ومن حانوت الى سوق ، ومن بيت الى بيت :

– الشيخ . . . تزوج !

– الشيخ . . . تزوج !

فاذا جاء الشيخ الصافي الى السوق العامة ، يبتاع مؤنة يومه ، من لحوم وحلويات ، اجتمع الناس ورواد السوق ، من عمـال وخدم ، ومستخدمين ، واقبلوا عليه ، يقبلون يده ، ويهنئونه :

– « مبارك ما عملت يا سيدنا !

– ان شاء الله تتهنا يا مولانا !

— بالرفاء والبنين يا شيخنا ... ! »

والشيخ يجيب عن كل ذلك ببسمة عريضة ، تفضح اسنانـه ولحيته . فتبدو تلك وكأنها بزور اليقطين قبل نضجه ، وهذه شمطاء ، وقد اشتعلت شيباً . اما اذا قبل يد الشيخ رجل مسن ، فانــه كان ينحني عليه بدوره ، ويقبل عارضيه، محاولا نزع يده من بين يديه ، وهو يردد :

— « استغفر الله ... استغفر الله ... ! »

لقد ود الباعة ان يقدموا للشيخ حاجاته ، في ذلك اليوم ، دون مقابل . ولكن اباء الشيخ ، وما يعلمه الناس من خلقه، حالا دون تحقيق تلك الامنية . الا انهم باعوه ما طلب من بضائعهم بثمنه الاصلي ، دونما ربح الا قليلا ، كيلا يكون لهم على الشيخ منة ، او يخجلوا كبرياءه ، ويستثيروا غضبه . وان ينس الشيخ الصافي فلن ينسى خالداً البقال ، الذي ابتاع منه عدة اشياء ، نقده ثمنها دون مساومة ، وانصرف . ثم بدا له فعاد ، اذ تذكر حاجـة اخرى :

— « هل لك ان تعطيني قفة من البن ؟

— من كل بد ! ولكن ... افضل ، يا سيدي الشيخ ، ان تشتريها من جاري ، ابي سعد المسكين ... انا اكتفيت بما نلت من ربح ... اما هو فانه ما « استفتح » منذ الصباح ! »

فينظر الشيخ اليه نظرة يودعها كل مـا خالج نفسه من اعجاب بهذا البياع القنوع ، واكبار لهذا الرجل المحب للغير ، حتى مزاحميه . ثم ينصرف الى ذلك الجـار ، ويبتاع منه حاجته ؛ ويعود الى البيت ، وهو يحدث نفسه حديث ذلك البقال الشريف . لذلك كان الشيخ يحب اولئك الناس ، هذه

الطبقة العاملة من الامة، باخلاص المؤمن، وقناعة الحكيم. فيخالطهم ويقربهم؛ كما يكره اولئك الذين حسبوا انفسهم اسياداً للناس ؛ وقعدوا كسالى ، يطمعهم الغرور ؛ فشقي بهم الناس، وشقوا بانفسهم . حتى اذا صارحهم الشيخ بحقيقة امرهم، أعرضوا عنه، واتهموه، وتقولوا عليه الاقاويل .

١١

مضى على زواج الشيخ الصافي سنة، اصبح في خلالها ابا لابنة، ود لو كانت غلاماً ذكراً ... ولكن ايمان الشيخ كان قوياً، فلم يغضب، ولم يقاطع امرأته او يعرض عنها، كما يفعل عامة الناس، اذ تلد نساؤهم الانثى. بل تقبل عطية الله قبول القانع الراضي بما تيسر له، وراح يعزي سعاد وامها — اللتين لم تستطيعا كظم غيظهما، فعصبتا رأسيهما حزناً — وهو يردد لهما متمثلا :

— « خير النساء من بكرت ببنت ! »

ولكن امراً غير ذلك هم الشيخ، واقض مضجعه : لقد تراكمت عليه الديون، وهو الذي لا مورد له غير ما تغله المزرعة، وبعض هدايا يتقبلها من مستفت في قضية ارثية، او مستشير في مشكلة زوجية. ديون بلغت ضعفي ما كان ينفق على نفسه، في كل عام، على عهد امه المرحومة !

— « ترى لم تراكمت هـذه الديون ؟ وكيف تجمعت دون ان أشعر ؟ لنحسب : انفقت في الشهر الاول خمسة عشر مجيدياً، ولم ازد على ذلك في الشهر الثاني. اما في الثالث فقد ازداد الصرف قليلا... هذا طبيعي. لقد كان شهر رمضان ... ورمضان كثير الحاجات، وفير النفقات ... »

وعبثاً حاول الشيخ ان يضبط حساب خرجـه على دخله ... فهناك عشرات المجيديات ضائعة لا يجد لها اثرا ... لربما انفق ونسي، وهو الذي لا

يحصي في كتاب ما يكسب أو ينفق ؟ ولكن شعورا غريباً كان يحمله على اتهام حماته. فهي كثيراً ما تنتهز فرصة غيابه ، لتزور ابنتها . ثم تنصرف قبل مجيئه او فور وصوله ، متثاقلة في مشيتها ، حذرة تكاد ترتجف خوفاً ...

ولو اتيح للشيخ الصافي ان يستمع الى هذا الحوار، يدور بين سعادوامها ، في كل يوم او اليوم بعد اليوم ، لعلم السر في تجمع تلك الديون :

–«يا ابنتي ! نحن بحاجة ، وانت في نعمة ! بات ابوك عاجزا... واخوك لا يكسب الا قليلا ...

– ولكن ... حرام يا امي ! هذا سرقة ...

– حرام... سرقة... مسكينة ! من تعطي اهلها وتفرج كربتهم... هذا ليس حراماً ابدا ... اذا اخذت المرأة من زوجها او ابنها فليس ذلك من السرقة في شيء يا بنتي ! !

– واذا رآني ... او علم ... ؟

– عندئذ تقولين له : «هي مرة ... وحسب » ... فيصفح ! »

وعلى سعاد المسكينة ان تدخل بعد ذلك الى غرفة النوم ، وتمد يدها الى الدرج ، حيث يختزن الشيخ ماله ، و.. تنشل ما تقدمه الى امها وترضيها.. او ان تحملها ما خف من الثياب وغلا ، او ان تضع في سلة شيئاً من مؤنة البيت ، وترسله مع ابن اخيها او ابن اختها ... الى امها تارة ، والى اختها تارة اخرى ...

وهكذا كانت تسلب اموال الشيخ وهو لا يشعر . وهكذا تجمعت الديون ، بحيث اضطر بعد ثلاث سنوات ، وقد بات اباً لطفلين ، هدى بكره ، وموسى ثاني اولاده ، الى ان يبحث عن عمل يدر عليه مايعينه على تأمين النفقات

الضرورية ، وان لم يكف لتسديد الديون ٠

وسعاد مـا تنفك عاكفة على سلب زوجها ، ارضاء لذويها ٠ بل بات هؤلاء يرون ان لهم حقاً في اموال صهرهم ، كما امست سعاد تجد في السرقة لذة ، وان كانت تلك العادة لما تتحكم فيهـا ، بحيث تصبح عملا آلياً تقوم به هادئة مرتاحة الوجدان ٠ فقد كانت تضطرب ، كلما باشرت تلك الخيانة، اضطراباً شديداً ، حتى ليكاد يسقط في يدها ، ويفتضح امرها : ولا سيا وقد اضحى في البيت رقيب عليها ، يتبعها أنى ذهبت ، ويحصي حركاتهـا ٠ تلك هدى التي اتمت سنيها الثلاث ، واصبحت تنقل الى ابيها مـا تسمع وما ترى ، ببساطة الطفل، وهي الثرثارة الممتازة:

– « بابا ! ... الماما اكلت برتقالة واطعمتني حزة واحدة !

– بابا ! الماما كسرت الجرة !

– بابا ! جاءت « ستي »

– بابا ! الماما ضربتني !

– بابا الماما اعطتني ملبسة !

– بابا ! جاء خالي ... »

١٢

في ذات يوم ، كانت سعاد تمد يدها الى الدرج من خلف ، من الفرجة التي يتركها بين جوانبه وسطح المنضدة . وكانت هدى في الحديقة ، تتلهى بالنظر الى الدجاجات ، وقد اجتمعت تتفلى في ذلك النهار ، على ضوء الشمس . فما كادت الام تقبض بيدها على بضعة « بشالك » ملأتها حتى دخلت هدى ، تحمل دجاجة امسكت بها من عنقها ، وهي تقول :

— « ماما ! ماما ! ماتت . . . ماتت . . . ! »

فما كان من سعاد الا ان تركت « البشالك » حيث كانت ، وانتزعت يدها بعنف فجرحتها ، واقبلت على ابنتها ، تحاول ان تخفي اضطرابها وغيظها . فلما تبينت صدق قول الطفلة ، ورأت الطائر مخنوقاً فار دمها ، واصبحت في حالة من الغضب ارتها ابنتها خصماً او عدواً . فاخذت الدجاجة الميتة ، واهوت بها على رأس هدى ، وهي تدعو عليها مزمجرة مرعدة :

— « خنقتها . . . الله يخنقك ! ويخلصني منك ! »

وكانت ضربة شديدة دارت لها الفتاة دورتين ، ووقعت الى الارض مغشياً عليها . فما ان رأت الام ما صنعت بابنتها حتى فقدت صوابها ، او عاد اليها الصواب ، وتلاشى غيظها . فارتمت فوق هدى تناديها فلا تجيب ، وتهزها فلا تتحرك . وجن جنون الام :

–« يا ويلي ! ماتت البنت ! »

واسرعت الى ماء الورد ترش منه على وجه الفتاة وقد احتضنتها وهي ، والدمع يتحجر في عينيها الجاحظتين .

في تلك اللحظة عاد الشيخ الصافي الى البيت ، وراح يرتقي السلم متباطئاً كعادتـه . واذا به يسمع انيناً يقطعه ما يشبه الحشرجة ، وصوتاً يتعالى نادباً :

– « يا بنتي ! يا بنتي ! »

فيقفز الشيخ ، على قدر ما تسمح لمثله سنه ، ويدخل الغرفة يلهث تعباً فلا يستطيع الكلام .

– « تعال وانظر ما جرى لبنتك ! يا ويلي ! يا بنتي ! »

فيكب الشيخ على ابنته ، وقد اصطبغ وجهها الوردي بصفرة الموت ، وذبلت ملامحها ، فلا يصدق عينيه . ويشعر ان الارض تدور من حوله ، حتى ليكاد يهوي بدوره مغشياً عليه ... في تلك الساعة أيقن الشيخ ان كل ما في الكون لا يوازي حياة هذه الطفلة ، وانها حقاً معنى وجوده ، فهي منه كل شيء ... هي نفسه قد ولدت مرة ثانية !

وتفتح هدى عينيها . وما ان ترى اباها مكباً عليها ، يبلل الدمع لحيته ، ويهد الألم ما في وجهه من معاني القوة والحياة ، حتى تتعلق به ، وهي تقول بلهجة المريض في بحران حماه :

–« بابا ! ضربتني الماما ! »

فيأخذ الاب ابنته بين ذراعيه ، فاذا هي تغلي بالحمى غليان القدر فوق النار . ثم يلتفت الى امرأته مقطباً متجهماً ، والدمع في عينيه يمور ويرتج ألماً

محضاً . فتغطي سعاد وجهها بيديها ، وتنتحب . ثم تنكب عـلى الارض تخنقها العبرات . ويرى الشيخ الدجاجة مسجاة الى جانب فراش البنت ... فيعلم نصف الحقيقة ... اما النصف الثاني فيبقى في ذمة الدهر وذمة سعاد .

*

جاء الطبيب وعاد (فحص) الفتاة . فاذا الامر بسيط في رأيـه :

–«لا تخف يا شيخي ! ولا تضطرب ! حمى بسيطة ... هـذا موسمها في البلد ... ستزول بعد ثلاثة ايام ... وهذا علاج ...

– ولكن ... هناك ... سبب ...

– مهما كان السبب ... انا لا تهمني هذه الحوادث تقع للاطفال ... ترتفع حرارتهم فجأة ثم ... تزول . بالطبع اعطيتم الطفلة مسهلا ؟

– لا يا حكيم ! انها اصيبت بهذا العارض فور ...

– اذاً اعطوهـا مسهلا اليوم ... وغداً تبدأون باعطائها العلاج ... الى اللقاء يا سيدي الشيخ ... ادع لنا ... لا تخف ! عارض ويزول ...»

وينصرف الحكيم، مطمئناً الى انه ادى واجبه على اكمل وجه . ويعود الشيخ ، بعد ان شيعه حتى السلم ، محوقلا، يكاد صدره ينفجر الما وجزعا . وهدى تصرخ بين الحين والحين :

–« بابا ! راسي . آخ .. راسي ...!»

فيكب الشيخ عليها والهاً ويقبل جبينها،وهو ينهنه دمعا ما ترقرق في عينيه احر منه . بينما انصرفت سعاد الى تهيئة المسهل ، وهي لا تصدق ان ضربة على الرأس تورث هذه الحمى ، وتؤدي الى هذا المصير .

بعد ثلاثة ايام شفيت هدى ، كما تنبأ الحكيم ، ولكن من الحياة !

افاقت في اليوم الثالث من غيبوبة دامت الليلةالبارحة بكاملها،ونصف النهارالذي سبقها،تحاول ان ترفع رأسها عن المخدة،فلا تستطيع الى ذلك سبيلا. وابوها عند فراشها لم يبرح مكانه ، الا لحظات ، كان يؤدي فيهـا صلاته عجلا ، ويدعو الله بحرقة وخشوع :

—« ابنتي ··· يا رب ··· ابنتي يا الله !»

ويخنق الالم صوت الشيخ ، وتصطبغ عيناه بلهيبه الاحمر · لقـد هجر النوم،وكتبه، ودجاجاته ، وكل ما يعز عليه في الحياة ، وانصرف الى العناية بهدى وتمريضها ، بينما انصرفت سعاد الى العناية بموسى الرضيع ، وقد اصابه اسهال ، عقيب رضعة اخذها في اليوم الذي مرضت فيه اخته · وعبثا كانت محاولة الجدة ، ام سعاد ، حمل الشيخ على ان يأخذ لنفسه قسطا من الراحة ، وانابتها عنه في السهر على البنت ، ما دام يأبى ان تقترب منهـا امها ··· فقد اصر على تمريض طفلته بنفسه · والشيخ حازم حتى العناد ، اذا اجمع امراً لا يرجع عنه·

استيقظت هدى في ذلك اليوم، ونظرت الى ابيها بعينين، ما تمثل الطهر والوداعة في شي. تمثلهما فيهما اذ ذاك،ونادته :

—« بابا ! انا جوعانة!»

فهب الشيخ يتعثرفي أذياله،ويكاد يصرعه الاشفاق، والحنان، والضعف· واتى لها بكأس من عصير البرتقال سقاهـا اياه ، وهو يود لو يسقيها دمه او يزول ما بها · فما انتهت من تناول ذلك العصير حتى صحت، وكأنها لم تصب باذى ، وراحت تغرد على عادتها ، وتحدث اباها احاديث شتى :

– « بابا . هل تشتري لي فستاناً للعيد ؟

– اربعة اثواب يا روحي ..

– وحذاء ابيض ؟

– حذاء ابيض وحذاء احمر ...

– اريد ان اذهب معك الى المزرعة .

– طيب ! آخذك معي . تكرم عيونك ! »

فتضحك هدى ضحكة تعبة منهوكة ، ثم تعود فتقول :

– « لا نأخذ موسى معنا ...

– معلوم ! لا نأخذه معنا ...

– ولا الماما ... !

– ولا الماما يا روحي ! »

وتسمع الام والجـدة صوت البنت ، فتتراكضان يستخفهما السرور بنجاتها . وتتقدم الجدة من فراش الصغيرة متحببة :

– « يا عيون « ستك » ! ماذا اصابك ؟

– ضربتني الماما ... ! »

فتهتز اعصاب الاب حتى لا تسعه الغرفة على رحبها ، وتضطرب الام حتى لتفقد وعيها ، ويسري الجزع الى الجدة ، فترتجف بدورها . وكأن وقـع الذكرى قـد جاء شديداً على قلب الفتاة ، فاختلجت خلجتين ، اسلمت في نهايتهما الروح، وهي تتمتم باسطة ذراعيها نحو الشيخ :

– « با ... با ! »

وسكنت الى الابد .

لقد كانت يقظة هدى يقظـة الموت • فجاءت الصدمة اقوى من ان يتحملها رجل كالشيخ، يرى في هذه الكبد سلوى نفسه اليائسة ، وامل قلبه الحزين، وبسمة ايامه العبوس، ففقد كل ذلك في لحظة واحدة ، وهو لا يحسب ان الموت يدرك هذا الجسد البض الملىء بالحياة ؛ وهـذه العيون السوداء الناطقة بالوداعة والذكاء ؛ وهذا القلب الحنون المفعم بالمحبـة والنبل • لذا ضاع صواب الشيخ، واسودت الحياة في عينيه ، وانقطع ما بينه وبين الناس• فاقام في حجرته ، في المكان الذي اسلمت فيـه هدى الروح ، ذاهلا او كالذاهل ، يصلي حينا ويبكي احيانا ، ثلاثة ايام بلياليها • ثم بـدا له فباع الدجاجات ،والكتب،وود لو يبيع البيت ومن فيه ••• فلا يبقى غير ذكرى الطفلة العزيزة الراحلة •

اما سعاد ، فسرعان ما تسلت عنها باخيها الرضيع • والمرأة في السادسة عشرة لا تستقر في نفسها الآلام ، كما لا يعشش في قلبها الحب • ان لهـا من شبابها مصرفا ينفذ منه كل شيء • فتعود وكأنها لم يخفق قلبها بعاطفة ، ولم يسحق فؤادها ألم • اما متى نضج قلبها واستوت مشاعرها ، فتصبح كالشيخ يهدها الحزن ، ويستعبدها الحب • وكان بين سعاد وبين ذلك ايام وسنون ، بل عمر كامل • فهي في مستهل الحياة والشيخ في اواخرها •

وهكذا عاش الشيخ الصافي من بعد مـا عاش ، لا تنفرج شفتاه عن ابتسامة ، متبرما بالحيـاة، زاهداً في الدنيـا ، فوق زهده القديم ؛ ليس له من سلوى فيها سوى عبادة الله ،والدعاء لابنته، او زيارة قبرهـا في البكرة والعشية ؛ حيث يجلس ساعات ، يناجي تلك الـتي حببت اليـه العيش حيناً من الدهر لم يطل ، ثم خلفته وهو اشد ما يكون حاجة الى انيس يفرج

كربه ، وحبيب تبسم في وجه الحياة .

ومع انه بات ابا لستة اولاد ، ما عدا هدى — خمسة ذكور وانثى — فان صورتها ما برحت في مخيلته ، وذكراها في نفسه ، وحسرتها في قلبه . بل عاش الشيخ يأبى ان يواصل واحداً من اولاده مواصلة الاب بنيه ، اومواصلته هو من قبل هدى الراحلة ، خشية ان يولع بهم او باحدهم ولوعه بها ، فيفقده . ولم تبق الايام منه بقية تتحمل مثل تلك المصيبة القاصمة . وغير هذا فانه ما كان يرى واحداً منهم حتى يتذكر هدى ويتحسر : يرى موسى ، فيذكر انه يصغرها بسنتين ؛ ويرى اسعد ، فيخطر له انها تكبره بخمس . ويراهم جميعاً ، فيتمنى لو ان هدى في قيد الحياة ، اذاً لكانوا سبعة لا ستة فحسب !

١٣

— « لم يبق من حياتي سوى ثلاث سنين ، اذا صدقت العرافة ! »

وما للشيخ وللعرافة ؟ انه يشعر هو بدنو اجله :

— « فقواي في انحطاط مستمر ، ونفسي في قنوط متفاقم . وقلبي ما برح يضعف حتى بت مضطراً للتوقف في السلم مراراً قبل ان ابلغ اعلى درجاته !! »

تلك العرافة في وجهها المشرق ، وعينيها الزرقاوين البراقتين ، كانت صادقة اذاً ، يوم قالت له :

— « لا تكمل السبعين . واذا اكملتها اشرفت على المئة ! »

ان الشيخ الصافي يذكر ذلك تماماً : كانت البلاد تختبط في فوضى من قيام بعض عناصرها في وجه البعض الآخر ، من جراء سوء تصرف الحكام ، ورجعية بعض الرؤساء ، واطماع بعض الدول المستعمرة . فجرت الدماء ، وخربت القرى ، وهدمت البيوت ، واحرقت المزارع . فالتجأ من نجا من سكانها ، رجالا ونساء واطفالا ، الى المدن الساحلية حيث ظل الامن مسيطراً . فحمى كرام اهلها اولئك المشردين ، واطعموهم واسكنوهم في بيوتهم . حتى اذا جاءت اساطيل الدول الاوروبية ، ورجال الدولة العثمانية ليعيدوا الامن الى نصابه ويسودوا النظام ، عاد اللاجئون الى مساقط رؤوسهم ،

فوجدوا اكثرها خرابا ينعق البلى في جنبـاته ، ويعبق الموت من تربته .
وكان في اولئك المنكوبين باهلهم واموالهم « جوهرة العرافـة » .
عادت الى قريتها ، حيث خلفت اولادها الاربعة ، وزوجها واخاها وزوجته — وقد ابت مفارقته وحملت السلاح كالرجال — وكانوا جماع اهلهـا الباقين في قيد الحياة . فلما اشرفت على البيت الذي احتضنها طفلة ورعاها يافعة ، وتعهدته شابة واماً ، وكان في آخر القرية نحو الغرب ، وراء اكمة تجعله في معزل عن سائر البيوت ، وهي تنشد باعلى صوتها :

« بلدي يا بلدي ما احلى العيشة ببلدي! »

راحت تنادي اولادها :
— « سليم ! خليل ! وديع ! اديب ! »
وتكرر النداء حتى لتنشق حنجرتها ، فلا تسمع جوابـاً الا الصدى ، يتجاوب في جنبات الوادي المجـاور . ثم تصمت قليـلا ، وتعود فتصرخ مناديةً زوجها :
— يا بو سليم !
واخاها :
— يا سعيد !
فلا يجيبها غير رجع ندائها تعيده الهضاب بارداً خافتاً !
واخيراً تصل جوهرة الى البيت منهوكة القوى ، بعد ساعات من سيرعلى الاقدام مضن ، شاق ، في طرقات غير معبدة ، تراكمت فيها الحجارة والحصى ، ترشح ثيابها عرقـاً ، ويكاد ما تنتعل في رجليها لا يخفي قدميها المشققتين . وما ان تفتح الباب وتدخل الغرفة الوحيدة التي تؤلف مع الحظيرة مسكن

الاسرة ومواشيها ، حتى تقف عند العتبة كالمصعوقة :

— « ماذا رأيت ؟ يا ويلي ! ويا طول حزني ! رأيتهم .. اولادي الشبان الاربعة ... رأيتهم مذبوحين من الوريد الى الوريد ... مهشمين ... مشوهين ... هنا رأس ، وهناك ذراع .. وهنالك يد ... »

وتضطرب جوهرة اذ تقص قصتها المفجعة ، ثم ترفع يديهـا الى رأسها تلطمه ، والدمع ينحدر من عينيهـا الى الارض فيبلل التراب . ثم تتابع حديثها ، وفي باصرتيها ثورة كالجنون :

— « اما هو .. زوجي ... فقد وجدته ... وجدت جثته في الحظيرة قرب معلف الحصان ... ووجدت اخي وزوجتــه مقتولين في الحقل ، عند الصخرة التي تفصل اراضينا عن اراضي جارنا ... »

وتتوقف جوهرة عن الكلام مرة ثانية ، يخنقها الألم ، فتجحظ عيناها ، وتنتفخ اوداجها ، ويدور رأسها .. ثم تعود الى الحديث بصوت متقطــع ، تلهث تعبا وجزعاً ، وتمسك باحدى يديها صدرها وبالاخرى جبينها :

— « ... وبعد ذلك ، لم اشعر الا وانا اطوف في القرى والمدن ، حتى وجدتني ذات مساء هنا في مدينتكم ، حيث اعتزمت ان ابقى وان ... اموت ! »

*

كان الناس يتصدقون على جوهرة المسكينة بفضلات طعامهم ، والبستهم وبعض المال . فتقتات بتلك وتتستر بهذه ، وتنفق الفلوس على القبور .. نعم على المقابر حيث كانت تقضي اكثر اوقاتها ، تزين هـذا القبر بسعفة من النخل ، وذاك بغصن اخضر ؛ وذلك بزهرة بيضاء ؛ او تبتاع لهذا اللحد ، وقد جرفت

السيول مـا عليه ، كيسين من الرمل الاحمر ، ولذلك اصيصين (قسطلين) تغرسهما في الرمل ، وتملأهما آساً وريحاناً .

وهناك في المقبرة تعرف اليها الشيخ . فقد جاء على عادته يزور الاموات، بعد صلاة الفجر من يوم الجمعة ... فما اقترب من قبر ابيه حتى رأى شبحاً ، راعه ان يجده منكباً على ذلك الجدث ، في تلك الساعة المبكرة . فرفـع الشيخ يديه الى عينيه يفركهما ، ليتأكد من انه لا تخدعه باصرتاه ...

لم يكن ذلك الشبح غير جوهرة التي حيت الشيخ ، وطمأنته ، وقـد قرأت في عينيه آية الدهشة والجزع :

— « اسعدت صباحاً يا سيدي ! انا جوهرة ... »

ثم قصت عليـه قصتها المحزنة ، ورافقته في ذلك اليوم الى بيته ، حيث تصدقت عليها امه بما تيسر من طعام ولباس ...

الشيخ الصافي يراهـا الان كما لو كانت ماثلة امامه : لقد جلست عند عتبة الباب ، رغم الحاح امه عليها بالدخول والجلوس الى جانبها في الغرفـة . فقد ابت جوهرة الا ان تبقى حيث هي . انهـا تنظر الى الشيخ بعينيهـا المقرحتين ، وهي تلتهم طعامها بيديها ، بنهم غريب وشاهية يحسدها عليهـا الكثيرون . وتتفرس فيه ، ثم تهز رأسها المشعث ، او تبتسم ابتسامة مؤلمة . واخيراً عزمت على الكلام :

— « غريب هـذا التشابه بينك يا سيدي وبين اخي ... لولا لحيتك وعمتك لظننتك سعيداً المرحوم ... هل تريد ان ابتصر في يدك فاكلمك عما ارى كما كنت افعل له ؟ »

فيقبل الشيخ عليها راضياً ، وان كان ممن لا يعتقدون بالعرافة ، ويبسط

كفه وهو يقول :

– « انظري ماذا ترين ؟ واشترط عليك ان تقولي كل ما ترين ! »

ثم يبتسم ابتسامة يودعها كل مــا في نفسه من اشفاق عــلى عقول تولد وتعيش وتموت ، تسيطر عليها الخرافات وتسيرها الظنون ·

نظرت جوهرة طويلا في كف الشيخ ،وهي تغمغم بضع كلمات ، تتردد في صدرها ، كما يتردد الصوت في بئر عميقــة · ثم قالت بلهجة من يستوحي كلماته :

– «ستتزوج يا شيخي ··· ولكن تموت ··· وزوجتك شابة !»

فابتسم الشيخ ابتسامته العريضة حتى كاد يضحك·

– « ··· وسترزق اولاداً ··· خمسة ··· او سبعة ··· ولكن ستفجع باحدهم ··· »

هنا قهقه الشيخ ضاحكاً ··· واذا لم تطل ضحكته · فقد عاد فوراً الى رصانته ، كمن ندم على خفة بدرت منه أو ذنب اقترفه ·

– «··· ولن تكمل السبعين ··· فاذا اتممتها عشت حتى المئة ··· اما زوجتك فتقترن بسواك ···بشاب من اهلك ··· او اهلها ··· برجل له بك صلة ···وستفقد بعد عشر اشارات كائناً عزيزاً عليك ···»

لم تبلغ جوهرة هذا الحد من كلامها ،حتى ضاقت بهــا ام الشيخ ذرعاً ، على الرغم من انها تعتقد بصحة اقوال العرافين ، وتؤمن بقوة السحرة واعمال المنجمين · فصرخت باعلى صوتها وهي تضطرب غيظاً :

– « ما هذه الاقوال يا امرأة··· كفى ! قومي وانصرفي · »

فانصرفت جوهرة وهي تعتذر عن اقوالها :

— « عفواً يا سيدتي . . . ما اردت ان . . . تغضبي . . . قلت ما رأيت ! »

وتكاد تتعثر باذيالها خجلاً وندماً . . . ومنذ ذلك اليوم لم يرها الشيخ الصافي ، ولا يدري ماذا اصابها من بعد . . . وقد ظُنَّ انها وقعت في بئر — اذ كانت تطوف في البراري — فماتت ، او افترسها ذئب فقضت نحبها .

١٤

في ذلك الحين لم يكن الشيخ قـد اتمّ الخامسة والعشرين من عمره . وكان يبسم للحياة كما تبسم الحياة له . فاوّل كلام العرافـة تأويلا يرضي نزعات نفسه :

« – رأتني شاباً اعزب . . وكل اعزب للزواج . . . سارزق اطفالاً . . . كل من تزوج قبلي . . . رزق اطفالا . . . ! هذا هذيان وتخليط حقاً . . . وساعيش حتى السبعين او المئة . . . من يدري ؟ انا في بدء الحياة . . . بعد خمسين او ثمانين سنة ؟ ! قه . . . قه . . . هؤلاء العرافون !! »

ثم كيف تريد الشيخ على ان يصدق تنبؤات جوهرة ، وهو الذي سمع عرافاً ماهراً يتنبأ له بمنصب رفيع في القضاء ، عقيب وفاة ابيه ، فانقضت سنوات على ذلك ولم تصح النبوءة ؟

اما اليوم فان الشيخ يرى صدق ما تحدثت به تلك المرأة . وقد تحقق اكثر ما تنبأت به : ماتت امه وكانت منه بمنزلة الاهل والعشيرة والاصدقاء ، بعد خمس عشرة سنة من تنبؤ العرافـة . ثم تزوج ، وهو الذي اعتزم ان لا يكتب على نفسه النساء ، ورزق اطفالا سبعة ، كما تنبأت العرافـة ، وفجع ببكره منهم . . . يا لله ! ايكون كل ما اخبرت به « جوهرة » صحيحاً ؟

– « ساموت اذاً بعد ثلاث سنوات . . . او ، اذا اتممت السبعين . . .

ولكن ! هذا الانحطاط المتزايد في قواي ... وهذه الظلمة التي تغشى نفسي ، ويشتد حلكها يوماً بعد يوم ؟ وهذا الحلم المرعب الذي رأيته الليلة ... »

لقد رأى الشيخ نفسه محمولا على الاعناق ، والناس من حوله ، وفيهم صبيته واهله ، يبكون وينتحبون . وهو يعجب لهم كيف لا يسرون له ويطربون ، ما دام حاله في الناس بحيث يرفعونه فوق الرؤوس ... وافاق يرتجف رعباً ويردد : « فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين ! »

لذلك لم يقص الشيخ على جماعته تلك الرؤيا كعادته ، في كل صباح ، بعد تناول القهوة . وانما اكتفى بالاستماع الى اولاده يروي كل منهم احلامه . فقد رأى موسى :

— « ... وقطعت رأسي يا بابا !

وحلم اسعد :

— « ... خرجت الى السوق عارياً الا مما يستر العورة الكبرى ...

اما سعاد :

— « ... رأيت نفسي وكأني في المزرعة ، ساعة جاءني رجل لم اتبينه ، فخطفني ... وطار بي ... »

استمع الشيخ الصافي الى كل ذلك فازداد رعباً ، وكاد يوقن انه مائت عما قريب ، وان تنبؤ العرافة كان صحيحاً . وهذه احلام بنيه وزوجته تتفق في مؤداها مع تأويل رؤياه المخيفة .

كل ذلك ، حزن الشيخ على ابنته الذي لم تخفف منه الايام ، وخوفه من موت عاجل ، هدّ قواه ، واقعده عن الخروج من البيت حتى الى زيارة ابنته في قبرها ، او الى الصلاة في المسجد مع الجماعة . فجاءت عزلته القسرية

هذه المرة تامة مطلقة ، وهو الذي لا يزور احداً من اهله ، ولا يزوره احد سوى ابن اخيه صلاح ، وبعض مريديه .

غير ان صلاحاً ما برح مقيماً في مصر ، يتمم دراسته في الازهر الشريف ، منذ تزوج عمه ، بل قبل ذلك ببضعة اشهر . ومريدو الشيخ قد انقطعوا عن زيارته في بيته ، منذ تزوج هو وتزوج بعضهم . اذ كيف السبيل الى استقبال رجال اغراب في بيت ذي غرفتين ، تشغلهما زوجة ، ثم زوجة واولاد ؟ وغير هذا فان الشيخ يعتقد ان دخول الغريب البيت كدخول الذئب الحظيرة . كلاهما خطر لا يُتقى . فما له ولكل ذلك ؟ لهذا اكتفى الشيخ طول هذه المدة بالاجتماع الى تلامذته في الجامع او في الطريق ، او في القلعة ، حيث تعود ان يتنزه بعد صلاة العصر ، اذا كان الطقس ملائماً .

اما الان ، وقد اقعده الحزن والضعف ، فقد اضطر للامتناع عن مواصلة اي كان من الناس سوى اهل امرأته ، بحكم الضرورة . ولكنهم جميعهم من السوقة . يحدثهم فلا يفقهون ، وينتظر منهم كلاماً يسرّ له فلا ينطقون بغير احاديث الطعام والشراب ...

— « اليوم طبخت المرأة طنجرة كوسى ... اما كوسى يا ابا موسى ! ينقط الدهن منه ... اكلت واكلت ... عشر كوسيات واربعة ارغفة ... حتى امتلأت . وبعدئذ (بلعت) خمسة عشر قرصاً من (القطايف) ... »

فتجيب احدى الحاضرات :

— « ويلي عليك ! اكلت كل هذا الظهر ، وجئت اليّ تطلب طعاماً العصر ؟ ! »

فيضحك صاحب « الكوسى » مقهقهاً :

— « أهي الدنيا لغير هذا ، يا بنت عمي ؟ اما سمعت مـا قال المثل : « اذا اكلنا لا نشبع . . . » فانا لا اشبع مهما اكلت . . . »

فيبتسم الشيخ ابتسامته الصفراء ، ويحاول ان يفهم المحدث ، ان المثل يعني « بلا اشبع » ، انني لا املأ بطني حتى اشبع ، واتخم ؛ بل اقوم عن الطعام ونفسي تشتهيه . . . فيحاول عبثاً . فان اهل امرأتـه ، على جهلهم وعلمه ، لا يثقون باقواله . فهو اذا نهاهم عن الاكثار من الاطعمة ، اتهموه بالبخل ، واذا دلهم على خير ، ظنوا انه يرجوه لنفسه . واذا حدثهم حديثاً صحيحاً ، لم يعملوا به ، ولو فهموه . . .

وما كان أشد ألم الشيخ ، كلما نقـلوا اليـه ، بلهجة المؤمن المصدق ، اقوال حفار القبور الشيخ « حفروه » الامي الجاهل ، او رددوا « حكم » الشيخ الكوى العامي الاحمق . . . فقد كان هذان الرجلان ، وامثالها من المتعيشين باسم الدين والعلم — والعلم على الاقـل منهم براء — في نظر أهل سعاد ، اعلى منزلة ، واصدق قولاً وديناً ، من صهرهم . . .

لذا كان الشيخ يمقتهم ، ويكره منهم ادمغتهم المتحجرة ، وعقولهم الضيقة ، وقلوبهم المريضة . فهم ما دخلوا بيته يوماً الا قرأ في عيونهم آيات الحسد ، يتأكل قلوبهم . ولا علموا بنعمة اصابته ، الا اقبلوا يلتهمونهـا بعيونهم ، قبل افواههم . حتى ما كان يرد اليه من غلة المزرعة . فما جاء المزارع يوماً ، يحمل الى سيده بعض الحاصلات ، من فواكه واثمار ، وخضارة ولبن ، الا تسابقوا ليقاسموا الشيخ واولاده ذلك الخير القليل .

بل كثيراً ما حاولوا ان يقنعوا الشيخ ببيع تلك المزرعة ، للاتجار بثمنها . وعندئذ يستطيع ان يفي ديونـه ، وان كانت دون فائدة ، اذ يربح من

التجارة اضعاف ما تغله المزرعة . فيأبى الشيخ . حتى اذا توسلوا باختهم سعاد لحمله على ذلك ، راح يتهمها بالتواطؤ مــع اهلها على سلبه . كأن قلبه كان يحدثه بان هؤلاء القوم يقصدون الى سرقة امواله ، التي انقطعت عنهم منذ امد — لا لتعفف سعاد عن السرقة ، واهلهـا عن حملهـا على ذلك — فقد استحكمت فيها تلك العادة الشنعاء ، وهم لم تتبدل اخلاقهم — بل لانها لا تجد ما يسرق . فقد بات الشيخ يحيل اصحاب الديون على المزارع ، فيقبضون المال منه رأساً ، دون ان يصل الى يد الشيخ من واردات مزرعته شيء .

١٥

وجاء يوم لم يجد الشيخ فيه ما ينفق على اهله . لمن يلجأ ؟ ومدينوه لا يمكن ان يقرضوه مالا . انهم يسلفونه بضائعهم وما عندهم من مواد غذائية . اما ان يقرضوه دراهم فوق ذلك ، فمحال .

لمن يلجأ ؟ الأخيه ، وهو الذي فارقه على ان لا يجتمعا ابداً ؟ انــه ما برح يذكر كلمته الاخيرة له ، في ختام جدالهما الطويل : « اذا احتجت يوماً وشحذت ... فلا تشحذني ! » ام لشقيقته تماضر ، وهي التي لا تملك من امرها شيئاً ؟ ام لزوجها ؟ وهو الرجل البخيل ، الذي قاطعه منذ سنين ، اثر اختلافهما على قسمة ارث ، انتقل الى الشيخ والى شقيقته بموت امهما ؟

— « آه ! لو كان صلاح هنا ! انه خير من ابيه هذا الشاب ، وان كان قد ورث اكثر خصائصه ! »

وبعد تفكر عميق ، اشرق وجه الشيخ الصافي ، كمن وجد حلاً للمشكلة التي كان يتخبط فيها :

— « سابيع المزرعة ... ! »

قال هذا ، ثم انتفض كمن مسته الكهرباء . وتعالى صوت وجدانــه يقول :

— « المزرعة ؟ تبيع المزرعة ! المزرعة التي ظللتك اشجارها طفلاً وشاباً ،

وتعهدتهـا كهلاً وشيخاً ... تلك الاشجار التي غرستها بيديك ، وانفقت عليهـا جهودك وقواك ؟ تلك الاشجار التي تملأ صدرك روائحها الذكية ، وينعش نفسك اريجهـا العطري . حتى اذا اجتمع الثمر الناضج مع الزهر الوارد ، في مطلع الربيع ، رأيت منظراً فتاناً : صفرة الثمر وسط اطار من بياض الزهر ، وخضرة الورق ؛ وشممت ريحاً مسكرة ؛ وسبحت الخلاق العظيم ، الذي جمع العـام الراحل ، والعام المقبل ، في صعيد واحد ، فوق غصن واحد !

« لا ... لا ! وذاك البساط الاخضر ، يكسو الارض حتى افق النظر ، تزينه الزهور البيضاء المتناثرة في كل مكان ، كأنها الاشرعة تنتشر في عرض البحر ، او الفراشات المبثوثة وسط الحقول ؟! وتلك الطير تغرد الحانهـا الشجية ، نشوى بالعطر والحسن !؟ لا ! لا ! لن تبيع المزرعة يا صافي ! لن تبيع هذه الجنة .. ان ساعة في ظل دوحة من اشجارهـا الملتفة ، وسط ذلك الجمال ، تساوي العمر ! »

ثم يتلاشى ذلك الصوت ، كما يتلاشى الطيف ، فيقول الشيخ بصوت عال ، دهش هو نفسه اذ سمعه :

— « ولكن ! لمن الجأ ؟ آه لو كان صلاح هنا ! »

ومن غريب الصدف ان يكون صلاح قد عاد في ذلك اليوم نفسه ، من الاستانة ... وما برح ، منذ وصل الى البيت الابوي ، يستقبل المهنئين . فهو بعد ان أتم دراسته في الازهر الشريف ، توجه الى العاصمة . فلم تطل اقامته فيها غير بضعة اشهر ، صدر في نهايتها « امر عال » بتعيينه حاكماً .. « للجزيرة » ... فالناس يهنئونه ويهنئون اباه ؛ لا بعودته سالماً فحسب ،

وانما بنيله ذلك المنصب السامي، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره٠
لم يكن يخطر لصلاح في بال ان يكون عدد الزوار ضخماً بهذا المقدار ٠ انهم يقبلون بالعشرات ، فما ينصرفون حتى يمتلىء النزل (الصالون) بسواهم ٠ وهكذا دواليك ، منذ الصباح حتى غروب الشمس ٠ وكل منهم يسأله عن الازهر ، وعن الاستانة ، وما فيهما ٠ فيخبرهم صلاح ، بصبر واناة ، عما يسألون ، حتى ردد ذلك اكثر من مئة مرة ، على وجه التقريب ٠ بل حتى حفظ حديثه عن ظهر قلب ، فعاد يسرده سرداً ، كتلميذ يلقي خطاباً محفوظاً ، او درساً مستظهراً :

— « الازهر !٠٠٠ مدينة بمفرده ٠ عشرات الالوف من الطلبة ، بين ولد وشاب وشيخ ٠٠٠ ومئات الاساتذة ٠٠٠ لكل منهم حلقة يجتمع فيها من شاء ٠٠٠ ولكل قطر رواق ٠٠٠ فرواق فارس ، ورواق الشام ، ورواق العراق ، والهند ٠٠٠

« نزلنا رواق الشوام ٠٠٠ ولكن كثيراً ما كنا ننام ، مع الجمهور ، في الجامع الازهر نفسه ، ايام الحر ٠٠٠ فكنت ترى ، اما دخلته بعد العشاء ، اجساداً ممددة ، ضمن اكياس بيضاء ، تحسبها اكفاناً ٠٠٠ انهم يتقون بذلك الحشرات ، من بق وبراغيث ٠٠٠ فيدخل الواحد ضمن كيسه ، ثم يحزمه على نفسه ، وينام حتى مطلع الفجر ٠ اما في النهار ، فما تقترب من الازهر ، حتى تصم أذنيك ضجة تتعالى ، كأنها دوي النحل اجتمع بالآلاف ، او هدير الطاحون ٠ هذا شيخ يدرس ، وحوله المئات من الطلاب يستمعون ٠٠٠ وهذا « معيد » يستمع الى الطلبة ٠٠٠ وذلك مقرىء يعلم القرآن ٠٠٠ وهنا جماعة من الاطفال يلعبون ٠٠٠ وهناك جماعة من الشباب

يتناظرون . وسرعان ما يتقاتلون ، فيحمل كل حذاءه ، ويهوي به على رأس الآخر . . . فيتدخل بعض العقلاء ، ويصلحون ذات البين . . . حتى اذا هدأت ثورة الاعصاب ، تبين ان الاختلاف كان على شيخ يفضله احدهم على سائر العلماء ، ويفضل الثاني غيره . . . ويتشاتمان : « . . . في لحيتك ولحيته . . . » ويلتحم المتناظرون . . .

« ثم هنالك آخرون يصلون . فاذا انتهوا ، وقف فيهم احدهم خطيباً ، وصرخ متمثلاً بقول « الحلاج » : — « ايها الناس . . . اسمعوا وعوا . . . اني انا الله ! » واذا بالجمع ينقضّ على الخطيب الزنديق ، يضربونه بأحذيتهم . وما يزالون بـه ، حتى يخرجوه الى صحن الجامع ، مهشم الوجه ، مرضوض الجوانب ، تسيل الدماء منه . . .

« وماذا احدثكم به بعد ؟ الازهر عالم بنفسه : ففيه تتمثل الامم جمعاء ، بطلبة العلم من رجالها ، وفيه تتمثل جميع الطبقات وجميع الهيئات . . . »

وهنا يتوقف صلاح قليلا ، كمن ينعم بذكريات عزيزة عذبة ؛ ثم يتابع حديثه ، والكل مصغون :

— « اما الاستانة ، فما خلق الله اجمل منها موقعاً ، وابنية ، وشوارع ، ومعالماً . . . المآذن فوق المساجد تناطح السحاب ، والمساجد بعظمتها ، وجمال هندستها ونقوشها ، تفتن الالباب . . . هذا آيا صوفيا . . . انه آية من آيات البناء ، والزخرف ، والروعة . . . والقصور ! لله كم ملايين انفقت في سبيلها ! والحدائق العامة . . . والبوسفور . . . أنه فتنة الارض في الليل ، اذ ترقص على ضفتيه الانوار ، وتنساب البواخر فوق مياهه ، كأنها جبال اضرمت في جنباتها النيران . . والاشرعة ، ينشرها المتنزهون في سفنهم الصغيرة ، كأنها

حمائم بيضاء ، تسبح وسط اليم الازرق ...»
فيردد الجميع ما ينبعث من كلمات صلاح من اعجاب بقولهم :
- « الله ينصر السلطان ! »
ثم ينصرفون مهنئين . فاذا جاء غيرهم ، اعاد صلاح على مسامعهم مـا حدث به من سبقهم ، وهم صامتون ، يصغون الى هذا الشاب المتوقد ذكاء في نبل يكسب ملامحه العذبة جمالا يسحر سامعيه . فينصتون له بانتباه ولذة ، وان كان اكثرهم لا يفقه ما يقول .

*

وما ان وصل خبر مقدم صلاح الى الشيخ الصافي ، حتى تنفس الصعداء ، وترقرقت في عينيه دمعة ، لا ادري ، اهي دمعة الفرح بعودة ابن اخيـه ، سالماً معززاً ، موفور الكرامة ، ام دمعة الندم على ما فرط منه ، من اعتزال الناس ، ومناصب الحكومة ، في مستهل حياته ، وفي اواسطها .
ولكن كيف السبيل الى صلاح ؟ كان الشيخ واثقاً من ان ابن اخيه سيزوره ، على عادته ، قبل سفره ، في كل سنة ، الى مصر . ولكن متى ؟ اليوم ، ام غداً ، ام بعد اسبوع ؟
ولم يكن يدور بخلده ان صلاحا مضطر للسفر الى مقر منصبه ، بعـد ثلاثة ايام : فطول الطريق ، وبطء وسائل النقل ، كل ذلك كان يحمل صلاحاً على استعجال الرحيل ، كي يتسلم وظيفته في الوقت المعين . لذا بادر فور وصوله ، يوم الخميس ، الى الارتباط مـع حمّار يرافقه صباح الاحد الى دمشق ، واوصاه بان يهيء دابتيه ، وان يستعد لتلك الرحلة ، الشاقـة ، الطويلة .

وفي الواقع ، كان صلاح قد عزم على زيارة عمه وامرأة عمه ، التي يشعر حيالها بعاطفة غريبة ، لم يشعر بها حيال اية امرأة سواها ، على وفرة من رأى من النساء ، في مسقط رأسه ، وفي مصر والاستانة ، وما بينهما من بلاد طاف بها ، او مرّ . ولكن الناس .. لم يمكنوه من القيام بهذا الواجب . فاكتفى بان ارسل الى عمه رسولا ينقل اليه احترامه ، ويبثه اشواقه ، قبيل سفره الى دمشق ، معتذراً عن تقصيره غير المقصود .

فما ان بلغ الرسول الشيخ الصافي رسالة صلاح ، حتى اضطرب اضطراب يائس ، انقطع آخر امل له بالنجاة . لقد كان عطف صلاح آخر شعرة تصل الشيخ بالناس . فجاء الرسول يقطعها بكلمات ، اخذ يرددها هادئاً ساذجاً ، وهو لا يدري أنه يطعن بها قلباً ، لم تبق منه الايام غير ما يبيح التنفس ، وبعض الحركة .

١٦

عندئذ استجمع الشيخ ما تبقى فيه من قوى خائرة منهوكة ، واعتزم امراً عظيماً : سيذهب الى بيت اخيه ، متجاهلا سفر صلاح ، وعندئذ ... يفاتح اخاه بامره العسير ... اذا رأى منه اقبالا ...

وقام الشيخ لساعته ، يرتدي ثياب السوق ، بين عجب امرأته وسخطها :

— « تدعي انك لا تستطيع الخروج من البيت ... وتقعد هنا عليَّ رقيباً ... »

فيهز الشيخ رأسه هزاً عنيفاً ، وهو يكاد ينفجر ألماً وغيظاً . ثم يخلع دثاره (قميص نومه) ، وقد اصفر عند ياقته ، واطراف كميه ، وصدره . فبدا قذراً تشمئز من منظره النفس . ويرتدي سرواله الحلبي الفضفاض وصدرته ، دون معين او مساعد . فقد وقفت امرأته الى الباب تقرّعه ، وتعدد مطاليبها ، بلهجة شديدة لئيمة :

— « نريد سمناً ، ونريد فحماً ... وملحاً ... وثياباً للاولاد ، ولي انا ... وصابوناً ... ! لقد اصبحنا قذرين كالفلاحين ... وثيابنا ممزقة كالشحاذين ... ! »

والشيخ ينظر اليها حيناً ، والى السماء حيناً ، ويتمتم بكلمات ، بقيت سراً في وجدانه ، ووجدان الله ... حتى اذا مدّ يده يتناول جبته المعلقة ،

على مسمار ، في جدار الخزانة الخشبية الكبيرة ، شعر بان رجليه لا تقويان على حمله • وانه واقع ميتاً قبل وصوله الى بيت اخيه • فالتفت الى امرأته ، يستجدي معونتها ، فتجاهلت امره •• فخطا الشيخ نحو الخزانة خطوتين • وما ان مدّ رجله للثالثة حتى وقع منكباً على وجهه • فتراكض اطفاله •• ولما رأوا اباهم على تلك الحال يتدفق الدم من انفه ، وتدمع عيناه ، وينعقد الالم في جبهته خطوطاً عميقة ، بكوا ••• وكان اكبرهم موسى اشدهم تألماً، وهو الهادىء الرصين • فالتفت الى امه معاتباً :

— « لو اعنته ••• لما وقع ••• ! »

فاسرّتها الام في نفسها • حتى اذا قام الشيخ، واعانه اولاده على ارتداء جبته ، وازالة آثار الدم عن شاربيه ولحيته ، خرج مصطحباً اسعد ، متكئاً على عصاه باليمنى ، وعلى كتف ابنه باليسرى • عندئذ جاءت سعاد الى ابنها موسى ، والعصا في يدها ، وهي تنتفض غضباً وغيظاً :

— « صار لك لسان يحكي يا ابن ال••• ! »

وهجمت على طفلها كالحيوان الضاري ، وقد وقف المسكين مرتعداً ، لا يدري ماذا يفعل ، ولا بمَ يجيب • ثم اهوت عليه بعصاها ، تضربه ضرب الحانق الحاقد ، وهو يبكي ويولول ، ويتململ بين يديها ، دون ان يحاول الافلات • انه كالكلب الامين حقا ، بين يدي سيده الغاشم : يضربه وهو بين رجليه صامت لا يثور ، ولا يحاول ان يثور • وكلما رفع الصبي صوته بالبكاء ، قست الام في عقابه :

— « تظنونني بسيطة ، لانني قليلة الكلام ••• لا ••• ! اناشيطانة •• افهم اكثر منكم ••• يا اولاد الشيخ الصافي ••• ! واكثر من عيلتكم

كلها ... كنت اسكت واتغاضى عن كل شي.... اما الان ... فلا..! لا ... الا ... !»

وتضرب ابنها ضربة عند كل وقف.

والواقع ان سعاد كانت تتظاهر بالمسكنة، في بدء حياتها الزوجية عندما لم يكن لها اولاد. وما برحت كذلك بعد ولادتهم. حتى اذا كبروا، وهرم الشيخ، ولم تبق منه بقية ... استأسدت، وهي التي باتت لا تخشى فراقا، ولا طلاقا ... ولا ضرة تنازعها وتخاصمها، وتسلبها الزوج وخيراته. فكشرت عن انيابها، وبدت على حقيقتها ... ومن ورائها امها تسيرها، وتقودها ... الى الهلاك.

تابع الشيخ طريقه، يدب دبيب الطفل، ينتقل من زقاق الى زقاق، متخفيا عن اعين الناس، والشامتين منهم على الاخص. يمشي ورأسه الى الارض، لا يلتفت الا اذا حياه مارّ بالسلام، فيرده اليه وهو يخفي ما به، حذر الشماتة، ويردد على مسمع من ابنه:

« كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الاعداء! »

وابنه اسعد لاه عن كل ذلك بالبحث عن وسيلة يسلب بها اباه بضعة متاليك ... حتى اذا وصلا الى مفترق، يلتقي عنده الزقاق والشارع العام، حيث يقع منزل اخي الشيخ، سمع اسعد بائعا ينادي:

— « مثل اللوز يا ترمس! »

فقفز عن الارض فرحا باهتدائه الى الوسيلة المرجوّة:

— « بابا! اشتر لي ترمسا ... ! »

فينظر اليه ابوه نظرة فيها من اللوعة والاشفاق، وفيها من اللوم والالم،

ما لا تعبر عنه الكلمات ... ويتابع الشيخ سيره ، يكاد الحزن يصرعه ، متجاهلا ... فيعاود اسعد :

– « الله يخليك يا بابا ! اشتر لي ترمسا ... »

ويشد الاب على يد ابنه حتى ليكاد يسحقها . فيبكي الولد ويتعجب الشيخ من تلك القوة التي سرت اليه ... ولو علم انها حمى اليأس ، ونزوة الالم لما تعجب ...

– « سنشتري ... عندما نعود يا بني ! عندما نعود ! »

والطفل يلتفت نحو الترمس وبياعه ، يأكل ذاك بعينيه ، ويستعطف هذا بكل جوارحه ... وابوه يسحبه بدوره ، بعد ان كان الطفل يسحب اباه .

*

– « من الطارق ؟

– انا ... الصافي ... صلاح ... ابن اخي هنا ؟ »

ويصمت الشيخ منتظراً جوابا ، فلا يسمع غير وقع اقدام تبتعد ، تتلوه حركة غريبة في البيت ، وتهامس بين سكانه ... ثم يفتح الباب ، ويتعالى صوت امرأة تقول :

– « تفضل ...! تفضل ...! »

جرى كل ذلك في لحظات ، خيل للشيخ انها ساعات ، وهو في اضطرابه ، وبحران حماه النفسية ، ويأسه الجنوني . ويخطو بضع خطوات ؛ حتى اذا خرج من ظلمة الدهليز المؤدي الى صحن الدار ، رأى اخاه ... نعم اخاه الذي لم تبصره عيناه ، منذ اربعين سنة ، منتصبا امامه ، يرحب به ... وقد احنت ظهره الايام ، وان كان ما برح محتفظا بنشاط ، يحسده عليه كل من اشرف مثله

على الستين ، وبابتسامة مرحة، لم يرتسم على وجه الصافي مثلها، منذ امد بعيد .

ذلك الترحيب الكريم ، وهذه الابتسامة العذبة ، وهذا اللقاء الجميل ..
جاءت طعنات في قلب الشيخ ، بدلا من ان تكون بلسما لنفسه الجريحة ، واملا لقلبه اليائس . لقد ودّ ان يطرده اخوه ، او ان يلقاه مغيظا محنقا ، او ان يسمعه قوارص الكلام معاتبا ... كل ذلك كان اهون على الشيخ من كرم خلق ، خيل اليه انه مصطنع ، وبشاشة خالها متكلفة . فجلس قبالة اخيه ، في النزل ، لا ينبس بكلمة ، ذاهلا ، سادراً ، يحاول ان يجد جملة يخرج بها من هذا الموقف الجامد ، فيخونه لسانه ، ويجمد بدوره ، كأنه سمّر في مكانه .

ولولا حركات كانت تبدر من اسعد ، بين الحين والحين ، لخيل الى من يدخل على الجماعة انهم في سكرة مَن فقد لساعته كائنا عزيزاً ، او انهم قضوا الايام متلازمين ؛ فلا يجدون ما يتحدثون به .

في هذه الاثناء ، رجع الاخوان ، بالذكرى ، الى عهد الصبا ... عهد الحياة الصحيحة ، في ظل اب كان رحيما ، وكان محبا ، وكان رجلا ... وتمثلا ما لقيا من نعيم ؛ في ذلك البيت العظيم ... وكيف ترعرعا يحنو احدهما على الآخر حنو الام على طفلها الرضيع . حتى اذا انتقل ذلك الوالد الى رحمة الله ، انفرط عقد الاسرة ، ودبت اليها عقارب التفرقة والفساد ..فاختلفا ، وتخاصما ، وتقاطعا .. من اجل شجيرات في مزرعة ، او احجار في بناء ... وعاشا ما عاشا كأنهما عدوان لا اخوان ، ان لم يجمعهما بطن واحد ، فقد جمعهما نسب واحد ، واب واحد ، وبيت واحد ...

لم يصل الاخوان الى هذا الحد ، وقد اعتمد كل رأسه بكلتا يديه ،

حتى بدا لهما خطأهما بابشع صوره . فندما على ما فرط منهما ، وترقرقت في عينيهما الدموع ، تغسل القلوب وتبريء النفوس . حينئذ، وفي لحظة واحدة ، رفع كل من الاخوين رأسه ، متسائلا ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « كيف صلاح واخوانه ؟ »

— « كيف الاولاد ؟ »

وكأن تلك الدموع ، وقد انحدرت على خدي كل منهما ، فرآها الاخر، شرارة الهبت عواطف الاخوين ، فانفجرا ، وقدارتمى احدهما في حضن صاحبه يعانقه ، وهو يذرف الدمع غزيراً ويصعد الزفرات . ومضت لحظـة شعر الاخوان فيها بان الاخوة عاطفة قوية حقا ، وانها من الانسان في منزلة تجاور منزلة الابوة ، اذا رافقها الاخلاص المتبادل والتسامح . ثم جلسا يجففـان دمعهما ، ويتشاكيان . فابو صلاح قد فقد ولدين : صالحا وهو ثاني اولاده الثانية ،وليلى سابعتهم .وكان صالح شابا جميلا في عنفوان شبابه ، ورجـلا اذا عدت الرجال . وليلى فتاة لم تكمل العاشرة من عمرها ، وان بدت ، بقـامتها الهيفاء ، ووجهها العذب الفتان ، اكبر من سنها بسنوات ؛ كما فقد امه بعد ذلك بقليل .

*

اما اسعد ، فقد انتهز فرصة اشتغال ابيه وعمه بالحـديث ، وانسلّ الى الدار ، حيث راح يتعرف الى هذا البيت الجديد ، الذي لم يدخله في حياته، على قصرها . فيدخل غرفة ويخرج من اخرى ، حتى يصل الى المطبخ .وهناك يرى امرأتين تعدان طعاما . احداهما تشبه امه والخادمات ، والثانية مـن نوع . . . آخر ، لم يرَ مثله . انها تبعث في نفس رائيها الاحترام والاعجاب ،

وتبدو عليها سيماء الوقار ، يزينه اللطف والوداعة ٠

وما ان دخل اسعد المطبخ ، حتى التفتت الثانية ، فرأته ورفعت يديها الى رأسها ، تتقي الصبي بها ٠ فاسعد في العاشرة ٠ والنساء المخدرات يتحجبن عمن كان في مثل سنه ٠ وانتصبت الاولى تستر تلك بجسدها ، وهي تصرخ في وجه اسعد :

— « من انت ؟ وماذا تريد ؟ تدخل بيوت الناس ٠٠٠ »

واسعد واقف لا يبدي حراكا ٠ فقد دهش ، وحار في امره ، وبعد لأي ما قال متعجبا :

— « انا اسعد ٠٠٠ ابن الشيخ الصافي ٠٠٠ اليس هنا بيت عمي ؟ »

عندئذ اقبلت عليه الثانية باسمة ، تتهادى في مشيتها، وربتته ، ثم قادته الى الدار حيث جلست الى قربه ، تحادثه وتسأله شتى الاسئلة ٠٠٠ فعرف فيها امرأة عمه ٠٠٠ ثم جاءته بملبس ، وقطعة من « امر الدين » ، واعطته اربعة متاليك خرجا ٠٠٠ فالتهم اسعد الملبسات ، وقطعة « امر الدين » ، وخبأ المتاليك في جيبه ، بحركة تكاد تعني :

— « لا تستعيديها مني ! اخذتها واصبحت لي ! »

فهو لم يصدق ان امرأة عمه ، وكان يجهلها لدقائق معدودة ، تكرمه هذا الاكرام ، دون ان تندم بعد قليل ، فتستعيد ما وهبته ٠

☆

مضى اكثر من ساعتين ، والاخوان يتشاكيان ، فيبكيان لذكرى مؤلمة ، او يضحكان لحادثة مفرحة ٠٠٠ ساعة انتبه الشيخ الصافي الى انه حان وقت الانصراف ٠ ولكن ٠٠٠ ! لقد جاء لامر ، ولم يتح له ان يفاتح به اخاه ٠

كيف يفاتحه ؟ باية كلمة ؟ وباية لهجة ؟

« اذا شحذت يوماً . . . فلا تشحذني ! » كلمات ما برحت تتردد في اذن الشيخ : أيمد يده الى اخيه ، ويدوس عزة نفسه ، ويحطم انفته ، ويلقي بكرامته بين اقدامه ؟ واذا لم يفعل ، من يكسو الاطفال ؟ والديون التي لا يمكن تأجيلها الى الموسم القادم ؟

عندئذ ، ودون توطئة او مقدمة ، التفت الى اخيه ، وقال بلهجة من يخاطب نفسه ، او يناجي ربه :

— « انا بحاجة الى شيء من المال يااخي ! »

وسكت ليرى اثر ذلك في نفس اخيه . ولما لم يرَ غير ابتسامة تعني بصراحة تامة « تكرم » ، فتح الشيخ فمه ، ليشفع طلبه ببعض شروح وتعليلات ، فقاطعه اخوه :

— « ليس عندي الان ما يكفي . . . ساقتسم الموجود بيني وبينك . . خذ ! هذه خمس ليرات ذهباً . . واذا ورد عليّ شيء من صلاح . . قدمت لك ما تيسر ايضاً . . . »

اللغات كلها عاجزة عن التعبير عما خالج نفس الشيخ ، من عاطفة اذ ذاك ، وقد رأى الليرات الخمس ، تلمع بين انامل اخيه ، وهو يقدمها اليه خجلا . . شكر ، وسرور ، وفرح . . . كل هذه الكلمات وما في معناها ، لا تبرز تلك العاطفة . ولكن حركة واحدة من الشيخ كانت ابلغ من كل ما في اللغات من الفاظ . . . لقد اهوى على يد اخيه يقبلها . . . وهو الذي يكبره بسنوات . . . وهو الذي علمت ما في نفسه من كبر ، وما في طبعه من انفة . . . وابو صلاح يردد وهو ينحني بدوره على يد اخيه :

— « استغفر الله يا اخي ... استغفر الله ! »

ويتعانق الاخوان ايضاً ، ولكن دون دموع هذه المرة . فقد جف دمع الشيخ كما جف دمع اخيه : هذا دهشة وذاك الماً . ولكنهما دهشة والم، كانا اروع ما خفق به قلب الشيخ ، وقلب اخيه .

١٧

وما ترى اسعد صانعاً بهذه الثروة ! اربعة متاليك ؟ انها ثروة ضخمة في يد طفل . لقد اشترى بتليكين بضع لفائف ، وبنصف متليك علبة ثقاب . وذهب الى القلعة «يدخن» تلك اللفائف ، كما يفعل ابوه وكثير من الناس .

وفيما هو كذلك ، رأى عن بعد رجلا قادماً . فخيل الى اسعد انه يعرفه . ولكنه لم يجزم ، وهو في نشوة من اثر التبغ ، يدور رأسه فوق كتفيه . فاذا اقترب الرجل ، عرف فيه عبد السميع ، ابن عم امه .

— « ماذا تفعل هنا ؟ وما هذا ؟ انت تدخن يا ... ازعر ؟

— لا .. لا والله ! وجدتها هنا فامسكت بها ... »

ويقبض عبد السميع على الغلام، ثم يفتش عما في جيبه، فيجد اللفائف وعلبة الثقاب ... فيضبطها جميعاً ، ويقتاد « المجرم » الى البيت .

— «الشيخ هنا ؟

— نعم ... تفضل ! »

ويدخل عبد السميع على الشيخ الصافي ، فيستقبله بامتعاض ، على عادته مع اهل امرأته ، منذ ايقن بسوء نواياهم .

— « وجدت اسعد ... في القلعة ... يدخن ... في هـذه السن يا شيخنا .. فضلا عن ان التدخين مكروه ... شرعاً ! »

فكان غيظ الشيخ ، من تعريض عبد السميع به ، اشد من غضبه على ولده الذي اقترف ذنباً كبيراً : « فالتدخين لا يجوز لمن كان في سن اسعد ، سن النمو ... ولكن ... من انبأ هذا الجاهل الامي « ان التدخين مكروه شرعاً ؟ »

–« الشيخ « حفروه » .. يقول هذا دائماً .

– دعنا من الشيخ « حفروه » والشيخ ... « طمروه » هو اجهل منك وانت اجهل منه ... انصرف عني يا رجل ! »

ويلتهب الغضب في عيني الشيخ الصافي ... فان هـذا الاحمق يجهله ، ويلقي عليه درساً في المكروه وغير المكروه ... وهو يكاد يجهل اسس دينه وفرائضه !!

وانصرف عبد السميع يتعثر في اذيال الخيبة :

– « اهذا جزاء الناصح ... طرد وشتيمة ؟ »

ولكنه لو رجع الى نفسه ، لرأى انه تعمد الطعن في الشيخ ، والاساءة اليه في اقدس مقدساته ، في تقاه وورعه .

وراح الشيخ يفتش عن اسعد « المجرم » . فالتقى سعاد ، قد وقفت عند باب الغرفة الثانية ، مغيظة ، يرتسم الغضب على شفتيها الرقيقتين ، فيقلصهما . فحاول الشيخ ان يتجاهل وجودها ، وتابع سيره . الا انها انفجرت في وجهه ، قبل ان يخطو خطوة :

–« هكذا تعامل اهلي ؟! تشتمهم وتطردهم ؟!

– وكيف علمت ذلك ؟ ها ها .. استرقت السمع ! اما علمت يا امرأة ان الله يكره استراق السمع ؟ اما قلت لك مراراً لا تتدخلي فيما لا يعنيك؟

- انهم اهلي ... معلوم ... اصطلحت انت واخوك الان .. واهلك .. فلم تعد (تطيق) اهلي !!»

فيغضب الشيخ لهـذا التلميح المر ، ويذكر كيف داس انفته و كبرياءه باسترضائه اخاه ، بغية الستر ، ورفاهية هذه المرأة واولاده ، فيختنق غيظاً :

- « يا حرمة ! كفي عني .. كفي عني .. او ..

- او .. اكمل ! ماذا تفعل ؟ تطلقني ؟ اني قاعدة على قلبك .. هنا ! بالطبع ، اجتمع وامرأة اخيه ... فلم اعد اعجبه انا !

- يا حرمة الله ولرسوله ... كفي ... اصمتي !

- لا اصمت ! انت لا تحب اهلي ، ولا (تطيق) وجودهم . فما الشر الذي نالك منهم ؟

- انهم شر كلهم ... ليبتعدوا عني !

- واهلك احسن يا ترى ؟ انتم الاشرار ... !

- لعنك الله ... ويلك ! أنت تشرفت اذ رفعتك من الحماة التي عشت فيها .. الى هذا البيت .

- الشوم ... والله الشرف ينقط من اقدامنا .. اما انتم فكذابون .. محتالون ..

- غضب الله عليك يا بهاتة ... ياناكرة الجميل ! »

ويخرج الشيخ الصافي من البيت ، وهو يرتجف حنقاً ، يردد كمن يسبح الله : « غضب الله عليك ... غضب الله عليك ! »

*

اما اسعد فكان قد لجأ الى خم (قن) الدجاج القديم مختبئاً . فما

كان اشد عجبه ساعة وجد اخاه مختبئاً ايضاً .

– « ماذا تعمل هنا ؟

– لقد ضربتني امي ... اليوم ايضا ! في كل يوم ضرب ... ضرب .. ولا أعلم لي ذنبا عندها .

– يا مسكين ... انت بسيط ! تتركها تضربك ولا تتحرك ... اهرب ! ماذا تفعل بك ؟

– ولكن ... تشكوني الى ابي ... فيغضب ... وهو مسكين .. اصبح هرما ، لا احب ان يتكدر !

– لا تخف ! انهما مختلفان ، يتخاصمان دائما . وقد سمعتهما الان يتشاتمان . »

ويصمت الاخوان حتى لأسمع تنفسهما المتقطع . فيقع في اذنيهما صوت امهما تصرخ ، وابيهما يصخب ...

– « اسمعت يا موسى ؟

– نعم .. ! »

ثم يقول اسعد بعد صمت عميق ، وكأنه يناجي نفسه :

– « لو هربنا ... من البيت ؟ ! »

فيلتفت اليه موسى وجلا معاتبا :

– « ماذا تقول ؟ نهرب من البيت ؟ لا ! ابداً ..

– نعم ! نهرب من البيت ... ونشتغل ، ونعيش .. فلا ضرب ... ولا مدرسة ! ونربح متاليك كثيرة !

– ولكن ... الى اين ؟ وبماذا نعيش حتى نشتغل ؟ واذا عرفوا

وقبضوا علينا ... ؟

– اسمع يا موسى ! نذهب الى ... مدينة ت... فلايعرفون مقرنا.. ونشتغل هناك ... انا معي سبعة متاليك ... تكفينا الآن ..

– وانا معي ثلاثة ... ولكن ! من اين أتيت بهذه المتاليك كلها ؟

– من امرأة عمي . ذكرتني ... سنذهب اليها انا وانت .. فتعطينا اربعة متاليك ايضا ... فيصبح معنا مبلغ كاف ... »

ومشى الولدان على رؤوس ارجلهما الى بيت عمهما .

– « اهلا وسهلا ...! »

فاكرمتهما ام صلاح ، بما تيسر من فواكه وحلويات ، واعطتهما خرجا.. اربعة متاليك لكل واحد ... اذ لم تجد معها قطعا صغيرة . وهي فوق هذا تعطي موسى اول مرة ... فلا بأس من اجزال العطاء .

وما ان اصبحت المتاليك في جيبهما حتى قام الاخوان ، وودعا وانصرفا.. وامرأة عمهما توصيهما بان يخبئا تلك المتاليك في الخزينة (القجة) كما كان يفعل اولادها ، وهم صغار .

*

خرج الشيخ الصافي يبحث عن ولديه ، وهو يجر رجليه جراً ، ويشعر بان صدره يكاد ينفجر غيظا والما ... فانتقل من ساحة الى ساحة ، ومن زقاق الى زقاق ، حيث تعود الاولاد ان يجتمعوا ويلعبوا بالاكر (الكلل) و«بالغميضة » .. فلم يعثر لطفليه على أثر . ثم وصلت به قدماه الى شاطىء البحر ، حيث يذهب بعض الاطفال ايضاً ويلعبون . فما وجدهما ، ولم يخبره احد انه رآهما ، في ذلك اليوم . اخيراً التقى الشيخ الصياد ابا حسن :

— « رأيت الطفلين ، منذ ثلاث ساعــات او اكثر ، يتجولان في ناحية المرفأ . »

فاسرع الشيخ يتعثر في اذيال جبته . فوصل الى المرفأ ، والشمس ترسل اشعتها الاخيرة، مودعة الكون بابتسامة صفراء، تحمل الى النفس ما لا ادري من انكماش وحزن . فنظر الشيخ الى الافق الدامي ، وقد التهب بحمرة الشفق، بعينين فيهما كل ما للشيخوخة من يأس ، وكل ما للابوة من امل . ثم التفت ذات اليمين وذات اليسار ، فلم يرَ حياً او شبحاً لحي . فنادى باعلى صوته :

— « يا موسى ... ! يا اسعد ... ! »

وكرر النداء مثنى وثلاث . ولكن ما من مجيب ! لقد اقفر المرفأ من الاحياء ، وساده صمت رهيب، على الرغم مما تحدثه المياه في حركتها الدائمة من ضجيج ، وان هدأت ، اذ تصطدم بالصخور وبالمراكب الراسية ...

« ولكن ... قد يكونان عادا الى البيت ! » لم تمر هذه الفكرة برأس الشيخ حتى رجع من حيث اتى ، وهو يتعجب منهـا كيف لم تخطر له من قبل ... فراح يمشي متمهلاً ، حذراً ، يضع رجله حيث يركز عصاه . فقد اظلمت شوارع المدينة ، ولم يكن العامل الذي يشعل مصابيح البترول فيها ، قد وصل الى نواحي المرفأ ... انه يبدأ بانارة المصابيح ، في الاحيـاء التي يقطنها الرؤساء ، والوجهاء ، والاغنياء ، ثم ... سائر المصابيح ..

ولئن اطمأن عقل الشيخ الى ان ولديه قد عادا الى البيت ، فان قلبــه لم يطمئن ... انه يحس ذاك القلب يلتهب بين جنبيه، ويضطرب حتى ليسمع دقاته باذنيه ،في سكون الليل، وهدأة المدينة بعيد الغروب. انه يحس مــا يشعر به المرء قبيل مصيبة نازلة ، او بلية واقعة . فيسرع الخطى وهو يسبح

الله مستغفراً ، راجياً الا يكون قـد اصاب ولديه مكروه ، او نزلت بهما نازلة . ويذكر الشيخ ما حدثه به بعضهم سراً عن جماعة من الفاسقـين ، يخطفون الاولاد والنساء ، حتى من البيوت ... فاذا نالوا منهـم وطراً ، اعادوهم الى ذويهم ، يغض العار من ابصارهم ، ملطخي الاعراض ، مسحوقي النفوس . فيفور دم الشيخ ، وتتوتر اعصابه . ويصل الى البيت ، فيجدجميع من فيه نائمين ، يغطون . واذ لم يرَ ولديه ، موسى واسعد ، يُسقط في يده ، وتميد به الارض . فيقع عـلى مقعد ، مضعضـع القوى محطم النفس ، يحز الالم جسده حز السكاكين ! ما العمل ؟ أيرسل مناديا ينادي في الناس ايعلم مقرّ الولدين ؟ ام يعود الى البحث عنهما في منازل الاهل والاقارب اولا ، حتى اذا لم يجدهما ، أخبر اخاه ، فاتخذ الوسائل ، بما له من نفوذ في الحكومة ، للبحث عن الضائعين ؟ ام يسلم امره الى الله ويقعد بانتظار قضائه ؟

لا سبيل الى الاستعانة بالمنادي ، والضائعان في سن لايمكن ان يضـلا معها الطريق . وهو في حالة من التعب لا تمكنه من الوقوف على رجليـه ، فوق وهن الشيخوخة وانحطاط قواه القديم .

— « رباه ! قد بلغت من الكبر عتياً ... ارع ولديَّ ، وكن لهما اينما كانا ... رباه ردهما الي ، فهما ذخري في شيخوختي ، وعوني في ضعفي ، واملي وانسي ... رباه ... ! »

لم يصل الشيخ الصافي في نجواه الى هذا الحد ، حتى سمع طرقاً خفيفاً . فهب عجلا ، يستخفه الامل . فتح الباب ، فاذا هو موسى ... اخو امرأته ... الذي ما ان رأى الشيخ حتى اخذته رعشة المريب ، ورجفة المرتبك ، فمايدري كيف يقول ، ولا ماذا يقول ... انه يحمل في يده سطلا صغيراً :

– « جئت ... جئت لاستعير قليلا من الزيت ... أين سعاد ؟ ...
ما ظننت انها تنام قبل العشاء. ... ! »

لقد فهم الشيخ معنى هذه « الاستعارة » التي تدوم منذ امد بعيد ، دون ان يعود شيء مما يستعيرون . لذا لم يفه بكلمة ، فهو في شغل عن كل ذلك.

– « هل جاءكم اليوم ولداي موسى واسعد ... ؟

– لا ... واين هما ؟

–لم يعودا حتى الان ... بحثت عنهما في كل مكان ، فلم اجدهما... !
أرجو منك ان تذهب فتبحث عنهما في بيوت الاهل ... انني تعب جداً ...
انا بانتظارك ... ! »

فحمل الخال موسى سطله المملوء زيتاً ، وراح يبحث عن ابني اخته . كلما دخل بيتاً ، اجابه اهله بانهم لم يروهما ... ورجوه ان يعود فيخبرهم ويطمئنهم ... حتى اذا وصل الى بيت العم ابي صلاح ، افادته الخادمة :
« ان الصبيين جاءا الى بيت عمهما عند العصر ، ثم ذهبا ... ولم يعودا ... »
ورجت اليه ، بلسان سيدتها ، ان يرجع فيخبرها بمصير الولدين ...

ولكن الخال موسى لم يعد ، فيطمئن احداً ، بل ذهب تواً الى منزله ونام . بينما لم تغمض للشيخ الصافي الواله عين ، ولم يهدأ له بال .

١٨

– « انهم جاؤوا ! ألم أقل لك أنهم يسافرون الليلة ؟ لقد سمعتهم يتحدثون .

– ولكن ... اية ليلة قضيناها في هذه السفينة ؟! اسمع ياسعد لنعد الى البيت ...

– ألا يعجبك ان تنام في هذا السرير العظيم ؟

– سرير ..!! ولكن لنعد الى البيت ... انني خائف ...

– انت حر ... انا لا اعود ابداً ... اعود الى الضرب و ... (هص صه ! »

وهنا يسمع الاخوان وقع اقدام تقترب ، فيصغيان بكل جوارحهما ، ويتجمعان خلف الاكياس لا يأتيان بحركة ... ثم تبتعد تلك الاقدام ، فيرفع اسعد رأسه متجسساً ، فلا يرى في الظلام احداً :

– « انا جائع ... هات لي كعكة ... »

ويبدأ الاخوان في تناول فطورهما ، بعد ليلة بيضاء ، لم يذوقا فيها طعم النوم . حتى اذا اجهدهما السهر حاول اسعد ان يغمض عينيه قليلا ، واذا بموسى يصرخ باعلى صوته : « يا امي ... ! » ويهب واقفاً يضطرب ، فيقوم اسعد مذعوراً بدوره :

— « ماذا اصابك ؟

— لقد مشى على يدي شيء .. طري ، له اربع ارجل ... ! احسست بلسان ناعم يلحس طرف اصبعي ... »

ويلتفت الاخوان الى ناحية ، فيريان عينين صغيرتين تنظران اليهما وتقدحان شرراً . فيحسان كأن ماء ساخناً قد صب عليهما ، ثم يعقب ذلك قشعريرة تسري في جسدهما كأنها البرداء ... ويسمران في مكانهما ، وقد امسك كل منهما بيد الآخر ... ثم تختفي العينان الملتهبتان ، ويعقب ذلك صوت كصوت الفأرة .. سي سي ....

فيضحك اسعد ضحكة الخائف يستجمع قواه :

— « آه ... انها فارة .. الله يلعنها ... افزعتني ..

— هذا جرذ ... الم ترَ رأسه الكبير ؟

— وكيف ارى رأسه في الظلام ... ؟ »

ويصمت الاخوان . ولكن ما اعتراهما من خوف قد هز اعصابهما هزاً عنيفاً ، فباتا فريسة الاوهام . هذا موسى يتخيل رجلا كأنه الجني ، يقف الى الحائط ، باسطاً ذراعيه ، مكشراً عن انيابه ... فيكز اخاه ، دون ان يجسر على الكلام ... واخوه في سكرة مما يرى : انه يتوهم احد الاكياس — وقد وضع مائلا بحيث يبدو طرفه كقبعة — رجلا كأنه الغول بوجهه الهائل ، وبطنه المنتفخ ... فيمد يده نحو اخيه وتشتبك اليدان . فيشد كل منهما على كف صاحبه ، يحاول ان يستمد منه الجرأة والاطمئنان . وهكذا قضى موسى واسعد الليل حتى مطلع الفجر ... اذ اقبل البحارة ، يعدون العدة للاقلاع ، عند شروق الشمس ...

ثم يعود وقع الاقدام فيقترب ، حتى ليخيل الى الولدين ان رجـلا يمشي على مقربة منهما ... فيطبقان فمهما على ما فيه .

– « ولكن ... الصوت يأتي من فوق !

– صحيح ... هؤلاء هم البحارة ، يروحون فوقنا ويجيئون .. سنسافر بعد قليل ! اسمع ... انهم ينشرون الاشرعة وينصبونها ..! »

ويتعالى هزج البحارة :

– « ايه ... ياليصا ... ايه ياليصا ...! »

ثم يسمع صوت المجاذيف تضرب في الماء ... فتتحرك السفينة ببطء اولا ، ثم ينتظم وقع المجاذيف ... ها ان السفينة تجري بسرعة وقد مالت نحو اليمين . اشرقت الشمس اذاً ، ونشر البحارة الاشرعة ، وباتت السفينة في عرض البحر ... ولكن الظـلام ما برح مخيما في المخزن (العنبر) حيث الأخوان ... الا انه ظلام اسمر ، يرى المرء ما وراءه ، وان صعب تميز الاشياء الدقيقة والبعيدة .

ظل الاخوان طيلة ذلك اليوم مختبئين وراء الاكياس . ولكن العطش يدب الى جوفهما : فالجبنة ، والزيتون ، والكعك ... تلهب الاحشاء ... ولكن من اين يجلبان الماء ؟ لم تطل حيرة موسى واسعـد : هذا صندوق خشبي يلمع وسط سمرة الاكياس الصفراء . اقترب منه اسعد زاحفاً ، واخوه يترقب المدخل بكل ما يستطيع من انتباه ويقظة ... يا لله ! انـه ملآن برتقالا .. ! وهذا صندوق آخر ... بل هذه عشرات الصناديق وضعت خلف الاكياس !

– « تعال ... برتقال ... وهنا نختبي بأمان ... وراء الصناديق ...!

لم تغرب شمس ذلك النهار حتى كان احد الصناديق قد فرغ حتى نصفه ، فقد استغنى الاخوان عن كل طعام ، وهما اللذان يحبان مص البرتقال على طريقة خاصة ! يأخذ احدهما البرتقالة ··· ويدغدغها بين يديه ، ثم يثقبها عند اسفلها المنبطح ، ويمتص عصيرها ، شأن الطفل يرضع ثدي امه وهكذا يجد موسى واسعد لذتين : لذة العصير ، ولذة الرضاعة والمص!

— « ولكن ··· اين نلقي بهذه البرتقـالات الممصوصة ؟ اذا جاءوا استدلوا بها على وجودنا ··· وافتضحنا ···! »

ويفكر الاخوان غير طويل !

— « لقد وجدت : ننفخ في البرتقالة الممصوصة، ثم نضعها تحت البرتقالات الصحيحة ! وهكذا لا تنقص الصناديق ···! »

والواقع ان الصندوق الاول قد عاد الى ما كان عليه ، اذ ارجع الاخوان اليه البرتقالات المعصورة··· ثم ابتدآ بالصندوق الثاني··· ساعة خيم الظلام ، فاعتقدا ان الليل قد اقبل ···

— « ماذا ترى يا موسى لو خرجنا من هذا القبر الى ظهر السفينة ، نأخذ الهواء ··· ونتفرج على البحر ؟

— ولكن ···! اخاف ان يرونا ···!

— لا تخف ···! نختبيء اذا سمعنا وقع اقدام · اتبعني ··· »

وخرج اسعد يجر موسى جراً ، فيتعثر حيناً ، ويقع حيناً · ثم يقوم نافضاً يديه متمتماً حانقاً ···

القمر يرتفع من وراء الجبل بدراً شبـه كامل ، يغمر الارض باشعته الندية · فتبدو مياه البحر ، وقد ذاب فيها ضياؤه ، كقطع من الالماس اطلقت

عليها الانوار · انهـا تتموج بين البصر والافق تموج الشعر الاشقر الجعدي · ويرتدي الكون حلة فتانة ، يسبغ عليها الغموض حسناً ساحراً ، وينشر فيها السكون روعة تأخذ على الناظر مشاعره · والريح تهب رخاء كأنها الامل ، يحدو المسافر في الصحراء : تدفع السفينة برفق فتتدافع ، تشق بحيزومها عباب الماء ، وتترك خلفها خطاً مصقولا ، كلما بعدت عنه اتسع · فكأنه ، والزبد يطرزه ، آثار العظماء ، كلما بعـد زمنهم ازداد ما لها من وقع في النفوس · ويسمع للماء خرير ضاحك ، يأتي قراراً لهينمة الريح تصفق في الاشرعـة · فيسبح المرء في عالم من الجمال ابدعته الطبيعة الواناً متناسقة ، وانشده الكون الحاناً خالدة · والسفينة تميل ذات اليمين وذات اليسار ، كأنها البطة تستحم ، او الحمامة تتنقل ·

يقف موسى واسعـد مشدوهين ، يملأ اعينهما الجمال ، فتستدير دهشة ؛ ويفعم قلبيهما الجلال فيتأوهان اعجاباً · ويصيخان بسمعيهما الى البحر ، ينشد اغانيه الازلية ، والى الريح تشدو انغامها الابدية · ثم ينظران الى اليابسة ، وقد انتثرت فيها الاضواء ، من شواطيء البحر حتى قمم الجبال ، فبدت في زينتها الراقصة كأنها سماء ثانية ، تحاكي السماء بنجومها المتلألئة ·

هذا شهاب ينقض كالصاعقة :

– « انظر يا اسعد ! انه يهبط راجماً الشياطين ··· استغفر الله !

– بل قل ليستحم في البحر !

– انت لا تفهم ما تقول ! اما سمعت المعلم يقول : « كلما رأيتم نيزكاً ينقض من السماء ، استغفروا الله ···! »

– ولماذا نستغفر الله عند انقضاض الشهاب ، وليس قبل ذلك او بعده ؟

– لأن الدعوة تخترق الفراغ الذي يتركه النيزك ، فتصل سريعاً الى الله عز وجل ٠٠ »

فيدعو اسعد ، ويستغفر الله ، ولكن دون ان يطمئن قلبه الى تعليل موسى ومنطقه ، او منطق ٠٠٠ معلمه ٠

هذا بحار ! انه يشعل لفافة ٠ الهرب الهرب !

– « لو التفت لرآنا !

– انه لا يرانا ما دام عود الثقاب مشتعلا في يده ٠٠٠

– ولماذا ؟

– هل ترى احداً من المارة عندما تخرج من زقاقنا المظلم ؟

– لا !

– لذلك لا يرانا البحار ما دام في وجهه نور الثقاب ٠٠٠ »

١٩

— « متى افتقدتموهما ؟ »

فيجيب الشيخ الصافي اخاه ، والدمع يخنق صوته :

— « قبل العصر ...

— اي بعد مجيئهما الى هنا بقليل ...

— وهل مرا بكم امس ؟

— انا لم أرهما .. ولكن امرأة اخيك اخبرتني ... »

ويصمت الاخوان ، ترتسم الحيرة على جبهتيهما خطوطاً عريضة عميقة ، ويعتمد كل مرفقيه ، ذاهلا او كالذاهل . ثم يرفع ابو صلاح رأسه ويقول :

— « هل سبق لهما ان فارقا البيت ؟

— نعم ... لا .. انهما كانا يبيتان بعض الايام في بيت ... جدتهما.

— هذا هو الخطأ .. عفواً يا اخي ... اريـد ان اقول : ان تجرؤهما اليوم على مغادرة البيت ، على هذا الشكل ، كان نتيجة لازمة لما سبق من تغيب عن البيت ... ولو في منزل جدتهما ...!

— صحيح ... ولكن ماذا تريد يا اخي ؟ انا ما كنت ارضى يوماً عن ذلك... لا رأي لمن لا يطاع يا اخي ! لقد منعت اولادي من زيارة اي كان بغية تربيتهم كما اريـد ، فلا يؤثر المحيط فيهم تأثيره السيء ... فكانوا

يعارضونني ، امهم وجماعتها ... او يرضخون لاوامري ما دمت حاضراً ، فاذا غبت خالفوا تلك الاوامر ! »

ثم بعد صمت قصير :

– « لم يبتلَ رجل بما ابتليت به يا اخي ! لا يفهمون ولا يحبون ان يفهموا ... ومع ذلك يدعون المعرفة ... ويستكبرون اذا حاولت تعليمهم .. واذا تركتهم وشأنهم ، اضروا بي لجهلهم وسوء تصرفهم ... ! والحاصل مصيبتي بهذه المرأة الجاهلة ، وجماعتها البسطاء ، مصيبة كبرى ، لا يخلصني منها سوى الموت ... !

– سلامتك يا اخي ... ليس من داء الا وله دواء !

– اي دواء ؟ .. الموت اقول لك خير دواء ... الا ان جزعي على هؤلاء الاولاد ، ان يهلكوا بعدي ، هو وحده الذي يعيد الى نفسي شيئاً من الرغبة في البقاء ... !

– خفف عنك ! ولا تيأس ... يجب ان نفكر الآن في طريقة للبحث عن الطفلين ... انا ارى ان نعمم امر اختفائهما بواسطة الدرك على المخافر ... ثم ...

– ولكن البريد ... سافر امس .. !

– لذلك يجب ان ننتظر ثلاثة ايام حتى يحين موعده !

– ثلاثة ايام ... وهل استطيع البقاء ثلاثة ايام دون خبر عن مصير .. ولديّ ؟ »

وينفجر الشيخ باكياً كطفل . الا ان في هذه الدموع من الحرقة ما يحرك القلوب المتحجرة . فهي دموع نفس متألمة ، وذوب قلب مفجوع ، وحزن

امرىء لا يرسل الدمع جزافاً . فيبكي ابو صلاح لبكاء اخيه ، وهو الذي راح يحاول ، منذ البدء ، ان يوحي الى الشيخ الاطمئنان بعدم اكتراثه ، والتخفيف عنه بسكونه . بكى ابو صلاح وهو لا ينفك يردد ، معزياً اخاه داعياً اياه الى التؤدة والهدوء :

– « ما نفع البكاء ؟ اصبر يا أخي ... تصبر بالله ! سيعود ولداك اليك ... تصبر .. ان الله مع الصابرين ! »

والشيخ ينتحب ، فيحرق الدمع اجفانه المقرّحة ، ويهزه الالم هزّ الريح اغصان الشجرة النخرة .

*

نام الولدان فور عودتهما الى المخزن ، فأن ما لقياه من تعب في يومهما المنصرم ، وما تحملته اعصابهما من مفاجئات ، كان كافياً لان يضعضع قوى رجل بَلْهَ طفلين في العاشرة والثالثة عشرة من سنيهما ... فاغفيا تهزهزهما السفينة في تمايلها المطرد على وتيرة واحدة ، بالرغم مما يعتري الاطفال من خوف وما يداخلهما من هواجس ، في مكان مظلم مقفر ؛ وعلى الرغم مما رأيا في الليلة البارحة من حشرات المخزن وما تخيلا فيه من مرعبات . فسلطان النعاس قوي خاصة عند الاطفال ، والنوم حاجة يلح في طلبها الجسد .

ما انتصف الليل حتى تلبدت السماء بالغيوم ، وعصفت الريح ، فتعالت الامواج سلاسل من الجبال ، تتحرك حركة الدودة اذ تزحف ، فتتلاعب بالسفينة تلاعب الايدي مشتركة باكرة . وما عتمت الامطار ان انهمرت غزيرة تتدفق حبالا متشابكة ، تقرب ما بين البحر والسماء . وعمت الظلمة كل شيء . فهب البحارة من رقادهم على صوت الربان ينذر بالخطر . وعمدوا

الى الاشرعة فطووها ، والى المخازن فاحكموا اقفالها ...

وموسى واسعد يغطان في نومهما غطيط الفلاح ، يعمل سحابة يومه في حر الشمس ، وقيظ الصيف . فيحلم موسى ، وكانه بجوار البحر ، يتدحرج من قمة كثيب من الرمل الى حضيضه . حتى اذا وصل الى الشاطيء ، مغمض العينين ، وقد اعماهما ما دخل فيهما من ذرات الرمل ، احتضنته موجة تتكسر مرغية مزبدة . ويحلم اسعد ، وكأنه في برج القلعة يقفز من اعلاه الى الارض ، فتدفعه اليابسة ، فيرتفع الى قمته ، ليعود فيسقط الى الارض كالاكرة ، تقع فتنط ، ثم تقع وتنط .

ساعة سمع صوت هائل اعقبه هدير المياه تتدفق وتصطدم بحاجز صلب . فاستيقظ الاخوان في وقت واحد ، يرتجفان برداً ، وذعراً ، ويسدان اذنيهما بيديهما ، فلا تحولان دون وصول الدوي اليهما . دوي متصل ، كانه زئير الاسود الجائعة في الغابة العذراء ، يهدأ حيناً ليعود اعلى هديراً ، واشد وقعاً .

والسفينة تعلو ، كأنها الدلو يشد بالحبل ، لتعود فتهبط الى واد لا قرار له . والبحارة يروحون ويجيئون متراكضين ، تتلاعب بهم الرياح ، ويسفو وجوههم الرشاش المتطاير ، فيلسعها كأنه ابر النحل في مهب الريح .

الزوبعة في ذروة اشتدادها ، والبحر في اشد هيجانه . ترتفع الموجة ، على بضعة امتار من السفينة ، فاغرة فاها ، علاه الزبد ، وتعلو متلوية كالافعوان الهائل ، يزحف مغيظاً محنقاً . فيخيل للبحارة انها مبتلعة السفينة وما فيها ، فيضطربون ويتراكضون ، يستخفهم الذعر ، وهم يتلفتون نحو ذلك الجبل السائل ، ينقض عليهم انقضاض الموت . ثم يُسمرون في امكنتهم ، وقد بلغوا طرف السفينة المقابل ، وينظرون الى اليم بعيون يشدها الرعب ، حتى

لتنشق اجفانها . ووجوه قضى الخوف فيها على كل دلائل الحياة .

وتصطدم الموجة والسفينة ، فيغمض البحارة تلك العيون ، وينقلب بعضهم فوق بعض ، اذ يرتفع المركب وينخفض ، مضطرباً كورقة الشجر الذابلة ، بين ايدي رياح الخريف . ثم تتكسر على جوانبها مرسلة قهقهات مرعبة ، تتبعها اصوات كأنها عواء الذئاب الجائعة . ويفتح البحارة عيونهم باصابعهم ، ثم يتلمسون رؤوسهم بايديهم ، وهم على اشد ما يكون المرء ذعراً ، ويأساً .

وتعقب الموجة موجات ، تتابع متراصة كالجياد في حلبة السباق . واذا بالافق يشتعل ببرق متصل ، لا يعقبه رعد ، او يعقبه ولكن دون ان يصل الى آذان يصمها هدير المياه في هيجانها ، وعزيف البحر في جنونه . فيستبشر البحارة خيراً : ستنقضي الزوبعة عما قريب . ولكن صوتاً كقصف الرعد اعاد الرعب الى قلوبهم ، فهبوا يرتجفون . وتطلعوا نحو مصدر ذلك الصوت ، فاذا باحدى ساريتي المركب قد تحطمت . لقد قصفتها الريح كما يقصف الرجل عوداً يابساً ، والقت بها الى البحر ، فابتلعتها الامواج . انهم ينظر بعضهم الى بعض ، يعقد الوجل السنتهم ، فتختلج شفاههم اختلاج الميت في ساعات نزعه ، ثم تسكن تلك الشفاه ، يقلّصها خطر محدق ، وامل عطم .

اما موسى واسعد ، فما مضت دقائق على استيقاظهما حتى شعرا برأسيهما يدوران . واذا باسعد يصرخ متقيئاً ، فيتبعه اخوه . ثم ينام الولدان لايحسان الا انهما في سكرة عمياء ، يدور بهما كل شيء ، دوران دولاب الفاخوري بالقدر ...

لم تمض دقائق حتى انقطع المطر ، وبدت عند الافق نجمات تتلألأ تلألؤ

الامل ، وتلمع لمعان السراب ، يراه العطشى عند مرمى البصر في الارض المقفرة . واذا بالريح تهدأ كأنها لم تهب هوجاء صرصراً ، واذا بالبحر يسكن سكون الجدول يجري بين الاشجار الباسقة . فيتعالى الدعاء من كل حدب وصوب ، تجهر به حناجر كاد الموت يخرسها ، وتمتلىء به افواه كادت تُكمُّ الى الابد . ويبلغ الفرح بالبحارة حد الجنون ، فيتعانقون ، ويرقصون ، ويهزجون ، وينشدون . فيقول فريق :

« اصبح الصباح ! ايه .. يا ليصا !
بانوار محمد ! ايه .. يا ليصا !
يا واد (ولد) ربجنا ! ايه .. يا ليصا !

خشّ المساء ! ايه .. يا ليصا !
واظلم الليل ! ايه .. يا ليصا !
والـلي يجاوز ! ايه .. يا ليصا !

جاورتنا ! ايه .. يا ليصا !
أم الاساور ايه .. يا ليصا !
والحياصة ايه .. يا ليصا !
المذهبية ايه .. يا ليصا !»

ويقول آخر :

« الخولة اعطاني ايه .. يا ليصا !
رمانة ! ايه .. يا ليصا !

وغمزني ! ايـه ٠٠ يا ليصا !
بعينـه النعسانة ! ايـه ٠٠ يا ليصا !

يا بنت جملك ! ايـه ٠٠ يا ليصا !
هبشني ايـه ٠٠ يا ليصا !
واجت هبشتـه ايـه ٠٠ يا ليصا !
بالملاية ايـه ٠٠ يا ليصا !

رمـان صدرك ايـه ٠٠ يا ليصا !
ادهشني ! ايـه ٠٠ يا ليصا !
خـلى فطوري ايـه ٠٠ يا ليصا !
عشاي ايـه ٠٠ يا ليصا !»

٢٠

وصل المركب الى نهاية رحلته عند فجر اليوم الثالث . وكان اسعد اول من شعر بدخول السفينة الى المرفأ ورسوها ، اذ سمع البحارة يتنادون واحس بخطواتهم السريعة ، وجلبتهم . فهب واقفاً ، وراح يوقظ اخاه : يهزه ، وموسى مستغرق في نومه ، بعدسهر الليلة البارحة ، والليلة التي سبقتها ، وما عانى من آلام ومخاوف . اخيراً أفاق موسى ، يرتجف رعباً وهو يردد :

— « ما انا . . . ما انا ! »

حتى اذا عاد اليه كامل وعيه ، ورأى اخاه ، وكان يبدو لعينيه كشبح لا سبيل الى تبين ملامحه وقسمات وجهه ، ابتسم وقال :

— « لقد افزعتني . . . كنت احلم انهم قبضوا علينا ، وراحوا يضربوننا بالعصي والقباقيب . . . ! »

واسعد يستعجل اخاه :

— « هيا بنا ! يجب ان نهرب من السفينة قبل الضوء . . . لئلا يرانا البحارة ! »

وخرج الاخوان الى ظهر المركب ، بخطوات الذئب يلتفتان ذات اليمين ، وذات اليسار . هذا بحار قادم !

— « لنختبىء وراء السارية ! »

ولكن سرعان ما يعود البحار من حيث اتى ، الى الغرفة ، حيث اجتمع البحارة جميعهم ، واخذوا يشربون قهوة الصباح ، ويدخنون لفائفهم ، على ضوء السراج .

اقترب اسعد من حفاف السفينة ، ومدّ يده . فاذا الرصيف على قيد خطوة :

— « ساقفز ... وتتبعني ! »

ويقفز اسعد الى اليابسة برشاقة الهرة ، ثم يمد يده ليأخذ بيد اخيه ، فيسبقه موسى ، وينط . ولكن الموجة العائدة كانت قد ابعدت السفينة عن الرصيف فزلت قدمه ، ووقع في البحر .

اضطرب اسعد مرتين : « لقد فضحنا وغرق اخي ! » . الا ان موسى لم يكن يجهل السباحة — شأن سائر ابناء السواحل ، يتعلمون العوم على سطح الماء فور تعلمهم المشي على سطح الارض .

وينبطح اسعد على التراب ، ويطل على البحر برأسه وينادي اخاه هامساً :

— « موسى ... موسى ! اين انت ؟

— هنا ... لا تخف ، ساطلع من الماء ! »

ولكن جدار الرصيف املس ، وقد اكسبه طول احتكاكه بالماء ملوسة ، كما اكسبته الحشائش البحرية لزوجة تجعلان تسلقه ضربا من المستحيل ، ولا سيما على ولد كموسى قصير القامة .

وتبدو لاسعد فكرة . فيخلع شملته التي يتمنطق بها فوق قبائه (غنبازه) ويدليها لاخيه :

— « تمسك بطرف الشملة جيداً ... وانا ارفعك . »

وهكذا استطاع موسى ، بكثير من الصعوبة ، ان يخرج من الماء .

واخذ الاخوان يبتعدان بحذر ، وهما لا يصدقان انهما ما برحا في قيد الحياة ، بعد الذي لقياه من مشقات وآلام وحرمان . ثم يلتفت موسى الى اخيه :

— « الصحيح ... ان الضرب في البيت اهون ... مما لقينا ! »

فيجيبه اسعد ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « صحيح ... الضرب اهون ! »

ثم بصوت النادم :

— « ولكن اذا عدنا الان ... ماذا يكون مصيرنا ؟ آه لقد اخطأت ساعة دعوتك الى الهرب ! ... »

عندئذ يقشعر بدن موسى ، فلا يدري ، أهي قشعريرة البرد ، وقد تبلل بالماء حتى العظم ، ام هي رعشة الخوف . ويسري ما به الى اسعد فيرتجف بدوره . ثم يتأبط ذراع اخيه ويقول :

— « وثيابك ... كيف نجففها ؟

— لا ادري .. ولكن متى طلعت الشمس ، نخلع ثيابنا ، وننشرها .. ثم ننزل الى البحر نغتسل ، حتى تجف ... ! »

*

خلع اسعد سترته «العربية» المشقوقة عند اسفل الظهر — كالريدنكوت — ثم حل شملته الحريرية ، وهو يدور على نفسه ويطويها بين يديه ، كما تطوى الثوب او قصاصات الورق على حفة . ثم نزع قباءه الطويل المتدلي حتى اسفل الساقين ، بحيث يسترهما مكان الجوربين . حتى اذا لم يبق على بدنه سوى قميص تستر الصدر حتى اعلى البطن ، وسروال فضفاض يغطي سائر الجسد الى الركبتين ، التفت اسعد الى اخيه قائلا :

— « اخلع ثيابك ... انك ترتجف ... ازرق لونك ! »

وكان موسى ذاهلاً كالمجرم، يعود اليه وعيه، فيرضخ لارادة اخيه هذه المرة ايضاً، دون ان يفكر، ويبدأ بخلع البسته، بحركات آلية، شارد الفكر، مضعضع الحس. ويحاول عبثاً نزع سترته، بعد ان حل شملته. فان تبلل ثيابه قد جعل منها كتلة متماسكة؛ فيساعده اخوه. ثم ينشر الاخوان ثيابهما على صخرة عند شاطيء البحر، ويغدوان يلعبان بالرمل حيناً، وبالاصداف حيناً آخر، متناسيين ما هما فيه وما اقدما عليه — وما اسهل ما ينسى الاطفال ! — ليس على جسديهما سوى السراويل.

بعد ساعة، سمع الاخوان صراخ ولد يتعالى من الشرق. انه اشبه ما يكون بصوت اخيهما خليل اذا ما استنجد. فيقف موسى واسعد، ويصغيان باهتمام المستطلع، وخوف المذنب، ودهشة الغريب. واذا بالصراخ يتعالى مرة ثانية، مرتعشاً هذه المرة متوسلاً، تتخلله نبرات صوت اجش، فيه بحة وفيه ما يرعب. فيسير الاخوان نحو مصدر الاستغاثة، بخطى السارق، على رمال الشاطيء، وقد بدت اشعة الشمس المشرقة تحميها، ففترت بعد برودة الليل، في اواخر آذار. ويتسلقان الكثيب الذي يعترضهما. فما يصل موسى الى جوار القمة، حتى يفقد توازنه، وقد غرزت رجلاه في الرمل، فينقلب الى الحضيض، منحدراً كالصخرة تنفصل من اعلى الجبل. ثم يعود فيتسلق الكثيب، وقد كسته الرمال العالقة بجسده منظراً مضحكاً. فاذا اشرف واخاه على المنحدر المقابل، رأيا ما تقشعر له الابدان: ولد في مثل سنهما، لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ممزق الثياب، وامامه رجل كأنه الخنزير. والولد يكاد يصرعه الخوف، فيضطرب اضطراب الخرقة في مهب الريح،

وهو ينظر الى ذلك الوحش مستعطفاً ، يعقد الرعب لسانه .

فيهجم عليه الرجل ، وقد آنس منه ضعفاً ، بعد طول المقاومة . ثم يأخذه بين ذراعيه ... ويخيل للرائي ان ذلك الحمل قد استسلم للذئب .. ولكن لا ... ! انه سكون يسبق الوثوب . فيتخلص الولد من قبضتي ذلك الضاري ، ويأخذ حفنة من الرمل يلقيها في عينيه ، ويحاول الهرب ، ساعة يسمع صرخة ألم ، تتعالى من فم الرجل السافل . فيلتفت ، وهو يعدو ، فيراه قد وقع الى الارض لا حراك به ، وبقربه حجر ثقيل . ويرفع الولد رأسه الى السماء ، بحركة غريزية ، فيبصر ولدين في مثل سنه ، ينظران الى الرجل من اعلى الكثيب ، بعينين فيهما من الالم والخوف مثل ما فيهما من السرور والرضاء . فيقف مستأنساً .

— « ترى اهما ملاكان هبطا من السماء ؟ ام انسيان جاءا من الارض ؟ »

ويقبل الولد على موسى واخيه ، كما ينحدر الولدان نحوه . حتى اذا حاذياه ، ارتمى على اكبرهما باكياً ، يرتعش ويضطرب . فقد تحمل من الاوجاع والآلام ما ناء به جسده الرخص ، وقواه الناشئة .

— « من هو هذا الرجل وماذا يريد منك ؟

— هذا ذئب الخنزير ... رأيته في الطريق ... وانا ذاهب الى ابي ، فرافقني ... واخذ يقص علي قصصاً لطيفة وحكايات ... حتى وصلنا الى هنا ... »

وعاد الولد الى البكاء ...

— « ولماذا رافقته ، وهو رجل كبير ، وانت ولد صغير ؟

— معك حق ... وابي كان يقول لي ذلك ... وقد نبهني مراراً الى

عدم التحدث مع الكبار ، وخاصة هذا الرجل ...

— وماذا يريد منك ؟

— انه رذيل ... ! سافل ... ! »

ويلتفت الولد الى حيث كان دنب ممدداً ، فيراه ينتصب جالساً ... فيهب المسكين واقفاً مذعوراً . ولكنه يعود الى هدوئه ويطمئن ، اذ يرى رفيقيه بقربه غير مضطربين . وينظر موسى الى الرجل عن كثب ؛ فيجده كالخنزير حقاً ، بفخذيه القصيرتين ، وجسده الضخم . انه يقوم ، ويهجم على الاولاد الثلاثة ، متوعداً ، مهدداً ، شاتماً . فيصمدون في وجهه لحظة ... ثم يتراجعون . فيتبعهم الوحش ، كأنه الغول ، يتطاير الزبد من فمه ، نتناً قذراً كشتائمه . حتى اذا وصلوا الى شاطيء البحر ، حيث تتجمع الحصى والحجارة ، اتخذ الاولاد متراساً صخرة كبيرة ، تقوم كالجدار ، وراحوا يرجمون ذلك الشيطان ، وهو يتقدم نحوهم غير هياب .

وكان على اسعد ان يتسلم قيادة المعركة :

— « كفوا عن ضربه ! »

ثم يمزق اسفل سرواله ، ويجعله مقلاعاً — واسعد من امهر الاولاد في ضرب المقلاع — ويضع فيه حصاة قدر الجوزة ، ويمسك بطرفيه ، ثم يديره في الهواء مرتين او ثلاثاً ، ويقذف قنبلته :

— « آه لقد اخطأته ... ولكن لن اخطئه هذه المرة ... »

ويقذف القنبلة الثانية ، فتصيب عين دنب ... فيقع الى الارض وهو يصرخ ، حاملا احدى عينيه بيد ، ومتوعداً بالاخرى . ثم يقوم ، وقد بات

على خطوات من الاولاد ، يحمل حجراً كبيراً يهدد به . فيقذفه اسعد بقنبلة ثالثة -- ضخمة هذه المرة -- تصيبه في موضع « الفجور » منه . . . فيقع مغمى عليه ، ويصفق الاولاد طرباً . ثم يركضون نحوه ، ويرجمونه بالحجارة ، كما يفعل اولاد القرية بافعى رموها بحجر ، فرض جسدها دون ان تموت . ثم يأخذون الرمل فيهيلونه على جسده حتى ينطمر .

٢١

ولدنب هذا قصة رائعة . فقد كان الفصل شتاء ، والريح تعصف هوجاء ، والمطر يتساقط حبالا متصلة ، تحجب عن العيون ما كان منها قيد خطوات . والسيول تهدر وسط الشوارع ، وعلى جنباتها ، حانقة ؛ والوحول تتراكم في الاخاديد والمنعطفات ، كما يتراكم الزبـد في الفجوات النائمة على شاطيء البحر الهائج .

لقد آوى كل الى وكره . فلا تسمع غير وقع المياه على الحصباء ؛ ولا ترى غير الدخان ، تنفثـه المداخن إبالات ، فتخاله ضباباً يهبط من السماء . الا الخنازير . . . فقد سرها ان تصير الحدائق مستنقعـات ، وان تعود البساتين سبخات . فراحت تقبع (تصوت) فرحة مرحة ، يتقدمها خنزوان (ذكر الخنازير) ما وقعت عين على اقبح منه واكره !

في هذه الساعة اطلت على نافذتها فتاة في العشرين ، بدينة في غير طول ، تتهادى بدلال العروس ، وعجب الحامل ، وكبريائهـا . فهي في مطلع الشهر الثالث من زفافها ، وقد وحمت منذ ايام ، وتمنت غلاماً ذكراً تقرّ به عيناً . فما ان رأت ذلك الخنزوان الممتلىء لحماً وشحماً ، وحوله الخنازير والخنانيص (صغار الخنـازير) تلعب وتمرح ، وتتمرغ في الوحول والاقـذار ، حتى صرخت طرباً :

— « ما اجمل هذه الخنا . . . »

ولم تكمل . فقد تذكرت ان النظر الى هذه الحيوانات القذرة مكروه، فضلا عن استحسانها . ولكنها امرأة . . . والمرأة غريبة الاطوار ، قد تحب ما يكره الناس عامة ومن يكرهون ، فاستعاذت بالله ، واشاحت بوجهها ، وهي تتمتم في كلمات ، بقيت سراً في وجدانها ووجدان الدهر . فقد قصف الرعد ولمع البرق ، فشعرت الفتاة ان الارض تميد بها او تكاد . . . فسارعت الى اقفال النافذة ، وارخت عليها ستائر تركت الغرفة في شبه ظلمة ، تثير في المرأة اعذب الذكريات . . .

تذكرت ام دذب ذلك المشهد ، وما خالج نفسها اذ ذاك ، ساعة حملت اليها القابلة غلامها المنتظر ، وقد وضعتـه بعد مخاض طويل عسير ، وآلام شديدة مرة . تفرست في وجهه ، فاذا هو خنوص او كالخنوص ، يبرز ذقنه وفمه من فوق القماط ، كما يبرز خطم الدابة (فمها) ، الى رقبة غليظة كرقبة الخنزير ، وساقين قصيرتين كقوائم الخنزوان ، وبطن قام بين فخذيه ككومة الوحل في ارض منبسطة .

كاد الدم يجمد في عروق النفساء . بل كادت تلفظ ما تبقى من انفاسها، بعد طول المخاض وعسره . ولكنها ام . فما ان رأت ذلك الطفل حتى ثارت فيها عاطفة الحنان . فمدت يديها ، وتناولت الغلام وهي ترتجف وتستعيذ بالله من هذا المولود ، ومن شر الوسواس الخناس . فانما ام دذب صالحـة تقية ، لا تترك فرضاً ولا نافلة ؛ وان كانت في خلواتها ممن يستبحن جميع المحرمات . .

ترعرع دذب ، وراح يدب في البيت مفسداً مخرباً . ولشد ما كان عجب امه ، يوم رأت ذلك الغلام ، يخرج الى الحديقة ، في يوم مطير ، فيتمرغ في

الوحول طرباً مسروراً ، وهو يصرخ صراخاً ، رنّ في اذنيهـا رنين قباع الخنانيص ، تستحم في مستنقع او تتزاحم حول كومة من الاقذار. فركضت اليه ، وادخلته الى البيت ، وأزالت ما علق بأثوابـه ، ووجهه ، ويديه من الوحول. ولكنها لم تستطع ان تزيل اثراً تركته حمى ، انتابته في اليوم التالي ، على الرغم من الرقى والتعاويذ ، وجهود الدجالين.

فعاش دنب ما عاش ، تضطرب في وجهه عينان كبيرتان حائرتان ، اذا نظر بهما اليك خلته ينظر الى السقف غاضباً حانقاً ، وما هو بالغاضب الحانق. وعاش ما عاش ، وفي يديه الضخمتين بعض الشلل ، حتى لا يستطيع الكتابة الا ببطء العجائز . ولكم حاول معلموه ، في الكتاتيب ، ان يصلحوا ذلك العيب فيه ، فما وجدوا الى الاصلاح سبيلا . بل لم يزده الصفع والجلد الا شللا فوق شلل ، وبلهاً فوق بله . وتم قضاء الله ! فخرج ذلك الصبي من الكتاتيب الى الازقة .

في هذه البيئة ، درس دنب ما شاءت له فطرته . فما انقضى زمن طويل حتى بات في الصبيان علماً ... يرغب فيـه صنف من الرجال . ثم انقلب « رجلا » يرغب في صنف من الصبيان ... وكل ما تحرمه الشرائع وتمجه الفطرة ... كل ذلك ترك في نفس دنب آثاراً عميقة ؛ تبدو خساسة عُرف بها ، ولؤماً حمله على الوشاية بابيه ، والاساءة الى كل من احسن اليه ، حتى امه — وقد اتهم بخنقها — ووقاحة لا تقف عند حد ، وغدراً وحسداً ....

وشاء دنب ان يكون شاعراً . الم يكن ابو نواس واضرابه المعاصرون — ممن اتصل دنب بهم — على بعض ما هو فيـه ؟ ولكن ! كيف السبيل الى الشعر ، وهو البليد الذهن ، الجاهل الاحمق ، الذي لفظته الكتاتيب بعد

ان عجزت عن اصلاحه ؟

— « الامر يسير ، يجيبه صديقه ونسيبه « تقريباً ... » انظم القصيدة .. تقريباً .. وبعد ذلك يصلحونها ... لك تقريباً . او أحسن من هذا : خذ قصيدة من القصائد المعروفة تقريباً ... ثم اقرأها مراراً حتى تحفظها تقريباً .. وبعد ذلك انظم على مثالها ، بحيث تجعل حرفاً متحركاً تقريباً ... مكان الحرف المتحرك في القصيدة ، وحرفاً ساكناً تقريباً مكان الحرف الساكن .. تقريباً ... »

والامر يسير حقاً ، في بلد يجلس اناسه على سدة الادب من خط سطراً ، ويرفعون الى عرش الشعر من نظم بيتاً ... بل ان وجود « تقريباً » — هذه الاعجوبة الساخرة — على رأس اكبر ادارة اقتصادية في البلد ، لدليل رائع على ان هذا المجتمع في حالة من الوهن ، والفوضى ، والتفسخ ...

عمل ذنب بنصيحة « تقريبا » وراح ينظم البيت والبيتين ، ثم يعرض نتاجه على الذواقين من الناس ، يقوّمون عوجه ، ويقيمون وزنه ، ويعربون عما اختلج في صدره المجدب من معان ... ليعود هو فيصفع به وجه مثر ، استدراراً لفضلات ذات يده ، اوقفا عظيم ، رياء وتملقاً ... ثم يبعث بكل ذلك الى صحيفة لا يجد صاحبها الأمي ما يملأ به فراغ اعمدتها ، فيتم لذنب ما اراد : يلقي الناس في فمه ما يسده ، ويقولون : « قال ذنب ، ونظم ذنب ... » ويصبح شاعراً .

ولكن الشعر في الشرق لا يطعم صاحبه خبزاً ... ناهيك من شعر ذنب ... فما العمل ؟ وقد مات ابوه ، وانقطع بموته مورد رزق الاسرة ... تلك مشكلة حلها « تقريباً ... » ايضاً ، فتعهد نسيبه ، وسعى لاستصدار امر بتعيينه معلما للصبيان ... في احد الكتاتيب .

٢٢

و« تقريباً » ممن ولد بعيـد السنة الستين ... فجاء في هذا الجيل المضطرب الاعصاب ، الضعيف الارادة ، علماً في رأسه نار من الشك ، يعوزها العقل لتصبح مثمرة نافعة .

— « كم لك من العمر ، يا ترى بالضبط ؟

— ربع قرن تقريباً ...

— تقريباً ! هذه كلمة لا تفيد الضبط ! سألتك كم عمرك بالضبط ؟ »

فيفكر « تقريباً » برهة ثم يقول :

— « اثنتان وعشرون سنة تقريباً ... ربع قرن ! الم اقل لك ربـع قرن تقريباً ... ؟

— بلى ! ولكن ربع القرن خمس وعشرون سنة . ولا حيلة (لتقريباً) في جعله اثنتين وعشرين!

— اوه ! انت مزعج بهذه العقليـة التي تهوى الضبط والتحديد ... ما الفرق بين الخمسة والعشرين والاثنين والعشرين ؟ ... »

وعبثاً يحاول حسين — صديق « تقريبا » — ان يقنع هذا المولود « بعيد السنة الستين تقريبا ... » بأن ربع القرن خمس وعشرون سنة ، لا اثنتان وعشرون . فهو يصر على ان العددين متساويان تقريبا ... ثم هناك شك

هذا المولود « بعيد السنة الستين تقريبا ... » فهو يشك حتى في ما سلخ من السنين . وما يدريه ؟ لعله اخطأ في الحساب ، او لعلهم اخطأوا في عد سنيه قبل ان تعلم الحساب !

هذه جدته ... انها تؤكد انه ولد بعيد حرب (الموسكوف) . وهذه امه ، انها تعتقد انها وضعته سنة حرب (القريم ...) . فقد تزوجت قبل ذلك بتسعة اشهر وعشرة ايام تقريبا ... وهذا ابوه : انه لا يذكر من كل ذلك شيئا . وانما يذكر انه تزوج – وكان بياعا دوارا – ويعلم انه جاءه هذا الغلام عن غير عمد ... ثم ترعرع في حضن امه وجدتـه – اذ كان الوالد يغادر البيت منذ مطلع الفجر ، ليعود اليه قبيل منتصف الليل تقريبا ... ولما شب الولد عن الطوق تلقفـه الشارع ومن فيه .. ثم احتضنه رجال الكتاتيب . هذا ما يعلمه من سيرة ابنه البكر ... وهذا ما يعلمه من سيرة ابنه الثالث عشر ، الذي بلغ العاشرة تقريبا منذ بضعة ايام .

ولِمَ التحقيق في امر العمر ، وسوى العمر ، ممـا اتصل بالانسان ؟ بل كيف السبيل الى التحقيق ، مع هذا الاختلاف ؟ حسب المرء ان يولد ليعيش وان يعيش ليموت ، ولن يموت حتى ينتهي اجله ! لذلك لقب الناس (هذا المولود بعيد السنة الستين ...) « تقريبا ... » للاختصار . فكان يسر من هذا اللقب ، فيبسم له بسمته الحائرة ؛ ويرى فيـه جماع ما انطوت عليه فلسفته المضطربة .

وجاء يوم تزوج فيه « تقريبا » ... فجاء اليه نفر من اصحابه يهنئونه ، وكان فيهم رجل – وديع بك – ساير الجماعة في زيارة « تقريبا » وهو لا يعرفه .

– « ما رأيك في الزواج ... وقد ذقته تقريبا ؟

فابتسم « تقريبا » هذه المرة ابتسامتــه الكبيرة ، حتى بانت نواجذه ، خلف لسان ما رأت عين اضخم منه . وقال ، وقد غارت عيناه الصغيرتان ، المائلتان كعيني المعز :

— « الزواج ... الزواج يا عزيزي ضروري تقريبــا ... للانسان . ولذيذ ايضا ، لولا انه يتطلب ما يعجز عنه تقريبا ... اكثر الرجال ! »

فابتسم الاصحاب بدورهم ...

— « تقريبا شيء غامض ....ماذا تعني بالعجز ؟

— اعني تقريبا ما فهمتم ...

— ولكن ... لا تنسَ يا « تقريبا » ان الزواج ليس مادة...فحسب وما اتصل بها بنسب ... هناك الروح ولذتها ...و.... »

فقطع « تقريبا » الكلام على محدثه ، وقال بحماسة وايمان ، وقد انتفخ شدقاه الممتلئان ، وراح يضطرب ويمور ، مشيراً بيديــه الاثنتين معا ، محركا رجليه الضخمتين ، وقفاه البارز ... وحاجبيه الاثيثين المعقودين عند اعلى الانف :

— « لا علاقة للزواج بالروح تقريبا ... ان الزواج ... رغبة ملحة في تلافيف المادة ، غير متصلة بالروح تقريبا ...الا كما يتصل الرأس بالقدم ، او الاوكسجين بالدم ...

— وما دخل الرأس والقدم ، والاوكسجين والدم بالزواج ؟

— اريد ان اقول تقريبا .. ان الزواج ليس من الروح في شيء . خذ مثلا تكاليفه .. ما علاقتها بالروح ؟

— وما تكاليف الزواج ؟

– غريب منك هذا السؤال ! انك تتغـابى وقد عهدتك فطنا لبيبا تقريبا ٠٠٠ !

– عذراً انني مستفهم فحسب !

– انك ستورطني في بحث ما لا احب تقريبا ٠٠٠ ان ابحثه في منزلي ٠٠ في مطلع شهر العسل تقريبا ٠٠٠

– لا بأس يا عزيزي « تقريبا » ! فالحقيقة بنت البحث ، والحقيقة ضالة المؤمن ٠٠ والنجاح في معرفة الحقائق ٠ »

عند هذا استوى « تقريبا » على كرسيه ، وطوى ردن كمه ، كمن يستعد للنزال ، وتنحنح ، ثم التفت ذات اليمين وذات اليسار ، وقال بصوت خافت شأن الحذر ، وقد عبق وجهه (الغوريلي) بحمرة تزيد في احساسك بقبحه :

– « خذ مثلا النفقات ! فانها تقريبا ٠٠٠ كل ما يشغل بال الزوج ٠٠ والزوجة تقريباً ، ما دامت هذه لا تعمل تقريبـاً ٠ ولا تعاون زوجها في الكسب ، او في التدبير ٠٠٠

– كم يجب من المال لعيلة صغيرة كي تعيش عيشة راضية ؟

– لا ادري ! ولكن تقريباً ٠٠٠ خذ مثلا ! انا وامرأتي وخادمتنا الصغيرة تقريباً ٠٠٠ يجب لنا ٠٠٠ مثلا امس ٠٠٠ انفقت تقريباً ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ قرشاً تقريباً ٠٠٠

– واول امس ؟

– ٦٠ ، ٧٠ ، ٩٠ قرشاً تقريباً ٠٠٠

– والذي قبله ؟

– ١٠٠ ، ١٣٠ ، ١٤٠ تقريباً ٠٠٠

– اذن انت انفقت في ثلاثة ايام ١٩٠ تقريباً ، او ٢٤٠ تقريباً ، او ٢٧٠ تقريباً ... !

– قل ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ تقريباً ... !

–ولكن بالضبط كم ؟ بين المئتين والاربع مئة فرق كبير : مئتا قرش !

– لا تحدد تقريباً ... ثم ... »

عندئذ يهم وديع بالانصراف ، وقد عيل صبراً ، فيكزه احدهم بمرفقه ان اصطبر ! فيدوس على رجل صاحبه مصراً ، وهو يحرق الارم . ويشعر « تقريباً » بالامر ، فيحمرّ وجهه خجلاً هذه المرة ...

– « ولكن ... القهوة تقريباً ... انتهت تقريباً ... »

فيجيبه احدهم وكان خبيثاً ، وابتسامة مصطنعة تخفي غيظه :

– « عذراً ... نشرب قهوتك تقريبا ... في مرة اخرى ! »

وينصرف الجماعة ، ويهبطون السلم وصوت « تقريبا » يدوي في آذانهم :

– « القهوة تقريبا انتهت ... انتهت تقريبا ... » فيلتفت الخبيث باسما معتذراً ، ويلتفت وديع غاضبا هازئا ...

وفي الطريق يقول هذا لاحد اصحابه :

– « حقاً ان هذا الصديق شيء ممتاز ! ماذا يعمل ؟ بياع كأبيه المرحوم ؟

– لا انه موظف ... على رأس اكبر ادارة اقتصادية ... »

فيجيب وديع ، وفي عينيه دهشة وحيرة :

– لا ! انت تمزح ... هذا « تقريباً » ... في الاقتصاد ... بين الحسابات الدقيقة ... ! »

فيضحك الاول ماكراً :

– « وما يضحكك ؟

– عجبك يا ذئبي الصغير !

– دع العبث ! من هذا ... « تقريباً » ؟

– وهل ترغب في هذا الحد الى معرفته ؟

– بالطبع ! وهل من رجل اغرب اطواراً من هذا الرجل ... تقريباً .. ؟

عندئذ يجيب الاول رفيقه الملحاح ، بلهجة من ظفر بما يرجوه :

– لم الالحاح ؟ لقد عرفته انت : انه تقريباً رجل ... كسواه ... ! »

٢٣

هرب الاولاد الثلاثة ، وهم يتلفتون الى الوراء ، ترقص افئدتهم هلعاً ، وتصطك ركبهم رعبا . ولكن اسعد لم يغفل عن ان ينبه اخاه الى ضرورة جلب ثيابهما ، المنشورة هناك على الصخرة ... الا ان الاخوين لم يجدا تلك الثياب . فقد سرقت جميعها ما عدا الاحذية الحمراء ... وقد عفّ عنها السارق اللعين او لم يرها : اذ وضعها موسى في الجهة المقابلة للبحر ، في قعر حفرة عميقة .. ما العمل ؟ وكان اهم من فقدان الثياب ، في نظر اسعد ، ضياع المتاليك الخمسة الباقية ، وهي جماع ثروته وثروة اخيه .

فترقرقت الدموع في عيون الاخوين ، دموع محرقة هذه المرة ، لاذعة ، تقرح الاجفان ، ويغصّ بها الحلق ، ويضيق الصدر . ويشعر رفيقهما بما يجول في صدرهما . فيقبل عليهما ، وقد جلسا ، عند قدم الصخرة ، حزينين يائسين ، مربتاً هذين الملاكين :

— « لا تحزنا ! سأعطيكما من ثيابي ما تستتران به ... امي خياطة : فاذا جاءت الثياب طويلة قصرتها ... تعالا معي ... امرّ بابي في البستان ، هناك وراء الهضبة ، واسأله عما يريد ، ثم نذهب الى البيت .. »

وسار الاولاد الثلاثة ، موسى عن اليمين ، يستر صدره العاري بيديه ، واسعد عن اليسار ، يحاول ، وقد بدا اعلى فخذه اليسرى ، ان يجمع السروال

ليسترها ، فيبين وركه واعلى قفاه ... ومشى في الوسط الولد الغريب رفيق الصدفة .

— « ولكن ... لم اسألكما عن اسميكما ! انا سمير ...

— هذا اخي موسى وانا اسعد ...

— انتما لا تذهبان الى المدرسة ايضاً مثلي ؟ انا اشتغل مع امي في البيت : اكنس ، واغسل الصحون ، واذهب الى السوق احضر لوازم البيت ، والى البستان احمل لأبي طعامه واغراضه ...

— وماذا يفعل ابوك في البستان ... لماذا لا يأتي الى البيت ؟ »

اضطرب سمير لهذا السؤال . فهو لم يخطر بباله ان واحداً من النـاس يلقيه عليه ... انه سر العيلة ... ولكنه مع ذلك اجاب ، وهو يلتفت يمينا ويساراً ، ليتأكد من خلو المكان :

— « هس ! ابي هرب من الحبس ... وامي وصتني بان لا اقول ذلك لاحد ! »

فيردد الاخوان ذاهلين :

— « هرب من الحبس ... !؟ »

وكأن هذه الكلمة « هرب » قد ذكرت الاخوين بجنايتهما . فاضطربا بدورهما ، ونظر كل منهما الى الآخر ، وعيناه تطرفان ، كمن يطرد فكرة سيئة ، أو ذكرى مؤلمة .

هذا هو البستان : لقد وصل الرفاق ، ففتح سمير الباب الخشبي الكبير بمفتاح غريب ، يتألف من خشبة بطول الذراع ، وعرض الاصبعين ، قد دق فيها مسامير لا رؤوس لها ، على شكل معين . واغرب من المفتاح القفل ، فهو

لسان خشبي لا يمكن تحريكه بغير ذلك المفتاح ٠

ما اجمل البساتين في الربيع ! ازهار ٠٠٠ ازهار ٠٠٠ على الاشجار ، وتحت الاشجار ، وما بينها وفي كل مكان ! وخضرة تحتضن تلك الزينة ، على الغصون وفوق الارض ! خضرة يرقص عليها الندى رقص الحياة على وجوه الاطفال ٠ فكأنها وقد نما العشب حتى ليبلغ الركب ، وتكاثفت الاوراق حتى لتحجب نور الشمس ، الا اشعة تخترقها — لتبدو على الارض السندسية بقعا ازهى لونا — كأن تلك الخضرة الندية بحر فيه كل ما في البحر من عمق الروعة ، وسحر الفتنة ، وجمال الحركة والحياة ٠

سار الاولاد الثلاثة على الطريق التي خطتها الاقدام بين الاشجار ،فطغى عليها النماء من الجانبين ، حتى حجبها عن الابصار ٠ولولا ان سميراً خبير بتلك الطرق ، لطول ما سار عليها منذ ثلاث سنوات ، لما استطاع الرفاق ان يصلوا الى مقر ابي سمير الحبيس الهارب ٠ فالاشجار متشابهة في زينتها الرائعة ،والنماء شديد في الارض ، حتى ليخيل اليك انك ترى نمو النبتة بعينيك، وتسمع باذنيك عصارتها ، تجري في العروق فياضة غزيرة ٠

— « بابا ٠٠ بابا ٠٠ انا سمير ٠٠٠ ! »

فلا يسمع الولد لصرخاته صدى ، سوى حفيف الاوراق في الغصون ، ووقع الزهرات الذابلة تنفصل وتسقط الى الارض متدحرجة ،او طقطقة غصن في اعلى شجرة ، تمر به الريح ، او زقزقة عصفور، يرتل الحانه في تلك الجنان، نشوان بالحسن والطيب ٠

ويذهب الاولاد يتنقلون في البستان ، يبحثون عن ثمرة منسية ، او فاكهة رجعية ، تملأ صدورهم رائحة تعبق كالمسك من كل ناحية ٠ انهم

يجدون برتقالة في اعلى شجرة . فيتطوع اسعد لقطفها ... كما يجدون كثيراً من ثمر العليق الناضج في السياج المحيط بالبستان . وفيما هم لاهون سمعوا حركة من الوراء . فالقوا بانفسهم الى الارض ، مختبئين وراء العشب ... قد يكون القادم دنباً اللعين ...! ولكن سميراً يتبين اباه فيناديه :

— « بابا ... انا سمير ...! »

فيجلس الاب القرفصاء ، لينظر ابنه الذي يسمع صوته ولا يبصره ، فيرى عجباً : رأسان مختبئان ... فيقفز بحركة عصبية قفزة ترضي ذوي الاختصاص من الرياضيين ، ويختبيء خلف جذع ثخين ، ويده اليمنى على جنبه ، وهو لا يفارق الرأسين بنظره ، ترتسم على وجهه امارات الخوف والذعر ...

— « هذا موسى واخوه اسعد رفيقاي ...! »

فيتنفس الاب الصعداء ، ويبتسم بسمة الهازيء من نفسه :

— « تعالا ... لم تختبئان ؟ »

ويقبل ابو سمير على الولدين ... فينتصبان خجلين بعريهما ... وقد اصطبغ وجهاهما ... ثم يلتفت الاب الى ابنه متسائلا ، والعجب في عينيه السوداوين . فيقص سمير على ابيه قصتها ، وكيف خلصاه من دنب اللعين وشره ... والاب يتميز من الغيظ ، ويحرق الارم ، وموسى واسعد يسترقان النظر الى هذا الرجل . فاذا هو متين العضلات ، له شاربان عنتريان ، وعينان تقدحان شرر الذكاء ، ووجه اسمر في قسماته معنى الرحمة والوداعة . يحمل في جنبه مسدساً يشده حزام من الجلد عريض ، فوق شملة من الشال . انه لا يلبس قباء بل قميصا ازرق وسروالا فضفاضا ، يسع خمسة مثله . فاذا

انتهى سمير من رواية حادثة الصباح المشؤومة، التفت والده الى اكبر الاخوين:

– « ولكن ... من ابوكما ...؟ »

فيجيبه موسى ، وهو يرتجف برداً وخوفاً :

– « ابونا ... ابونا ... الشيخ الصافي ... !

– الشيخ الصافي ؟ وماذا يكون ابو صلاح منكم ؟ »

فيجيب اسعد ، وقد خرج من ذهوله :

– « هو عمي ... آه ما احبه الي ! وخاصة امراة عمي التي اعطتني .. »

فيكزه اخوه بمرفقه عاتبا ... وابو سمير يتمتم كمن يناجي نفسه :

– « ابو صلاح ... الشيخ الصافي ... كنت مدينا لهذه العيلة بحياتي ... والان بت مدينا لها بشرف ولدي ... ايضا ! »

ثم يلتفت الى الولدين سائلا بشدة وحزم ، وبلهجة من تذكر امرا مهماً نسيه :

– « ولكن ... ماذا تعملان هنا ... في هذه المدينة ؟

اسقط في يد الاخوين ! لم يبينا ، هما ايضاً ، جواباً لسؤال بمعنى هـذا السؤال . وكأن موسى ، وكان اشد ندماً من اخيه على ما فرط منه ، قـد امتلأ مما جرى لهما في الايام الثلاثـة الاخيرة ، فانفجر يقص قصتهما ، وهو يبكي متوسلا :

– « هربنا من البيت ... هذا اخي المذنب ... هو الذي حملني على الهرب ... في السفينة ... و .. »

وابو سمير ينظر الى موسى تارة والى اسعد طوراً ، دون ان ينبس ببنت شفة . ثم يلتفت الى ابنه :

– « اذهب حالا الى البيت، واحضر ثيابا لرفيقيك ، وطعاما لنا جميعا ! »

فينصرف سمير راكضاً ، فرحا بنجاته مما كان ينتظره من عقاب، غامزاً رفيقيه الجديدين بعينيه العسليتين :

– « اما انتما ... فستكونان اليوم في البيت عند ابيكما ... »

٢٤

عاد سمير تصحبه امه ، تحت ملاءتها البيضاء الفضفاضة ، يحمل الطعام في سطيلة من عدة طبقات ، كما تحمل امه الثياب . فارتدى موسى واسعد هذه — وقد جاء القباء طويلا على اسعد ، قصيراً على موسى — والتهم الجميع ما حضرته ام سمير من كوسى وورق عنب ... ثم نهض ابو سمير الى الصلاة ، مؤتماً هذه الجماعة الصغيرة . فوقف عند جذع شجرة من المشمش ، كأنها باقة من الزهر في زينتها البيضاء الرائعة ، ووقف خلفه ولده ورفيقاه ، وقامت خلف الجميع ام سمير ، لا يبين منها سوى كفيها ووجهها ، وابتدأت الصلاة .

الا ان اسعد كان يجهل الاصول . فيقوم من سجوده قبل ان يقوم الامام ، وان كان لا يركع الا معه . ويدفعه اخوه ، فيلتفت اسعد اليه محتجا ... ثم يعود فينظر الى سمير ليتأكد من انه لم يره وهو يقترف مخالفاته ، فينظر اليه سمير بدوره باسما ، ويبتسم اسعد . ثم يسري المرح الى الاولاد الثلاثة ، فيضحكون . الا ان جلال الموقف ، وخشوع الامام ، كانا يحملانهم على العودة فوراً الى الرصانة والهدوء ...

— « السلام عليكم ورحمة الله ... السلام عليكم ورحمة الله ! »

ويرتفع صوت ام سمير :

– « كنت تتلفت في الصلاة يا سمير !

– لا ! ما انا ! هذا اسعد ... »

واسعد حاضر البديهة :

– « وكيف رأيتني اتلفت ، اذا لم تتلفت انت ؟ »

فيضحك الاب ، وتبسم الام .

*

ابو سمير يدخن لفافته وهو يسرج الفرس ويلجمها . ثم يضع على السرج خرجا كبيرا ، تتدلى عيناه على جانبيها . ويودع امرأته ، دون ان يقبلها او يصافحها ، ويقبل ابنه سميراً وهو يوصيه :

– « اطع امك ... ساعود غدا قبل الفجر ... ان شاء الله ! هيا بنا يا ولدي ! »

ويرفع ابو سمير اسعد فيجلسه في احدى عيني الخرج ، بينما يشد موسى العين الثانية كيلا يفقد التوازن . ثم يعود ويحمل موسى ويجلسه في العين المقابلة ، بينما يرفع سمير تلك التي احتلها اسعد . ويضع ابو سمير رجله اليسرى في الركاب ، ويقفز قفزة تحمله الى ظهر الفرس ...

انها تركض مسرعة رغم حملها الثقيل ، وسط الحقول المنبسطة حتى مرمى البصر ، يداعب النسيم شعر عرفها الاصهب ، كما يداعب العشب ، فيتموج على عنقها الملتف تموج الضباب في القمة العالية ، عند الاصيل ؛ ويلمع وبرها الاحمر ، وسط ذلك البحر الاخضر ، لمعان المرجان في المياه الهادئة .

انها فرس حجيل ، عربية ثابتة النسب . يبدو البياض في قوائمها الثلاث كأنه اربطة ، تشد حوافرها الدقيقة الى سوقها الضامرة . حتى اذا سبحت

تُخيل اليك ان تلك الاربطة ، بما فيها من ثُنَن ناصعة البياض ، شهب مذنبة تعلو وتنقضّ ، وتنقض وتعلو ، في وقت واحد .

لم يفتح ابو سمير فمه بكلمة ، منذ فارق البستان — مقره الدائم في السنوات الثلاث الاخيرة — على الرغم مما كان يحيط بـه من مظاهر جمال يستنطق الابكم ، وعلى الرغم مما يحسه من لذة الحرية ، بعد طول الاسر . بل صمت ابو سمير لهذا كله ، وهو الرجل الذي يحدث نفسه ، او الحائط ، ان لم يجد بشراً يستمع اليه . فان الجمال الرائع يخرس ، كالمصيبة النازلة ، والحرية المؤقتة تشل الحركة كالقيود .

وكأن جمود ابي سمير قد سرى الى موسى واسعد ، فصمتا بدورهما صمت النائم بعد التعب ، ينام حتى في احلامه . الا ان منظراً مخيفاً ، فتح عيون الاخوين ، وقد كاد يطبقها النعاس : هذه افعى ضخمة ، غبراء اللون ، رقشاء ، تنتصب امامها ، على خطوات من الفرس . فيصرخ الاخوان رعباً ، وتجفل الفرس ، فتتراجع . ويلتفت ابو سمير ، ويرى مصدر الذعر ؛ فينتضي مسدسه فوراً ، ويفرغ منه رصاصتين تصرعان الافعى ؛ فتتجمع على نفسها ككومة من الوحل ، لترقد الرقاد الاخير .

ويتابع الركب طريقهم ، يتلفتون : موسى واسعد ليتأكدا من موت الافعى ، وابو سمير ليرى ما كان لأزيز الرصاص في سكون البرية ، من اثر . فهم على مقربة من مخفر الدرك ، يقع ناحية البحر ، ويخشى ابو سمير ان يكونوا قد سمعوا الازيز ... وهناك الطامة الكبرى .

الشمس في الجنوب ، وقد اصبح ظل كل شيء مثليه : هذا وقت صلاة العصر . فليترجل ابو سمير ، وليؤد صلاته ! اما الولدان فيبقيان حيث هما ..

اذ لا رابع يعين ابا سمير في ارجاعها الى مكانها · وما ان انتهى من صلاته، حتى اخذت الفرس تصهل صهيلا فقه ابو سمير معناه : انها تحس مقدم فرس مثلها · فما عليه الا ان يهب الى ظهرها بسرعة البرق ، ويُعديها ، ملقياً حبلها على غاربها · فتجري تنهب الارض نهباً · ثم يلتفت ، فـيرى فارساً يسابق الريح ، ويشير اليه ان « قف ! » ثم يطلق النار في الهواء ارهاباً ···فيقابله ابو سمير بطلقتين من مسدسه ، وهو يتابع سيره الجنوني ، لا يلوي على شيء·

وسرعان ما غاب الفارس عن الابصار · ولكن موسى واسعد ما برحا يبكيان · فقد راعهما ازيز الرصاص تتجاوب به الارجاء مرتين · فكان على ابي سمير ان يكبح جماح فرسه : يشد باللجام اولا ، ثم بشعر العرف، فتقف كأنها السيارة شددت « فراملها » المتينة ·

— « ولماذا تبكيان ؟ لا تخافا يا ولدي ! سنصل عما قريب ··· لقـد قطعنا اكثر من نصف الطريق ··· بعد ساعتين ··· بعـيد الغروب ، تكونان عند ابيكما ! »

٢٥

لم تغمض للشيخ الصافي عين ، منذ هرب ولداه . فحزنه على الضائعين ، وما يلقاه من خصام زوجته المتواصل ، وسوء معاملتها ، كل ذلك ، افقده البقية الباقية من قواه . فبات ، على الرغم من استئناسه باخيه واهل بيته – وقد لازموه في اكثر الاحيان – كأنه البريء حكم بالاعدام ، في مساء يومه الاخير ، يعد الدقائق والثواني دون امل بالنجاة .

الا ان اعصاب الشيخ ما برحت متينة ، وهو الذي لم يسرف في شبابه ، وقلبه قوياً عامراً بالايمان . لقد كان يشعر شعوراً خفياً بان ولديه عائدين اليه سليمين ... غير ان ذلك الشعور كان اضعف من ان يجد فيه الشيخ عزاء ، وكان اشد غموضاً من ان يطمئن الشيخ اليه . ولكن ما العمل ؟ لا بد من الانتظار ...

وقد خطر للشيخ ان يبعث برسول خاص ، على نفقته ، يفتش عن ولديه ، ويبحث مع الدرك عنها . الا ان الرسل المتهنين باجمعهم كانوا على سفر ، وان يعود واحد منهم قبل اسبوع . فعربة البريد ايسر وسيلة ، وعودتها اقرب موعداً . فما اصبح صباح اليوم الثالث ، حتى هب الشيخ الى بيت اخيه ، واصطحبه الى السراي ، حيث اتخذا – بما لابي صلاح من نفوذ فيها ، وقد كان لامد قصير حاكماً كأبيه وجده – ما ينبغي من وسائل ، للبحث عن

الولدين الضائعين ، باشراف رجال الامن .

وسارت عربة البريد تتهادى ، يجرها اربعة من الخيل . وعاد الشيخ الى بيته ، يعد الساعات بل الدقائق . فما مر عليه يوم اطول من يومه ، ولا شعر بمرارة الصبر وصعوبة الانتظار شعوره بها في تلك البرهة العصيبة . حتى انه ذهل عن صلاة الظهر ، فجمعها الى صلاة العصر ، لاول مرة في حياته الطويلة .

*

الشمس تنحدر الى المغيب ، ويتسرب الظلام الى الكون ، فيداخل الشيخ انقباض ، يضيق معه صدره ، ويشعر بان ثيابه لا تسع بدنه النحيل على رحابتها . فيصلي المغرب ، وينصرف الى ذكر الله والصلاة على نبيه ، حتى يحس بان ما به قد زال او كاد . فتنبسط اساريره بعض الانبساط ، ويعود اليه شيء من هدوء نفسه . فيعتقد ان الدرك قد وجدوا ولديه ، وانهما في طريقهما اليه ...

عندئذ يدق الباب دقاً لطيفاً . فيقوم الشيخ مسرعاً ليرى من الطارق ، فيلتقي ، عند باب الغرفة ، امرأته . فيقطب ما بين عينيه ، ويبتعد عنها بازدراء ، وتعود هي من حيث اتت متمتمة حانقة . هذا ابو صلاح واهل بيته :

— « اهلا وسهلا ! هل من خبر ؟

— خير ان شاء الله ... للان لم نأخذ خبرا . كن مطمئنا يا اخي ... انا واثق من عودتهما ... ! »

وما ان يستقر بالجماعة المقام حتى يدق الباب دقاً عنيفاً هذه المرة ، دقات نزقة . فيهب الشيخ واخوه والاولاد ، تتبعهم ام موسى وام صلاح ...

— « الشيخ الصافي هنا ؟

— نعم ... تفضل ... من حضرتك ؟ »

ويتعالى البكاء ... وصوت يردد :

— « لا تبك يا موسى ... هذا اسعد اشجع منك ... ! »

— موسى ... اسعد ! »

لم يصدق الشيخ اذنيـه ... ويهبط واخاه السلم الحجري ، مسرعين كطفلين ، يقفزان قفزا ... حقاً هذا موسى ، وهذا اسعد ... !

— « تفضل يا سيدي ... تفضل ادخل واسترح !

— لا لا ! يا سيدي الشيخ ... اعود الان من حيث اتيت . »

فينبري ابو صلاح للقول ، وكان في هذه اللحظة اشد وعياً من اخيه :

— « ولكن ... من العبث ان نتركك ... تذهب هكـذا ... دون ان نعرفك وان نكافيك ! »

فما سمع الرجل صوت ابي صلاح حتى اقبل عليه ، يقبل يـديه ، وهو يقول :

— « يكفيني اجراً ان خلصتني من الموت ... انت ... فانا مدين لك بحياتي ... ! »

وابو صلاح يستل يديه من بين يدي الرجل ، مستغفرا الله ... والعجب يملأ صدره وعينيه ...

— « تفضل يا اخي ! ادخل ... من انت اولا ؟ »

ويدفع ابو صلاح ابا سمير ، ليدخله البيت ، بينما يقف الشيخ ذاهـلا ، ساهراً ، تتنازعه شتى العواطف .

جلس الرجال الثلاثة حول بركة مستديرة ، تقع عند مدخل الحديقة ،

وتقوم حولها مصطبتان حجريتان متقابلتان ، هما بمثابة «تختين» . فقعد ابو صلاح وابو سمير على واحدة ، وتربع الشيخ الصافي حيالهما على الثانية . اما موسى واسعد فقد دخلا البيت خجلين ، فتلقفتهما امهما بالتهديد والوعيد ..

ساد الصمت هنيهة ... ثم قطع حبل اتصاله ابو صلاح بقوله :

— « والان ... هل لك ان تخبرني من انت وما قصتك ؟ »

فيرفع ابو سمير رأسه ، كالمستيقظ من حلم طويل :

— « انت لا تذكرني بالطبع يا سيدي ... فقد مر بك كثيرون مثلي .. ولكنك تذكر رجلا خلصته من جناية لفقها عليه قوم مغرضون ، واتوا بشهود الزور المأجورين ... »

ان ابا صلاح يذكر حادثة من هذا النوع ، بل حوادث جمة ، تختلط وقائعها في ذهنه ... يذكرها كما يذكر الرجل مآتي صباه . فيعتدل في جلسته ، مصغياً بكل جوارحه ، ويتابع ابو سمير حديثه تقطعه الغصص :

— « كنت فلاحاً في قرية ... اعمل هادئاً وادعا ... ولكني لم اكن ارضخ للزعماء رضوخ العبد ... فكنت اناوئهم ، اذا جاروا ما استطعت .. حتى كان عام الثلجة الكبرى ... في ذلك الحين جاءني احدهم يطلب الي ان ... أقتل خصما له ومزاحما . فأبيت ! وعبثا كان تهديده اياي ، مباشرة وبالواسطة ... بانه سيقتلني اذا لم افعل ما يأمر به ... او يقتله ويتهمني به .. والحاصل قُتل ذلك الرجل ... واتهموني بقتله ! حتى اذا اطلعت انت يا سيدي على الحقيقة ... برأتني وانت لا تعرفني . بل لم تر لي صورة وجه قبل ذلك اليوم ، وانا الفقير الضعيف ، واخصامي الاغنياء الاقوياء ... لهذا انا مدين لك مدى الحياة ... مدين لك ولكل من يلوذ بك ... بدمي ،

بحياتي ...!»

كان ابو سمير يسرد قصته بتأثر وحرقة . فما وصل الى المقاطع الاخيرة حتى خنق الدمع صوته ... وابو صلاح واخوه ينظران اليه ، على ضوء المصباح ، ذاهلين ، يترقرق الدمع في عينيهما سرورا ، واعجابا ، ورثاء .

ثم يقوم ابو صلاح ، ويقدم لفافة الى ابي سمير ، فيتقبلها الرجل شاكرا ، ويشعلها من المصباح ، شاهقا بشدة حتى ليكاد ينطفيء ، كما يقدم لاخيه لفافة ، ويأخذ هو واحدة ايضا . ثم يقول متواضعا ، بعد مجتين من الدخان :

– « يا عزيزي ... لقد بالغت كثيرا ! انا لم اقم الا بواجبي ... اعتقدت انك بريء فبرأتك ! دون ان اتأثر بشيء سوى وحي وجداني ... »

ثم بعد صمت قصير :

– « والان ماذا تصنع ؟

– لقد هجرت قريتي يا سيدي بعد ذلك ... اذ باتت الحياة فيها مستحيلة علي ... وانتقلت الى مدينة ت ... حيث اشتريت حصة في بستان ورحت اعمل فيه ... ولكنني لم انج من شرورهم ، لقد وشوا بي واتهموني بتهريب التبغ ، والمتاجرة به ... ويعلم الله يا سيدي انني بريء من ذلك هذه المرة براءتي من القتل في المرة الاولى ! ولكن ادارة الحصر – وانت اعلم مني بظلمها ! – ابت الا ان احبس – وكانوا قد رشوا الحاكم ! – فحكمت بالسجن خمس سنوات ...

– وسجنت ؟

– لا يا سيدي ... نعم ! الا انني هربت في السنة الثانية ، وما برحت متخفيا ! »

فيتألم ابو صلاح ، وهو الذي يعلم اكثر من سواه ، ما يلقـاه ابو سمير وامثاله المساكين من ظلم ... ظلم الحكام ، وظلم المحتكرين ، وظلم الزعماء واستبدادهم ، فوق مصيبتهم بالجهل والفقر . انهم اذل من العبيد ، واشـد منهم بؤساً وشقاء . فحقوقهم ضائعة ، واموالهم نهب مقسم ، وحياتهم عبودية دائمة ، وكل مالهم ، حتى اعراضهم ، ملك اسيادهم يتصرفون به كما يشاؤون .

وما برح ابو صلاح يذكر ابا مسعود المسكين ، الذي لفقوا عليه دعوى سرقة ، ليزجوه في السجن ، ويستولوا على املاكه . والسيد عبد الرضى الذي اتهموه بجناية ، ليتخلصوا منه ، ويتمتعوا بزوجته الحسناء . وطانيوس ملحم الذي قتلوه ، واتهموا بقتله اولاده وزوجته ، ثم راحوا يسعون في تبرئتهم ، ليستعبدوهم الى الابد .

وليس ايسر من اقامة الدعوى ، واثباتها عند هؤلاء القوم ، والشهود المأجورون كثر ، قد اتخذوا شهادة الزور مهنة لهم ، حتى ليشهد احدهم بالقتل على آخر ، مقابل ربع مجيدي تقاضاه من الخصم ، او عشاء تناوله في بيته ! ومـا اكثر دعاويهم وافتراآتهم !

ثم يلتفت ابو صلاح الى الضيف :

— « حقاً انني متألم لك ... كن على ثقة من اننا ، انا واخي وجميع افراد اسرتنا ، مستعدون لكل خدمة ، يكون لك بها نفع ! »

فينتصب ابو سمير واقفاً ، ثم ينكب على يد ابي صلاح يقبلها . فيحاول الشيخ الصافي ان يشكر للرجل اريحيته ، بعد صمته الذاهل الطويل :

— « اننا لك ... شاكرون ! ومستعدون لكل أمر ... »

فيتقدم ابو سمير من الشيخ ، ويقبل يده ايضاً . ثم يهم بالذهاب مستأذناً .

– « ولكن ... انت جائع لا شك ! تتعشى وتبيت الليلة ثم ...

– لا يا سيدي ... شربت قهوة الان ، دعني اعد في الظلام . ان الدرك شريرون !

– ولكن ! تناول ما تستطيع من الطعام .

– شكراً جزيلا ... افضل ان اعود . فامرأتي وولدي ... »

وينصرف ابو سمير ، وهو يرجو الدعاء من الشيخ ، والرضاء من ابي صلاح ، والاخوان يتبعانه ، مرددين عبارات الشكر ، والثناء على وفائه وعرفانه الجميل ...

٢٦

— « ألم اقل لك انهما سيعودان ؟

— بلى ... »

ثم بعد صمت وجيز ، يتابع الشيخ كلامه بلهجة الاعجاب والرضاء :

— « وهذا الرجل ... ابو سمير ! حقاً لم تخل الارض من ذوي الخلق الطيب ، والمعدن الصالح ! »

ويدخل الاخوان على اهل بيتهما . فتسارع ام صلاح وام موسى الى ستر شعريهما ، بنقاب من (الشاش) الابيض — اذ لا ينبغي للمخدرة ان تبدي زينتها لغير بعلها او ابنها — ويقف الجميع احتراماً للرجلين . اما موسى واسعد ، فقد اختبآ خلف امرأة عمهما ، يحتميان بها ...

وجلس الشيخ الى جانب اخيه ، في صدر الغرفة ، متربعاً ، وجلست ام صلاح قرب زوجها . اما ام موسى فقد قبعت وحدها في الجهة المقابلة ، قرب الباب على عادتها ، وساد الجميع صمت طويل . وسرعان ما اغفى موسى واخوانه . فأخذ ابو صلاح بالحديث :

— « والغريب في امر هذا الرجل انه يعرض نفسه بعمله هذا للخطر .. »

ثم يلتفت الى امرأته شارحاً :

— « الرجل الذي اعاد الولدين ... رجل طيب ! يزعم انه مدين لي

بحياته ، اذ برأته من جناية اتهم بها ٠٠٠ »

فتبتسم ام صلاح ابتسامتها العذبة ، على الرغم من سنيها الخمسين، ويشرق وجهها النبيل بالاعجاب والاكبار ، وتقول بلهجتها التي تقرب من لهجة المثقفين :

– « حياه الله ! انه لم ينسَ المعروف ٠٠٠ »

ثم تهمس في اذن زوجها :

– « انني فخورة بك ! »

لم تخف على الشيخ كلمات امرأة اخيه ٠ فتنهد بحرقة النادم على ما فرط منه ٠ ما كان اسعده لو اتيح له ان يقترن بفتاة كأم صلاح ! تجمع الى شرف النسب التربية الصحيحة والادب العالي ، والذكاء، وشيئاً من الثقافة ، تفهم معه ما تسمع ، وتعبر عما تعتقد، وتحس ، وترى ! فيشعر الرجل ان زوجه «انسانة» مثله ، فيحترمها ويحبها حباً صادقاً ! ثم تصبح منه بمنزلة الصديق ٠

اما سعاد ! سعاد الغبية الجاهلة الحمقاء ٠٠٠

وعبثاً كان سعي الشيخ في تعليمها وتهذيبها ! فانها كانت تزداد جهلاً على جهل ، وغباوة فوق غباوة ٠ فعاشت هذه السنين ، لا همّ لها سوى الطعام والشراب ٠ حتى اذا تكلمت في غير ذلك ، نطقت بما لا يسر ، ولا يدعو الى الاحترام ، بلهجة السوقة ، او ادنى من ذلك ٠ لقد حاول الشيخ ان يصلح الفاظها العامية ، فيعودها ان تقول شمس بدلا من « سمس » ، وزوج بدلا من « جوز » ، او مكنسة بدلا من « منكسة » ٠٠٠ فكانت محاولاته عبثاً ، ورغبته في تثقيفها محالا ٠ فان سعاد ، كذويها ، لا تثق بالشيخ ، ولا ترى له منزلة او فضلا ٠

لذا كان كثيراً ما يعزي نفسه ، بان يقص عليها حكاية ذلك الرجل

العظيم ، الذي كان يكرمه الشعب بادره ، وتدين له الجماهير : فاذا تكلم اصغوا ، واذا وقف فيهم خطيباً الهبوا الايدي بالتصفيق ... في حين كانت امرأته الغبية لا ترى له قيمة ، ولا تحب ان تصدق ان لزوجها تلك المنزلة التي يجعل نفسه فيها . فاراد ذات يوم ان يري امرأته ما يتمتع به من نفوذ، وما له من احترام في النفوس. فاستصحبها الى محفل كان من خطبائه، واجلسها بحيث ترى ولا تُرى . حتى اذا انتهى من خطابه – وقد نال من الجمهور اعجابا منقطع النظير ، فصفقوا له تصفيقا حاداً – جاء الى زوجته، يشع سروراً، وهو على مثل اليقين من انها باتت تنظر اليه ، بعد ذلك ، بغير العين التي كانت تنظر بها اليه :

– « كيف رأيت يا امرأة ... الم اقل لك انني رجل محبوب ... ؟ »

فاجابته ، وهي تقلب شفتها العليا باحتقار وازدراء :

– « دخلك ... » لماذا كان الناس ساكتين وانت وحدك « تشبر » وتصرخ كالمجانين ... ؟ »

فسعاد كهذه المرأة الجاهلة الغبية ، لا ترى للشيخ فضيلة الا اتهمته بضدها : فهو بخيل ، لانه يحرص على عدم الاكل الا في مواعيده . وهو مزعج لانه لا يفارق البيت الا ساعات في النهار ... وهو جاهل لانه يطالع في الكتب ، ولو كان عالماً لما فعل ! وهو ...

مرّ كل ذلك في مخيلة الشيخ ، ووازن بين حال امرأته ، وحال امرأة اخيه ، فتأوه . انه لم ينعم بما ينعم الازواج به من عطف المرأة ورعايتها ، وحبها واخلاصها ، واعجابها وتكريمها ، كما لم ينعم بزوجته كامرأة ترضي نفسه وجسده : فهي سوداوية الطبع ، لا تنفرج شفتاها عن الابتسامة الا

مكرهة ، ولا تتزين الا مسخرة ، وهي صموت – على عكس النساء – فضلاً عن قصر قامتها ونحافتها ...

ولم يقطع على الشيخ حبل ذكرياته المؤلمة الا صوت اخيه يسأله :

– « وماذا قررت في شأن الولدين ؟ »

فيجيبه الشيخ وقد صحا من حلمه المزعج :

– « والله لا ادري الآن ! ولكن ...

– بالطبع ... الضرب كما تعلم يا اخي لا يفيد شيئاً . بل يزيد الولد وقاحة ، فيبلد شعوره ، ويقضي على كل جميل في نفسه !

– هذا رأيي ! ولكن امرأة اخيك لا تحب ان تعتقد ذلك . فهي تلومني دوماً على انني لا اضرب الولد ، اذا اذنب ، بل اكتفي بتنبيهه ، او تقريعه . »

وتشترك ام صلاح في الحديث :

– « انا لا اذكر انني ضربت ولداً من اولادي يوماً ! ولا ابو صلاح ! لان الضرب يميت النفس ويذلها . ولا يزيد الولد الا شراسة ...

– صحيح ... وخير من الضرب حرمان الولد من مكافأة ينتظرها ، او لذة يطلبها ... كأن تمنعيه من اكل فاكهة ، او حلوى ، او خرج ... اذا كنت تعطينه خرجاً ... ! »

فيجيب الشيخ اخاه :

– « انا معك ... ولكنني اكره اعطاء الخرج للولد ! ولماذا الخرج ؟ ما دام يجد في البيت ما يحتاج اليه ، من طعام ، وشراب ، وفاكهة ... »

فتفتح سعاد فمها هذه المرة – وهي التي ما برحت جالسة دون حراك ، تعتمد يدها وقد اسندت مرفقها الى حضنها :

— « بالخرج ... يشتري الولد شيئاً من الطعام يتسلى به ! »

فيغضب الشيخ لسخافة امرأتــه ، ولكنه يكظم غيظــه ؛ ويجيب ابو صلاح :

— « يا امرأة اخي ! تسلية الولد لا تكون بالطعام ... ! يتسلى باللعب، بالمطالعة ، بالعمل ... هذا تسلية ! اما الطعام فيؤخذ في اوقات معينة للتغذية . »

فتبتسم سعاد ابتسامة تعني بصراحة :

— « توافق الاخوان ... بالطبع ! لا يشد ازر العروس الا اهلها » وتعود الى صمتها الابدي !

عندئذ تدق الساعة الرابعة ... لقد مضى من الليل اربع ساعات ... وحان وقت النوم . فيستأذن ابو صلاح وزوجه وينصرفـان ... ويبقى الشيخ وجهاً لوجه مع زوجه :

— « انت التي افسدت الاولاد ، بعدم طاعتك وسوء تصرفك !

— الله يفسد معدة الذي افسدهم ! ماذا عملت حتى افسدتهم ؟

— ماذا عملت ! سيرتك نفسها هي التي افسدتهم ! تخالفينني في كل امر ! كم مرة منعت الاولاد من الذهاب الى بيت جدتهم وخالهم .. ؟

— ها ها ! اهلي افسدوهم !

— بالطبع ! انهم فاسدون مفسدون !

— والله انهم افضل منك ومن اهلك !

— لعنك الله يا خائنة ... يا ... »

وينصرف الشيخ الى فراشه ، وتذهب امرأته الى فراشها ، بين اولادها، يلعنها وتلعنه ، ويصب احدهما على الآخر جام غضبه ...

٢٧

مضت الايام والشهور ، وحال الشيخ وزوجته كما رأيت : انهما عـدوان يعيشان تحت سقف واحد ، والاولاد في جحيم من خصامهما الدائم ، ونزاعهما المستمر . وخاصة موسى الذي اتم الرابعة عشرة ، وبلغ مبلغ الرجال .

يستيقظ مبكراً — والفجر يرسل اشعته الغامضة على المدينة الحالمة ، في سكون الليل وهدوئه — فيرفع يده الى رأسه ، يحك بها ما بين فوده وناصيته ، فيطرق سمعه صخب يتعالى من خلف الجدار . هذا ابوه وامه يتخاصمان :

— « رباه ! الى متى هذا الشقاء ؟ »

فيسمع الفتى ، او يخيل اليه انه يسمع هذه الكلمات :

— « حتى القبر ! »

يهمس بها في اذنه صدى ما في نفسه ، التي ملت حياة تستقبله عند الفجر بالاكدار ، وتودعه عند النوم بالآلام . فيقطب ما بين عينيه ، ويلقي برأسه المتعب على مخدة ما كانت له ، منذ ترعرع ، الا متكأ مضض ووساوس ، وهي للناس موطن راحة واطمئنان . ويتمنى لو ان خاطف الانفاس يذهب بما في صدره فيستريح . ثم يلتحف الى ما فوق اذنيه . ولكن تلك الاصوات « الحبيبة » ما تبرح تتعالى بالصراخ ، والسباب ، والشتائم :

— « يا ابنة اللئام ! انني ادرى منك بما يجب ان يكون عليه بيتي ..

واولادي .

– انت تشتمني ايضاً ؟ . . . وماذا قلت لك حتى تشتمني . . . ؟ سوى انني ارى ان وضع الطاولة . . .

– لعنك الله ! انك تكذبين ، وتحرفين الحديث ! اذهبي من امامي يا . . كذابة . يا سافلة ! »

ويعود موسى من المدرسة عند الظهر ، والتعب آخذ منه مأخذه – وكان من اشد التلامذة اجتهاداً – فيستقبله ، قبل الباب ، صوت ابيه الصاخب :

– « لعن الله يوماً تعرفت فيه اليك يا خائنة ! »

وصوت امه الباكي :

– « لعن الله يوماً تعرفت فيه اليك يا . . . خائن !

– انت نشأت نشأة سوء . . . ما عليك من حرج اذا ظهرت بهذا المظهر ، من الشراسة وسوء الادب . . .

– انني اشرف منك اصلا !

– الشوم عليك ! لقد صدق رسول الله : « اياكم وخضراء الدمن ! . . . » المرأة الحسناء في المنبت السوء .

– ولمَ خالفت نبيك ، ما دمت تعلم من امري ذلك ؟ »

فيود موسى لو يرجع ادراجه ، لولا الجوع الذي يدغدغ امعاءه :

– « مساء الخير . . .

– « هذا انت ! تعال واحكم بيني وبين هذه الفاجرة امك . . »

وهكذا باتت حياة هذا البيت ، ومن فيه ، شقاء متصلا ، وموسى الناشيء انكد سكانه حظاً : اجهاد في المدرسة ، وهم في البيت ، على سوء في التغذية

وجهل وسائل الصحة . فبات ضيق الصدر متشائماً ، ما يكاد ثغره يفتر عن ابتسامة حتى يذكر ما هو فيه ، من نكد العيش ، واضطراب الحياة البيتية فيعاوده التقطيب ، وتراجعه المرارة . ويُرسلها زفرات تلتهب ألماً وغيظاً .

والذي كان يزيد في شقاء هذا الناشيء . هو حبه لوالديه حباً اكيداً ، واحترامه لهما ، كما تأمر الكتب ، احتراماً بالغاً . فهو يود لو يعطي ما تبقى من حياته في سبيل هنائهما ! ولا يفتأ يفكر في وسيلة تقرّب ما بينهما ، وتزيل اسباب الخصام . حتى باتت قضية ابويه شغله الشاغل . فهو ان فتح كتابه دارساً رأى صورة ابيه بين السطور ، او سمع امه : ذاك صاخباً شاتماً ، وهذه غاضبة باكية ... وعبثاً كانت محاولته نسيان ما ابواه فيه من عداء وكراهية ؛ فان ما يسيطر على « البيت » من كدر ، كان شبحاً اتبع له من ظله ، والصق به من ثيابه . يعكر عليه صفو الماء ان شرب ، ويظلم وجه السماء ان ناجاه ، على انفراد ، ويفسد النغم من تغريد الطيور ، ان راح يستمع اليه في بستان .

— « رحماك اللهم ... ماذا جنيت ؟ ما ذنبي ؟ اللهم اصلح امي وابي ! »

تلك صلاة كان يجأر بها ذلك اليافع في اليوم مرات عديدة ، متضرعاً الى الله ، بايمان وحرقة ، وهو لا يدري لهذه الاقدار التي تكتب الشقاء على الابرياء حكمة او سراً .

مسكين موسى ! لقد تألم وتحمل ما لا يطاق من جراء اختلاف ابيه وامه ! وهو ينتحل لذاك عذراً ، ولهذه اعذاراً ... انما لكل شيء نهاية ، حتى الحب والاحترام . فسرعان ما استحال حب موسى امه واباه اشفاقاً ، واحترامه اياهما رحمة . والشفقة بدء الاحتقار ، والرحمة من الوان الازدراء .

انها لجريمة ان يزدري المرء امه واباه ، وان يحتقر شأنهما . ولكن ...

– « يا ابني ! ان امك ... ناقصة ... وهي التي عاشت في وسط سفل حتى دانى الحضيض ... وهي التي لا علماً تعلمت ، ولا من ادب نالت حظاً ، ولا من ذكاء ضربت بنصيب : فبئست زوجة وبئست اما !

– يا ابني انَّ اباكَ رجل بذيء اللسان احمق ... شرير ... انه بئس الزوج ... وبئس الوالد ! »

وموسى يسحق قلبه الألم :

– « رحماك اللهم ! ايحسن بالابن ان يطلع على مساوىء ابويه ؟! »

وجاء يوم عزم فيه موسى امراً ... « سأتخلص من هذه الحياة ! » وراح يعد للموت عدته . فاقتطع من الحبل ، الذي تنشر عليه امه الغسيل ، قطعة ربطها الى أحد عمد السقف ، في « التختية » الواقعة فوق غرفة المؤنة . وكانت امه في المطبخ تهيء طعام المساء ، وابوه قائلا في غرفة النوم ، واخوانه الصغار يلعبون في صحن الدار ... ثم وقف على صندوق خشبي ، ووضع الحبل في عنقه ... وهمَّ بنفسه ، وهم الموت به ... ساعة فتح الباب الخارجي ، وتعالى صوت اسعد يناديه فرحاً مسروراً :

– « موسى ! موسى ! تعال انظر هذا الكلب الصغير ! »

وكأن ما في نبرات اسعد من مرح ، قد ايقظه من غمرة يأسه . فانتفض كمن يصحو من نوم عميق ، وقفز عن الصندوق بحركة عصبية ، كأنه يريد ان يقول :

– « لا ! لا ! ان الانتحار جبن ، والهرب من وجه المصاعب ضعف ! والحياة اكدار ، وسلسلة ويلات ، بدؤها في البطن ، وآخرها في اللحد ! »

ويهبط موسى السلم الخشبي ، واسعد ما برح يردد :

– « تعال يا موسى ! موسى اين انت ؟ »

فيبعث في اخيه املا ، اوشك ان يتحطم في قلبه الصغير ، ورغبة في الحياة ، كاد يفقدها على حداثة سنه !

انه كلب صغير جميل بوبره الجعدي الابيض الناصع ، وعينيه الصغيرتين ، كأنهما الثقبان في الجدار ، وذنبه القصير الاعوج ، يحركه دون انقطاع . ويتعالى صراخ الاولاد فرحين بهذا الكائن اللطيف ، يمثل الوداعة والانس والمرح . يقفز على هذا ، وينبح في وجه ذاك ، ويدور على نفسه طربا . ثم يقف على قائمتيه الخلفيتين ، مبصبصاً باستمرار .

وتسمع الام جلبة اولادها . فتخرج من المطبخ :

– « اي والله ! ما كان ينقصنا الا الكلب ! ما هذا ؟ من اتى به ؟ »

ويختبيء اسعد خلف اخوانه مذعوراً :

– « انت اتيت به يا اسعد ! ارجعه الى اصحابه ...

– ولكنني ... وجدته في الطريق ... جائعاً ، وليس له اصحاب ! مسكين !

– لا ! لا ! ... الكلب نجس ... لا يمكن ان يبقى في البيت .. نحن جماعة مؤمنون !

ويستيقظ الشيخ الصافي فيخرج بدوره :

– « لطيف هذا الكلب ... ! »

فيتنفس اسعد الصعداء ... سيبقى الكلب لهم ... وتعود الام الى الكلام :

— «اسعد ! قلت لك خذ الكلب واطرده ...»

فينظر الولد الى ابيه ، وفي كل جارحة من جوارحه رجاء صارخ بان يأذن ببقاء الكلب ... ويقرأ الشيخ مثل ذلك في عيني اخوته ... ثم اليس في استبقاء الكلب نكاية بامرأته ؟

— «لا بأس ! ابقوه لكم ... ولكن يجب ان يظل في الحديقة .. دائما !»

فتغضب سعاد وتزمجر :

— «انا لا اطيق الكلب .. في البيت .. اذا كنت انت بلادين ..»

ويغضب الشيخ بدوره :

— «ماذا تفهمين من الدين انت يا مسكينة ؟ ... ثم انا رب البيت! اصمتي يا امرأة ! ولا تتدخلي في ما لا يعنيك ... واذهبي الى شغلك !»

ويبلغ السرور بالاولاد حد الجنون ... فيقبل اسعد واخوانه على ابيهم يتعلقون بـه شاكرين ، وهو يبعدهم عنه راضيا مغيظا ، في وقت واحد ...

ثم يلتفت ، فاذا موسى قد اخذ الكلب بين يديه ، وراح يفليه ... فيقتل بعض البراغيث التي علقت بجسده ، والكلب راض مسرور . فينتهره الشيخ معلما :

— «لا ... يا ابني ! لا تقتل هذه الحشرات ! انها مفيدة للكلب .. جعلها الله في وبره لحكمة ... !»

فيترك الولد الكلب ، وهو لا يفقه كيف تفيد الحشرات كائناً كالكلب ، بينما هي تضر بالبشر وتؤذيهم !!

وهكذا بات في البيت موضوع جديد للخصام: دخل الكلب الى الدار، نبح الكلب ... شمَّ الكلب ثوبا منشوراً على الحبل ... ان كل ذلك مما لا يمكن ان تقبله سعاد، ومما لا يرى الشيخ فيه ما يستحق المؤاخـذة ... فريق الكلب نجس، وكذلك وبره اذا ابتل ... وفيما عدا ذلك فهو حيوان كغيره ... كالهرة التي تشرب واهل البيت في اناء واحد، وتأكل في صحن واحد ... بل ان الكلب افضل مـن كثير من الحيوانات، وكثير من البشر ... فهو ودود، وحسن الوفاء، مخلص في خدمة اسياده اخلاصا يفوق حد التصور ...

— « انه خير منك يا ناكرة الجميل! اطعمه لقمة، فيتمرغ في الـتراب بين قدمي، ويمحضني الود والوفاء ... بينما انت واهلك ... مـا برحتم تأكلون نعمتي جهراً و ... سراً ... وتعبدون غيري!

— نأكل سراً ... ان شاء الله يظهر عـلى بدنه ... كل من يأكل سراً ... او يسرق!

— انا ما ذكرت السرقة ... ولكن ... من في جنبه مسلة ... »

ثم ينشد الشيخ، وهو ينصرف غاضباً:

« كاد المريب ان يقول خذوني ... »

والواقع ان سعاد منذ ان احتدم الخصام بينها وبين زوجها، باتت لا تأكل الا ... سراً.

— « تفضلي ... يا ماما!

— ما عندي شاهية!»

ولكن ... لا يعيش الانسان في صحة تامة، اذا امتنع كسعاد عن

الاكل . لذا كان على خليل ، رابع اولاد الشيخ ، ان يراقبها ، وينقــل الى ابيه الخبر :

– « اكلت الماما ... اللحمة ، من الطنجرة ، وهي على النار ... »

وفي يوم آخر :

– « اخذت الماما ... اربع موزات ، من غرفة المؤونة ، وأكلتها قبل الغداء ... »

وفي يوم ثالث :

– « وضعت المــاما سمنا وسكراً ... في رغيف ، واكلته قبــل العشاء ... »

٢٨

وخليل قد بلغ السابعة من عمره ، منذ ايام . ومع ذلك، فهو لا يذهب الى المدرسة . لان الشيخ الصافي لا يحب ان يقصر حرية اولاده ، في حداثتهم وهو العليم بما يصيب الولد في الكتاتيب ،من ضغط ، وما يلقاه من العصا والفلق ... فضلا عما يتعرض له من اخطار خلقية ، بسبب دناءة بعض معلمي الصبيان ، وانحطاط خلقهم .

تراه فيخيل اليك انه ابن عشر سنين ، لا سبع لما تكتمل . فخليل ذكي ، جد نبيه . الا ترى عينيه ، وقد بدا الذكاء فيهما بريقا وحياة ؟ انه ابن ابيه ، والشيخ الصافي في الرجال ذكاء وقاد ، ونباهة وثابة . ولكنه ذكاء مزعج . والذكاء نقمة اذا لم تصقله التربية .

كان خليل رضيعا لسنوات خلت . فما كان يفتح فاه ، وكثيراًما يصرخ الاطفال ، حتى تركض امه اليه ، لهيفة مضطربة . اليس هذا الحيوان الصغير كبداً غالية ، الان والى ان يكبر ... ؟ اليس خليل هو الحبيب الصغير ، رغم وفرة ما في البيت من هؤلاء الاكباد ؟

يا طالما حملت سعاد طفلها ، كما كانت تحمل اخوانه من قبل ،على خاصرتها، ساعات طويلة ! تبتغي ان يهبها سكوته ،او يهب السكون بكاءه وصراخه . بل كثيراً ما كان خليل يأبى على امه ، وهو ابن اشهر معدودة ، ان تفارقه

الى تهيئة طعام او نفخ في نار ٠ فتضطر سعاد الى ان تطيع هذا الطفل العنيد ٠ او ان تحمله بيد ، وتعمل بيد ، ساعات طويلة ٠

مسكينة سعاد ! ومسكينات مثيلاتها من الامهات الشرقيات : انهن يتعبن انفسهن ، ويحملنها ما لا طاقة لهن به ، في سبيل ٠٠ افساد اطفالهن ٠٠ وما كان الشيخ باعلم من امرأته في اصول التربية ولا افقه ٠ فكثيراً ما صب على رأسها اللوم ، فضلا عن قارص الكلام ، لتباطئها عن تلبية نداء الوليد ٠ فهو يكره ان يسمع عويل الطفل ، ويتألم لصراخه ، ولو كان ذلك الصراخ في سبيل تكوين حنجرته واوتارها ، وتوسيع صدره ورياضة رئتيه ٠

ترعرع خليل ، وفصول هذه المهزلة الفاجعة — مهزلة ابيه يعنف امه من اجله ، وامه تخاصم اباه من اي اجل شيء . كان — تمثل امام باصرتيه ، صباح مساء ، وعلى مسمع منه ومن اخوانه ، في كل ساعــة ، وكل آن ، باصوات قد تتعالى احيانا ، فيسمعها الجيران ، بل عابروا السبيل ٠٠٠ وكثيراً ما توقف احد هؤلاء ، مستفسراً عن سبب هذا الصخب المتعالي من بيت الشيخ الصافي ، في الصباح الباكر او المساء البعيد ٠

وما بلغ خليل سن الكلام حتى بات يرسل رجاءه الى من حوله ، والى امه على الاخص ، امراً لا توسلا ٠ « فاريد ان اشرب ! » امر عسكري واجب التنفيذ ٠ « واريد ان آكل ! » ارادة شاهانية لا يجوز تأجيل العمل بمقتضاها ٠ ثم لمَ لا يعنف خليل امه كما يعنفها ابوه ؟ بل لمَ لا يضربها مؤدبا كما رأى اباه يفعل ، في بعض الاحيان ٠٠٠

وسعاد ساذجة ، تحسب الشتيمة ، تخرج من فم الطفل ، نغما عذبا يطربها ؛ وفي رفع الطفل يده مهدداً مزاحا تبسم له ، ثم تقبل تلك اليد ٠ وتجد في ضربة

كف يسددها الطفل الى وجهها ، في ساعة غضب ، تربيتة تلذها نومتها ...
وهكذا تجرأ خليل على شتم امه ، ثم على ضربها . وهل يحترم الولد اماً يحتقرها ابوه ... ؟ اما ان يطيع هذه الام ، او ينفذ لها امراً ، او يحقق رجاء ... فكان من المحال . بل اصبح خليل ، وقد بات ابن ثلاث سنوات او اربع ، يقابل اوامر امه بالهزء ، وطلباتها بالسخرية ..

والشيخ ، ماذا تخاله فاعلاً ، كلما راحت سعاد تشكو اليه سوء ادب هذا الشيطان الصغير ؟ انه كثيراً ما كان يهينها على مسمع من ابنه :

— « انك لا تدعين فرصة الا تنتهزينها ... للشكاية على هذا الطفل البريء ... وتعكير صفوه ... وصفو البيت ... ! »

بل كثيرا ما احتدم الجدال بين الزوج وزوجته ، على حساب خليل ، فتشاقا وتضاربا ... على مرأى منه ومسمع . ولكن الشيخ الصافي ، مع ذلك ، اب حكيم ، فهو لا ينفك يردد لابنه :

— « اطع امك ... يا بني ! واحترمها ، واحترم اباك ... »

فيعد الطفل ... بان لا يعود الى ذلك مرة ثانية .

وجاءت سعاد ذات مساء تشكو الى الشيخ ذنباً كبيراً اقترفه خليل :

— « انه اخذ ... بضع « ملبسات » كانت في الخزانة ... »

فكان عقاب الطفل سؤالا :

— « هل تعيدها مرة ثانية ؟

— لا ! يا بابا ! لا اعيدها « بقى ! »

وبرتقالة يقدمها الوالد الى ابنه ، ليأكلها « بكرة في النهار ! »

وكان ان وجد خليل ، بعد ايام ، اربعة متاليك ، في جيب ابيه . فاستحل

لنفسه نشلها وانفاقها . فكان قصاصه هذه المرة ... سكوتاً عن الجريمة ، خوفا من ان يتواقح ، ثم حلوى وفاكهة كثيرة ... ولكن خليلا شيطان حقاً ! انه يبدأ بتحدي ابيه . فينفد صبر الشيخ ويطفح كيله ، ويتدفق شتائم :

« يا كا ... يا ابن الكل ... لا رحم الله اباك ولا امك ... ! »

سباب صبه الشيخ على رأسه هو ورأس الام ، ونال الوليد من التهذيب ان تعلم بعض تعابير ، في الشتم الفصيح المعرب ... وعشاء سمين — اذ تناول خليل طعامه ، في ذاك المساء ، منفرداً — لانه غاضب على ابيه ...

وجاء يوم تساءل خليل فيه :

— « ولمَ اخاف ابي واحترمه ؟ »

وهو الذي يرى ذلك الوالد يشتبك دوما وامه ، بمواقع يتبادلان فيها اطلاق (القنابل) الضخمة ، والسباب ... ولمَ لا يجاوب اباه كما تفعل امه ؟ ولمَ لا يجادله وينازعه كما تجادله وتنازعه ؟ بل لمَ لا يعصي امره كما تعصي أمه أوامر أبيه ؟ بل ... لمَ لا يرد عليه الشتيمة ، كما تردها امه ، او يردها الشيخ على امرأته ... ؟

— « تعال يا خليل ... ونادِ أجير الفران !

— لا اريد !

— يا خليل ! لا تضج واهدأ ...

— انا حر ! !

— يا خليل ! لا تتدخل في ما لا يعنيك !

— ...

— يا خليل ! لا تتلفظ بألفاظ الزعران ! »

وخليل عن كل نصيحة أو أمر اصم ، يعيش على ذوقه ، حراً طليقاً ..
يخطر له ان يغني بصوته المزعج عند ساعة القيلولة ... فيفعل ، على الرغم من
التنبيه والزجر . ويدق الباب ، فيبدو لخليل ان لا يقوم لفتحه ... لتقم امه
او ابوه ! فيظل جالساً لا يتحرك .. فخليل شيطان ينمو ويكبر ، ويزداد
وقاحة واستهتاراً بكل سلطة . ولكنه يكتشف سبيلا لاسترضاء الشيخ ،
كل يوم ، على الرغم من وفرة ذنوبه ومخالفاته ، فيستدر عطفه ومكافآته :
وذلك بان يتجسس على امه ، وينقل اخبار تصرفاتها الى ابيه !

٢٩

في ذات مساء ، سمع الشيخ الصافي واهل بيته الباب يدق دقاً عنيفاً .

— « افتح يا خليل !

— ليقم اسعد . . . أنا اخاف !

— أنا أكتب فرضي . . . ليقم موسى !

— أنا اكتب فرضي أيضا ! »

فكان على الشيخ أن يفتح الباب بنفسه ، بعد أن أنهى صلاة العشاء ، وهو يتمتم غاضبا .

الطارق امرأة ، يتبعها ولد في مثل سن موسى .

— « أهنا بيت الشيخ الصافي ؟

— نعم ! تفضلي . . . »

وتدخل المرأة . فما تخطو بضع خطوات حتى تلتفت الى الشيخ متسائلة :

— « ولكن . . . اليس من . . . سيدات في البيت ؟

— بلى . . . ام موسى هنا . . . ستأتي اليك . . . »

ويتقدم الشيخ الضيفة المجهولة ، مناديا :

— « يا بنت . . . تعالي . . . هذه امرأة ! »

فتقوم سعاد متباطئة ، تتبعها ابنتها الوحيدة « المدلعة » هند ، وهي تحمل

آخر اولادها ، احمد الرضيع ، بيد ، وتجر بالثانية سادسهم عدنان . وتستقبل الضيفة بخشونة وجفاء ، على عادتها :

– « تفضلي يا سيدة ! »

فتدخل المرأة ، وتسفر . انها شابة حسناء ! تبرق في وجهها البيضاوي المشرق عينان ، ما ركّب مثلهما في وجه بشري . وما ان تجلس حتى تسمع ضجة تتعالى من الغرفة المجاورة ، حيث دخل ابنها وراء الشيخ :

– « بابا ... هذا سمير ! موسى ! جاء سمير ...

– اهلا وسهلا ... انا كنت انتظر مجيئك !

– موسى ... اسعد ! »

فتلتفت الضيفة الى امرأة الشيخ :

– « الاولاد تعارفوا في ت ... وظل ابني سمير يذكر رفيقيه المحروسين دائماً ، ويتمنى ان يزورهما ...

– انت ام سمير ؟ ... امرأة ابي سمير ؟

– نعم يا سيدتي ... »

وتتعارف المرأتان . وتحاول سعاد ان تشكر للضيفة غيرة زوجها ، في مبادرته الى اعادة ابنيها يوم هربا ، فتقول :

– « يا عيب الشوم ! لم يكن عندنا ليلة جاء زوجك سوى « مجدرة » ، فوضعت له شيئاً منها في رغيفين ... »

فتبتسم ام سمير وتجيب :

– « سلامة خيرك ! والله ابو سمير لا ينسى فضل هذه العيلة عليه ... مدى الحياة ! »

ثم بعد صمت ، تكون سعاد قد اعطت ابنها الرضيع ، في اثنائه ، ثديها ليمتصه :

— « جئت اليوم من ت ... وكان ابو سمير قد كتب الي هذا المكتوب من ... السجن ! »

وتخرج ام سمير من صدرها كتاباً تقدمه الى سعاد . فتأخذه هذه ثم تضعه جانباً . اما تلك فتنتظر وقتاً طويلا .. فلا تقرأ سعاد الكتاب ... فتتابع حديثها :

— « ... وطلب الي ان آتي الى ... هنا ، لارى ابا صلاح بك ... «سلفك» ... وارجو منه ان يسعى لتخليصه ... ولما كان سمير مشتاقاً الى موسى افندي واسعد افندي ، فقد حتم علي ان نزوركم اولا ، ثم ... »

ويقطع على ام سمير حديثها صوت الشيخ — وكان قد جلس في صحن الدار وحده تاركاً للاولاد ملء الحرية — فتسمع الى حديث المرأة عرضاً . انه يدخل الغرفة — بعد ان تنحنح عالياً — فتسرع ام سمير الى تحجيب وجهها ، وهي تقف اجلالاً للشيخ :

— « ولكن ... ما قصة زوجك ؟

— يا سيدي ... عندما كان عائداً من عندكم في الليل ، قبض عليه الدرك ... وما برح في السجن منذ ذلك الوقت ! »

وراحت تعيد على مسامع الشيخ ما قالته لزوجته . ثم دلته على الكتاب . فاخذه ، وحاول ان يقرأه على ضوء القنديل ...

اما سمير ورفاقه ، فقد جلسوا يتحدثون فرحين ، يضحكون لكل كلمة ، متناسين كل هم ، وكل عمل :

— « وذنب ! هذا اللعين ... ؟

— آه ! انه مرض بعد ان ضربناه .. ونام في المستشفى شهرين ... واخيراً عاد الى المدرسة ... وعاد الى اعماله السافلة !

— ولماذا يبقيه المدير ... وهو يعلم سوء خلقه ؟

— لا ادري ... ولكن بعض الاولاد الكبار يقولون ان المدير على شاكلته .. وهو نسيبه !

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك ، اخبروني ... الاولاد الكبار اجتمعوا ، وقرروا ان يدبروا له مكيدة ... ثم يقبضون عليه بالجرم المشهود ! وهكذا كان ... ولكنه استطاع ان يفلت من بين ايديهم ، بعد ان اشبعوه ضرباً ... فقفز من فوق الجدار وهرب . ثم في اليوم التالي ، جاء بكل وقاحة الى المدرسة .. كأن لم يكن شيء ! وماذا يهمه؟ ما دام المدير يغض الطرف عنه ، ويحميه ؟ »

فيجيب اسعد ، وقد لمع الغضب في عينيه :

— « آه لو كنت رجلا ... لخنقت هذا السافل اللعين ... ! »

ويحين وقت النوم . فتنام ام موسى واولادها الصغار الثلاثة ، وام سمير في غرفة ، على فراشين ، كما يرقد الشيخ وخليل في فراش ، وسمير وموسى واسعد على فراشين ، في الغرفة الثانية . وسرعان ما يغفي الشيخ ، ويغط في نومه . اما الاولاد ، فلم تجد عيونهم الى الكرى سبيلا . فظلوا يتحدثون همساً ، مدة طويلة .

— « هل قرأت ورقة وضعتها في جيب قبائك الذي اعدته لك ؟

– وهل اخذت قلم الرصاص الذي وضعته انا في جيب قبائك الثاني ؟ »
فيجيب سمير الاخوين :
– « معلوم ! الورقة عندي حتى الآن ، احفظها في كتاب الحساب ... والقلم اكتب به فروضي . انني احفظ ما كتبت لي يا موسى : « اخي سمير ! ليتك اخي عن صحيح ، بدلا من اسعد ! لانك رفيق ممتاز . اما اسعد فسعدان كبير ! »
فينتصب اسعد عاتباً :
– « انا سعدان ! انت قطة اذاً ! »
ويضحك الثلاثة بملء افواههم . ولكنهم يتذكرون انهم ليسوا وحدهم في الغرفة ، وان الوقت ليل . فيندمون على ما فعلوا ، ويصمتون ؛ وقد التحفوا الغطاء حتى رؤوسهم . فما تمضي دقائق حتى يغطوا ، بدورهم ، في نوم عميق هادي.

*

في الصباح ذهب الشيخ الى بيت اخيه ، تصحبه ضيفته الحسناء . اما ابنها سمير فقد رافق موسى واسعد الى المدرسة .
وما ان علم ابو صلاح بما كان من امر ابي سمير ، حتى سارع الى مرافقة اخيه الى السجن ، لمقابلة الرجل الوفي الودود ، ونجدته . وبقيت ام سمير الى قرب ام صلاح ، تحدثها تارة ، وتستمع الى حديثها المطرب حينا آخر ، حتى سلت همها ، ومصابها . بل ان حديث هذه السيدة ، التي تفرض على مخاطبها احترامها ، والاعجاب بها ، لينسي المرء نفسه . فتمضي الساعات دون ضجر او ملل . فهي امرأة بكل ما في المرأة من عذوبة ولطف ، وانوثة وبشاشة ،

وخلاق رضي . ولما قرب وقت الظهر ، تهيــأت ام سمير للانصراف ، فابت عليها ربة البيت ذلك :

– « تبقين عندنا ... الدار ، والحمد لله ، وسيعـة ... وعندنا غرفة خاصة بالضيوف . »

ثم تذكر ان لها ولداً :

– « اما ابنك ، فسأبعث الخادمة لاحضاره . لا تهتمي بامره ...! »

والواقع ان دار ابي صلاح جد فسيحة ... وهو الذي يحب من الدنيا ثلاثاً ، على حد قوله : « الدار الوسيعة ، والمرأة المطيعة ، والفرس السريعة ! » وقد حقق الله رغائبه كلها ، حتى من الخيل . فقد كان عنده فرسان سريعتان ، لا فرس واحدة ..

وعندما عاد ابو صلاح ، بعد الظهر ، استقبلته امرأته بلطفهــا المعتاد ، وانسها الفطري :

– « اهلاً وسهلاً بسيــدي ... عساك لم تتعب ! ما لي اراك مقطب الجبين ؟ كل شيء يهون في سبيل رضاك ! لا تتكدر من شيء ! »

فيبسم الرجل بعد العبوس ، ويشعر بأن كل ما على كتفيه من اعباء الحياة قد زال :

– « مسكين هذا الرجل ... ابو سمير ! انه متهم بجناية . لقد قابلت الحاكم .. على كل حال سأتولى الدفاع عنه !

– الله يجزيك خيراً ! انت ابو المساكين ... من لهم غيرك يا اباصلاح ؟ »

وتستبشر الضيفة ، عندما تعود اليها ربة البيت ، بخبر قبول زوجها الدفاع عن ابي سمير :

– « الله يبقيه لك ، ويبقي اولادك ... نحن ليس لنا غير الله وانتم ... سبق فضلكم علينا ... وعلى الناس . »

وتترقرق عيناها النجلاوان بالدمع ، فتبدوان افتن ما تكون اللحاظ واجمل .

لقد قبل ابو صلاح هذه المهمة العسيرة – لثبوت الجرم على المتهم – على الرغم من انشغال فكره بابنه صلاح الذي انقطعت اخباره منذ اشهر ، وعلى الرغم من اضطرابه على ولديه الآخرين المغتربين ايضاً في دمشق ، طلباً للعلم . قبل ابو صلاح الاضطلاع بهذه المهمة ، قياماً بواجب الانسانية ، نحو رجل لجأ اليه واستنصره ، وتوفية لما له ، عند اخيه وولديه ، من حق ومنة . ثم ان هذا المسكين لم يقع في قبضة العدالة الا بسبب اريحيته ، وقيامه بواجب انساني ! فلولا مجيئه بالولدين الضائعين ، لظل في مأمن من رجال الدرك ، ولما اضطر الى ان يطلق النار على احدهم فيجرحه ، تخلصاً من مطاردته .

*

جاء سمير ، فاستقبلته امه في النزل :

– « هل سررت في المدرسة ... اليوم ؟

– جداً ... فوسى واسعد رفيقان لطيفان ! انهما يحبانني كأخ ... »

ثم يردف الصبي بعد صمت قصير بهذه الامنية :

– « ليت لي اخاً مثلهما ... ! »

فتثير كلمات الولد في نفس امه ذكريات مؤلمة ، تضطرب لها . فقد حرمت المسكينة قرب زوجها منذ سنوات : انه مسافر تارة ، ومسجون طوراً ، وفار

من وجه العدالة تارة اخرى ... وهي تجاهد نفسها ، معتصمة بالصبر حيناً ، وبالتعلل احياناً ... وهي تحب ابا سمير . تحب فيه رجولته ، واخلاقه الرفيعة! فتهز رأسها الصغير الجميل ، كمن يطرد صوراً مزعجة تتراءى له ، وتسأل ابنها :

– « ماذا قال المعلم لك ؟

– لا شيء . ! انه رجل مسكين ! ولكن الغريب في امره يا امي انه يدعو على من لا ينتبه من التلامذة بقوله : « يعمَ قلبك ... » بدلا من ان يدعو له بتنوير بصيرته ... »

فتبتسم الام لملاحظة ابنها الصادقة . ثم تقوم واياه الى غرفة المائدة ، وقد رأت الخادمة تشير اليها من بعيد .

٣٠

غداً محاكمة ابي سمير . ومن غريب الصدف ان يأخذ ابو صلاح كتاباً من ابنه في ذلك اليوم — ذلك الكتاب الذي ينتظره واهل بيته ، منذ ثلاثة اشهر — فيصبح اشد قلقاً على صلاح منه قبل ورود الكتاب .

فصلاح : « مريض منذ فارقتكم . وقد اضطررت الى الشخوص للعاصمة طلباً للاستشفاء ... ولما لم استفد شيئاً محسوساً ، ذكر لي احد الاصحاب ان طبيباً ماهراً يقيم في ... سالونيك . فقصدت اليه . وكان عبثاً معالجته ، والخلاصة في التمريض ! فان الداء يزداد شدة يوماً بعد يوم . وقد نصح الي ذلك الطبيب ان اعود الى وطني فوراً ، لعلي اجد في ربوعه شفاء عز وجوده تحت سماء سواه !

« وقد اقتنعت بنصيحته . وطيرت امس استقالتي برقياً الى « الباب العالي » وارجو ان اكون عندكم بعد ثلاثة اسابيع ، ان شاء الله . هذا واني اقبل يديكم ، ويدي سيدتي الوالدة ... »

لقد كان النبأ هائلا ، والصدمة اقوى من ان يتحملها قلب اب ، يرى في صلاح امله الوحيد ، وقرة عينه ، وعماد بيته ، وقوام اسرته . ولكن ابا صلاح رجل يستطيع ان يتحمل صدمات الحياة ومصائبها ، بقلب يملؤه الايمان ، وعزم تشده الثقة بالنفس . فكتم الخبر ، حتى من زوجته ، وكان لا يكتمها امراً له صلة بالبيت والاسرة . بل حاول ان يكتمه من نفسه بتناسيه ، وهو

الذي يستعد للقيام بواجب انساني ، قبل الاضطلاع به مختارا ، ليخلص للمرة الثانية ،حياة رجل بريء ، تتضافر الظروف على اتهامه حيناً ، ويتواطأ البشر حينا آخر .

دخل ابو صلاح قاعة المحكمة بين اعجاب الاصدقاء - وهم كثر - وحقد الاخصام ، وهم كثر ايضا . جاء هؤلاء كما جاء اولئك ، ليستمعوا الى « الاستاذ » يدافع عن متهم، للمرة الاولى ، بعد اعتزاله الحكومة . فيستقبله الرئيس بابتسامة عريضة ، وسائر القضاة بنظرات فيها من الاحترام ما يبلغ حد التقديس . فهم تلامذته كاكثر المحامين ، يدرسون عليه ما غمض من اسرار الشرائع ، ويستشيرونه في تفسير ما ابهم من النصوص . ويرنو اليه ابو سمير بعينين فيها من الرجاء والامل مثل ما فيها من الانكسار والدعة .

ويتلو الكاتب مذكرة الاتهام :

« ... ولما كان محمد سمير النجار ... قد اطلق النار عمدا على رجال الامن ، وهو الفار من وجه العدالة ... ولما كان ... »

ثم تستمع المحكمة لاقوال الشهود : هذا دركي يتقدم بدعوة من الرئيس :

- « ضع يدك على المصحف ، واقسم بالله انك تقول الحق و ... »

فيقسم الدركي .

- « ما اسمك ، وما صنعتك ؟

- اسمي علي محمد الطرسوسي ... دركي في خدمة الدولة العلية ..

- ماذا تعلم عن قضية محمد سمير النجار ؟ »

فيجيب الدركي متلعثما :

- « كنت في المخفر ... ساعة سمعت طلقات ... نارية ...

— كم طلقة ؟

— طلقة واحدة »

فيحتد الرئيس على الشاهد ويقول :

— « ولماذا تقول طلقات ، بالجمع ؟

— سمعت طلقة يا سيدي ٠٠ ثم طلقة ثانية ٠ فخرجت لارى ما الخبر ٠٠ واذا بزميلي سلمان قادم على فرسه غاضبا ٠٠ فسألته ٠٠٠ فاجابني انه رأى فارسا مسرعا ، يتبع شعاب الجبل متخفيا ٠٠٠ امره بالوقوف ، فلم يقف ، فاطلق عليه النار ارهابا ، فقابله الرجل بالمثل ٠٠ .وهكذا ترى يا سيدي ان زميلي اخطأ ، كما قلت له اذ ذاك ٠٠٠ ما كان اغناه عن هذه «اللبكة ؟!»

فيغضب الرئيس هذه المرة ايضا ، ولكن غضبا ساخرا ، يخفف من شدته هزؤه ببساطة هذا الدركي :

— « ها ها ! هكذا تقوم انت بواجبك ؟ »

فيضحك القضاة ، ويضحك الحضور ٠

— « وبعد ذلك ؟

— هذا ما اعلمه يا سيدى ٠٠٠ لانني نمت في المساء ، وانا واقف ٠٠٠ اذ كنت خفيراً ! فلم اصح الا عند نصف الليل ٠٠٠ »

فيقهقه بعض الحضور ، ويسود القاعة لغط ٠٠٠ يضطر الرئيس معه الى ان يذكر الجمهور بواجبه في الصمت ٠

— « الشاهد الثاني ! »

انه دركي كالاول ، يؤدي شهادته — بعد حلف اليمين — فلا تختلف في جوهرها عما قاله الاول ، الا انه يزيد هذه الملاحظة بلهجته الحورانية الشديدة :

— « والله يا سيدنا الحاكم ! لو كنت انا محل « النجار » لما عـدت من الطريق نفسها ، فوقعت في الفخ . . . ! »

فيضحك الرئيس ويضحك سائر من في القاعة . وكأني بالحاكم يدرك فوراً انه اعطى الناس مثلا سيئا ، فيعود الى عبوسه المعتاد ويصرخ :

— « اذكركم للمرة الثانية بواجبكم في . . . الصمت والا . . . »

فيعود القضاة الى سابق رزانتهم ، ويصمت الجمهور صمتاً غـير تام . . . فهناك في زاوية القاعة الغربية رجلان مابرحا يضحكان ، وكل منهما لاه بالنظر الى رفيقه . وكأن الصمت ، وقد عمّ المكان ، بانقطاع الرئيس والشاهد عن الكلام ، قد اعاد الى صاحبينا وعيهما ؛ فالتفتا الى سدة القضـاة خجلين . واذا بالرئيس ينظر اليهما مغيظاً ، ويبتسم سائر من في القاعة . . .

ويدخل الشاهد الاخير — وكان الدركي الذي سبب الحادثة :

— « اسمي سلمان . . .

— هكذا « حاف » ! واسم ابيك ؟

— سلمان . . .

— سألتك مااسم ابيك !

— نعم يا سيدي ! سلمان !

— إذا انت سلمان على « طاقين » !! ولقبك ؟

— يوسف . . .

— يوسف ، هذا اسم وليس لقباً . . .

— محمد . . .

— وهذا اسم ايضاً ! ما هي شهرة عيلتك ؟

– السيد احمد علي ... »

وينفد صبر الرئيس ، ويصرخ :

– « فاذاً انت سلمان سلمان يوسف محمد السيد احمد علي ... يا للفظاعة ! اليس من لقب لك او شهرة ؟ »

فيضحك الجمهور ايضاً ... ويتسامح الرئيس ، فلا يهدد . ثم يتابع اسئلته :

– « طيب ! ماذا تعلم من قضية محمد سمير النجار ؟ »

فيجيب الدركي ، وقد اصطبغ وجهه خجلا :

– « ... وقبل نصف الليل ، سمعت وقع حوافر فرس تعدو ، قرب المخفر . فعلمت انه الرجل الذي رأيته في النهار واطلق علي النار ... فقمت وخرجت من الباب الخلفي ، حاملا بندقيتي ، واختبأت خلف صخرة ، تقع على جانب الطريق ... فلما بات الفارس بحيث يسمع صوتي ، صرخت فيه : « قف او اطلق النار ! » فما كان منه الا أن اعدى فرسه بسرعة جنونية ... فاطلقت عليه النار ! وما احسست الا رصاصة تصيبني في ذراعي ... لقد اصطدمت بالصخرة يا سيدي ، وارتدت الي فجرحتني ! ومع ذلك حملت الألم ، وامتطيت فرسي ، وتبعت الرجل . فما سرت بعيداً ، حتى وجدته جالساً تحت شجرة ...

– وماذا كان يفعل ؟ »

فيرتبك الشاهد ثم ...

– « كان ... يقضي حاجة ... !

– وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك ... صوبت اليه بندقيتي ، آمراً اياه بالوقوف والاستسلام

فيفعل ... وتقدمت لآخذ مسدسه منه ، فلم اجد معه سلاحاً ...

– اذاً باي شيء اطلق النار ؟

– لا ادري ... ولكن سمعت الطلقة يا سيدي الرئيس ... وُجرحت ! »

فيضحك الحضور لسذاجة الرجل ، وتضيع كلماته الاخيرة وسط الضجيج ...

ثم يعود الهدوء الى القاعة ، فيعلن الرئيس ان الكلام للنيابة العامة . فيقوم « المدعي العام » متثاقلا لبدانته ، ويلخص حوادث الجريمة وظروفها ، بما لا يخرج عما اعترف به المتهم نفسه ، وقرره الشهود . ثم يرتفع صوته ، حتى لتخرج الكلمات من فمه قنابل داوية ، لا مقاطع صائتة :

-- « ... هذا رجل يجرد السلاح ، ايها السادة ، في وجه رجال الامن ، ويطلق النار على جنود مولانا « خاقان البرين والبحرين ، ظل الله على الارض ... » فهو مجرم ... مجرم سفاك ... يستحق اشد العقاب . ولا سيما وانه من ذوي السوابق ، والسيرة المشبوهة . هذا مجرم ايها السادة ! يجب ان يتخلص من شروره المجتمع ، ضناً بسلامته ، ورغبة في تطهير بلاد الدولة العلية ... من امثاله من المفسدين ! لذا اطلب الحكم عليه بمنطوق المادة ... من قانون الجزاء الهمايوني ... وذيل المادة ... من القانون الصادر في ذي الحجة ١٣١٢ ... »

ثم يجلس النائب العام ، يضنيه صراع نفسي هائل : فهو لا يرى ذنب المتهم يستحق ما طلب له من عقاب ، ولكنه مضطر للقسوة عليه ، قياما

بواجبه ... فيلقى من ضميره اضعاف ما يلقاه المتهم من قسوته !

ويعلن الرئيس ان الكلام لوكيل الدفاع .

فينتصب « الاستاذ » واقفاً . وتشرئب الاعناق ، وترهف الآذان ، ويسود القاعة صمت لا يعكره سوى تردد الانفاس في الصدور . فالاستاذ خطيب مصقع ، ان عدّ الخطباء ، ومحام لبق ، ان ُصنف المحامون .

٣١

– « سيدي الرئيس ، حضرات القضاة !

انا لا اشاطر النيابة العامة رأيها في ماضي المتهم ونفسيته . ولا اشاطرها رغبتها في التشديد عليه ، وان كنت اعتقد معها ان محمداً النجار مجرم يستحق العقاب ... »

لم يسمع المتهم المسكين كلمة « مجرم » يتلفظ بها وكيله حتى انتفض في كرسيه ، كما فتح القضاة اعينهم عجباً ،وراح الحضور يتلفتون ذات اليمين وذات اليسار ، متسائلين عن مغزى كلام الاستاذ ومرماه ! ثم يتابع ابوصلاح كلامه ، بعد توقف مقصود :

– « لا يعرف واحد منكم ، ايها السادة ، هذا الرجل كما اعرفه ! لقد كان فلاحاً متواضعاً ، يعمل في قريته راضياً بما قسم له ، وينفق مايكسب بكدّ يمينه ، وما تغله قطعة ارض انتقلت اليه بالارث ، على عيلة مؤلفة من أم وأب مقعدين ، وامرأة وولد ... يوم جاءه زعيم معروف – كلكم يعرفه ، ويحترمه – وكلف موكلي قتل نسيب له ، ينازعه الزعامة ، ويناوئه احياناً ... هل تعلمون ماذا كان جواب هذا الفلاح المسكين لذلك الزعيم الكبير ؟

« انه اجابه ، يا سادة ... اجابه ، وهو على اشد ما يكون الرجل

الشريف اباء ، وثورة على الظلم : « ولمَ اقتله ؟ لا ! لا ! لن افعل ! »

ويصمت الاستاذ ، فتمتلىء القاعة باصوات الاعجاب ، يعلنه الجمهور :

— « آه ... حياه الله ... ! »

ثم يتابع ابو صلاح دفاعه ، وقد اعتدل القضاة في جلستهم ، وانصتوا له يصغون بكل جوارحهم :

— « وعبثاً حاول ذلك الزعيم حمل هذا الرجل الشريف على قتل خصمه .. وعبثاً أغراه ، وعبثاً هدده ... فقد أبى محمد النجار ان يقترف تلك الجريمة الشنعاء ... ولكن ! لم يحل اباؤه دون قتل المغدور ... قتلوه ، واتهموا بقتله هذا الرجل الماثل امامكم في قفص الاتهام .

« نعم ايها السادة ! لقد اتهموا موكلي بقتله ، واشتروا ضمائر بعض الناس ، كي يشهدوا عليه زوراً وبهتاناً ... ففعلوا . وتوافرت على ادانة محمد النجار الأدلة . ولكن ... ولكن المحكمة التي نظرت في دعواه ، ايها السادة ، تلك المحكمة اقتنعت ببراءته ، فاعلنتها ... وخرج الرجل موفور الكرامة ، ناصع الجبين ...

« ليس هذا كل شيء ، يا حضرة الرئيس ! لقد هجر محمد النجار قريته بعد ذلك ، وباع حقله ... تلك الارض التي سقاها ابوه وجده عرق الجبين ، وتعهدها هو صبياً وشاباً .. وانتقل بأهله الى مدينتك .. راضياً بالعيش غريباً .. وسط قوم لا يجد فيهم صديقاً او رفيقا ... مقتنعا بما يغله بستان ابتاع حصة فيه ، وبما تكسبه امرأته بدل اتعابها في خدمة الناس ، وفي خياطة بعض الاثواب لهم .

« لم يقف اللؤم بصاحبه عند هذا الحد المفجع .. فان الذي دعا موكلي

الى اقتراف جريمة القتل من قبل ، هو الذي اتهمه ، من بعد ، زوراً ، بالمتاجرة بالتبغ ... نعم ايها السادة ، وكيف يتجر بتهريب التبغ من يقضي ايامه في عمله ، لا يتصل بامري، غير شركائه — وكلهم رجل شريف — ولا يرتاد اسواق المدينة ... ؟

« ومع ذلك فقد حكمت عليه المحكمة بالسجن ، ثلاث سنوات ! عندئذ ثارت نفس محمد النجار الوديعة ... ثارت للبهتان والظلم . فهرب .. نعم ! هرب موكلي من السجن ... ولكن الى سجن اشد ، فرضه هو على نفسه : فكان لا يبرح البستان ابداً ...

« عندئذ اقترف محمد النجار جريمته الكبرى ... فقد حكم على ولده، بان يترك المدرسة لينصرف الى خدمة امه ورعايتها ...

« هذه هي جناية موكلي ايها السادة ! حرمانه ابنه من العلم، والتربية! هذه هي جريمته ... الاولى والاخيرة !

« ولكن ... ! من المذنب ؟ من هو المجرم الحقيقي؟ انكم تعتقدون معي ان المجرم هو ... ذلك الزعيم ... ذلك الظالم الذي لم تطله يد العدالة، لانه قوي ، والقوانين تحمي الاقوياء ... !

« لذلك ظل يسرح ويمرح ... ويقترف امثال جنايته هذه في قومه . وهو الذي يحسبهم عبيداً له وخولا ... ذاك هو المجرم ايها السادة ، لا موكلي المسكين !!

« انني لا احب ان افيض في وصف ما لقيه محمد النجار واهل بيته ، من نتائج تلك التهمة الباطلة ، التي شتتت شمل عيلة ، وكادت تقضي على مستقبل يافع ... وحاضر امرأة ورجل ... وانتقل الى الحادثة الاخيرة ، التي جاءت

بموكلي ، للمرة الثالثة ، الى قفص الاتهام ·

« كان الربيع الماضي ، وكانت الارض تبسم عن مظاهر الحياة تدب في كل حي ، يوم هرب من المنزل الابوي ولدان — لاسرة معروفة في هذه المدينة — أسيئت معاملتهما ، او حسبا ذلك كذلك ··· فسولت لهما نفساهما مغادرة ذلك المنزل ، الى مدينة ت ··· حيث يقيم محمدالنجار · ويريد الله، جلت قدرته ، ان لا يشقى الولدان ، وان تظهر للناس حقيقةموكلي ،وطيب نفسه ، وسامي خلقه ، فيلتقي الهاربين الصغيرين · وما ان يعلم حقيقة امرهما، وانهما يمتان بالنسب الى رجل ··· رجل طيب ! احسن اليه ، في ما مضى من ايامه ، حتى يسارع الى اعادتهما لأهلهما ، معززين مكرمين ·

« في الطريق يعترض الدركي لموكلي ··· فلا يرى محمد النجار في هذا الجندي الباسل !! غير خصم يقف حائلا بينه وبين القيام بعمل انساني يعده واجباً ··· واجباً يقضي به الشرف والوفاء ، وعرفان الجميل ··· »

ويصمت ابو صلاح تعباً · فتمتلىء القاعة بهمسات الاعجاب والرثاء ؛ الاعجاب بخلق هذا الرجل الطيب ، والرثاء لسوء حظه ، ونكد طالعه ··· ثم ينهي « الاستاذ » دفاعه وهو يضطرب :

— « ايها السادة : ان رجلا كمحمد النجار ، في نفسيته السامية ، وخلقه الرفيع ، وضميره الحي ، رجل لا يجرم ، او لا يتعمد الاجرام··· لذلك اطلب الرحمة له ، مناشداً ضمائركم الحية ، وقلوبكم الطيبة ! »

ويجلس « الاستاذ » وسط عاصفة من التصفيق ، اشترك فيها اصدقاؤه واخصامه ، وشاركت المحكمة فيها الجمهور ، باغضائها الطرف عن هذه المخالفة للأصول ···

وعندما عاد القضاة الى المنصة—بعد اختلائهم للمذاكرة ، دقائق معدودة— وقف الرئيس ، وقد زاح طربوشه (الحميدي) عن جبينه ، واشرق وجهه الابيض الوردي ، واعلن براءة المتهم من الدعويين— دعوى التهريب ، واطلاق النار على الدرك ، بقصد القتل— واخلاء سبيله فوراً ...

لم يصدق ابو سمير اذنيه ! ولكن بسمة الرضى على ثغر ابي صلاح ، وشعلة السرور في عينيه ، وانعتاق يديه هو من القيود .. كل ذلك اشعره بانه بات حراً طليقاً . فاقبل على « الاستاذ » يقبل يديه ، والدموع تنهمر من عينيه فرحاً ، كطفل ...

وفي بيت ابي صلاح ، نادى ابو سمير زوجته وابنه ، وامر الاولى بان تسفر ، قائلا لها ولولده :

— « هذا سيدنا ... هذا مولانا ... خلصت حياتي مرتين ، فانا اهبك ما تبقى من حياتي ! نحن جميعاً خدمك ، وخدم بيتك .. نحن لك مدى الحياة ! »

ويكب الزوج والزوجة على يدي ابي صلاح ، يقبلانها ؛ وسمير ينظر الى ذلك الرجل ، يتمثل الخلق الكريم في وجه المشرق النبيل ، باحترام واعجاب ؛ ويطفو على عسل عينيه الصغيرتين دمع عرفان الجميل ...

٣٢

ركب صلاح الباخرة ، وهو على آخر رمق من الحياة . فان ما اصابه من زحير طال امده ، قد هدّ قواه . لذلك لازم سريره . فلم يتمتع بما يتيسر للمسافر في البحر من سحر المناظر ، تتابع امام البصر تتابع الاحلام في مخيلة النائم ؛ وجمال الحياة ، ينهبها الناس على عجل ، ولذة التنقل . بل راح يستعرض حوادث امسه ، منذ ان فارق اهله الى مقر وظيفته — هذه الوظيفة التي كانت شؤماً عليه ، لشدة ما حسده الناس عليها — فيرى نفسه ، وقد امتطى الدابة متنقلا ، ودليله الحمّار ، من قرية الى مزرعة ، ومن قصبة الى دسكرة ؛ ينتشي بما اصابه من نعمة ، وما ينتظره هناك من جاه وسلطان ، على حداثة سنه . حتى حط الرحال في دمشق .

ولكن ما بال صلاح ينقبض صدره ، اذ يشرف على عاصمة بني امية؟ ان كل ما في دمشق من انهار تحوّل تلك البقعة من الصحراء الى واحة ، تتفيأ خضرتها اعظم مدينة في سوريا ؛ وناس تقرأ اللطف في بشاشة وجوههم ، والدعة في قسماتها ؛ ومساكن يبهر عينيك بياضها الناصع ، ومساجد تناطح السحاب مآذنها الاسطوانيـة ... كل ما في دمشق يبعث الانشراح في الصـدور ، والطمأنينة في النفوس . ولكن صلاحاً يضطرب اذ تبدو له زمردة البادية ، في زينتها البديعة ، ايام الربيع ، ويضيق صدره . فلا يطربه خرير المياه ، تنساب

هنا وهناك وهنالك · ولا تسره الخضرة ، تكللها الازهار بتيجان تعبق وتملأ الانوف ، وتسكر النفوس · ولا يستهويه الحسن ، يستجدي الحب ، في وجوه النساء ، كما يصرخ ويفتن في كل شيء · · ·

وهذه الفتاة الحسناء ؟ ابنة صاحب الفندق الذي نزل فيه — انها تدخل عليه غرفته ، بعيد العشاء ، وتأخذ بتحديثه حديثاً فيه كل الاغراء :

— « انا ما « غادرة » على النوم · · · جئت اسليك · · ·

— اهلا وسهلا · · · ولكن · · ·

— نامت امي · · · والجميع ! »

قالت هذا ، وهي تغمز بعينيها السوداوين غمزات ، يخيل اليك معها انك حيال امرأة في الثلاثين ، لا فتاة دون الرابعة عشرة · ثم تستطرد بدلال :

— « انت من بيروت « يامو » · · · ؟ انا احب « البوارتـــة » !

فيبتسم صلاح ، وهو ينظر الى هذه الفتاة الوقحة ، بدهشة الشاب العفيف ، واستغراب الرجل لم يخبر المرأة · وتجلس هي على الديوان الى قربه ، وهي تتابع حديثها ، مبتسمة عن ثغر شهواني :

— « كنت صغيرة · · · لا اعرف شيئاً يوم زوجوني · · · »

فلم يتمالك صلاح عن ان يقفز من مكانه متعجباً :

— « انت تزوجت · · · ؟ في هذه السن !

— زوجوني منذ خمس سنوات « يامو » · · · كنت طفلة صغيرة · · · ثم مات زوجي بعد ثلاثة اشهر · فتزوجت غيره · · · عجوز هذه المرة ! امـا في المرة الاولى فكان شابا في الرابعة عشرة · · · ! انت اعزب يا « بي » ؟ »

فيجيب صلاح بلهجة الذاهل ، وقد استدارت عيناه وسُمر في مكانه :

— « اعزب ...

— احسن ! »

فينتبه الشاب عندئذ ، وينظر الى الفتاة ، فاذا بها تبسم ابتسامة ودَّ لو يشربها على ثغرها الساحر ، وفي عينيها النديتين !

كانت الفتاة اشد جرأة منه . فتقدمت بحيث باتت تلاصقه، وهي تحدجه بنظرات تذبلها شهوة تنبعث من جوارح الفتاة وسائر جسدها ، كما ينبعث الاريج من الزهرة تتفتق ! و ... يطرق الباب . فيهب صلاح مذعورا . ولكن الفتاة تستجمع مشاعرها، وتشير اليه ان احمل الشمعة وتقدم ؛ وتختبيء هي تحت السرير .

فتح صلاح الباب وهو يرتجف رعباً ... فاذا هو البغّال :

— « مساء الخير سيدي ! لا تؤاخذوني سيدي . ازعجتكم سيدي .. لم تعينوا لي موعد سفركم سيدي ... »

فيتنفس صلاح الصعداء ... ثم يلتفت الى الوراء ، ليتأكد من ان الفتاة لا تُرى ، ويقول :

— « بعد غد في الصباح الباكر ... بعد صلاة الفجر ! »

وينصرف الرجل « امرك سيدي ! » ويقفل الشاب الباب . ولكن اين الفتاة ؟ انه يبحث عنها في كل مكان : في الخزانة ، ووراء الديوان ، وخلف الكرسي ... انها تخرج من تحت السرير ، وهي تضحك ضحكة عالية :

— « ها ... اين كنت ؟ »

ويتطلع صلاح اليها ، فاذا ثوبها قد حلّت ازراره عند الصدر ، وانزلق عند اسفل الورك ، فيشعر بالدم يغلي في عروقه ، وبقلبه يتعالى وجيبه ، حتى ليسمعه

باذنيه . وتلحظ الفتاة ان نظرات الشاب مصوبة الى صدرها وفخذها . فتنظر هي بدورها الى ذينك الكثرين . حتى اذا رأتهما عاريين ، سترت هذا بيد ، وذاك بيد ، يصبغ الحياء وجهها بحمرة زادته فتنة واغراء . ثم تقول :

— « من جاء ؟

— رجل ... البقال الذي ...

— ولماذا البقال .. ؟ ألست تقيم هنا « يامو » ؟ سمعت امي تقول انك عينت حاكماً ... !

— نعم ... ولكن في « الجزيرة » ... ويجب ان اسافر ... »

فتهز الفتاة رأسها حائرة ، ثم تقف مترددة ... وصلاح الحيي صامت ، ينظر اليها خلسة كالمذنب ، ويسود الغرفة صمت رهيب . ثم تخرج كما دخلت ، دون استئذان . فلا يراها صلاح بعد ذلك الا في مخيلته ...

مرّ كل ذلك في لحظة واحدة امام بصر صلاح ، وهو مستلق على فراشه . فما بعثت هذه الذكرى في نفسه شيئاً مما كانت تبعثه من قبل . فان مرضه الطويل قد اضعف اعصابه ، وهد قواه .

البحر هادىء مصقول . فيفتح صلاح كوة غرفته ، ويستنشق النسيم يهب طاهراً ندياً ، بل يعبه حتى تمتلىء به رئتاه ، وهو يداعب شعره الكستنائي المجعد . فيذكر رياح « الجزيرة » واعاصيرها تعصف هوجاء ، حاملة الغبار لتسفو به عيون الناس وتصفع وجوههم . وعبثاً يحاول المرء الهرب ، فيقفل النوافذ والابواب ، والمنافذ . فان الغبار يدخل البيوت من ادق الشقوق ، ليعمي الابصار ، ويسد الانوف ، ويجفف الحلوق .

ثم اين هذه الرطوبة المنعشة ، تملأ الصدر بعطرها الطبيعي ، من ذلك

الجفاف الخانق ؟ واين زرقة المياه يسبح فيها البصر قريراً ، من صفرة الرمال، ترده وهو كايل ؟ وأين هذه الآفاق ، تنبسط امام العين الى اللانهاية ، من كثبان تحول دون امتداد البصر الى الافق القريب ؟ حقاً ان ابن الساحل كالسمك لا يعيش الا في بيئته ، ولا يجد للجمال معنى في سواها ٠

هذا طائر ابيض يرتفع في الفضاء ، تكتنفه الزرقة من كل ناحية ٠ انه يصفق بجناحيه حيناً ، ويحلق حيناً آخر ، ثم ينقض على المياه انقضاض النيزك ٠ وهذا سرب من الطير ، تزحف فوق سطح البحر متراصة ، كأنها اشرعة المراكب عند الافق ٠

لقد باتت الباخرة على مقربة من شواطىء الوطن — هذا الوطن الذي ما برح صلاح ، منذ فارقه ، يردد فيه مثل قول الشاعر :

« وطني ! لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني اليه ، في الخلد ، نفسي ! »

فيحس بالقوة تسري الى جسده النحيل ، وبالنشاط يدب في اعصابه المنهوكة ٠ ويشعر بقلبه يشتد خفقانه ، وبدمه يتدفق غزيراً في اوردته وشرايينه ٠ بل ان شيئاً غريباً ، لا تصوره الكلمات ، يملأ ذلك القلب ، ويفعم النفس سروراً ، يطفح على الوجه ابتساماً ، ويتدفق من العينين دمعاً ! فيخرج صلاح من تلك الغرفة الضيقة ، التي حبس نفسه فيها خمسة عشر يوماً ، الى ظهر السفينة ، يستنشق ريح الوطن ، ويكحل العينين بمناظر شواطئه الفاتنة ، وجباله الشامخة ، تبدو وراء المياه كأنها الواحة وسط الصحراء ٠

٣٣

يلتفت صلاح ، فاذا فتاة رائعة الجمال ، تنظر اليه ، وابتسامة ناعمة تزين وجهها البيضاوي الازهر · انها تتأمل هذا الشاب النحيل العذب ، وقد ذهل في مناجاته عن كل ما يحيط به · فاذا رنا اليها ، اصطبغت وجنتاها بسحابة من الخجل ، دون ان تشيح بوجهها عنه·

— « اهذا ملاك افلت من السماء ، ام حورية هبطت الى الارض ؟»

ويديم صلاح النظر الى هذا الوجه الجميـــل ، يعلو به جسد ما تمثلت الانوثة في مادة اشهى منه وافتن · وتديم الفتاة النظر الى هذا الشاب الذي تكسبه الثقافة رجولة تستميل قلوب الحسان · واخـــيراً يعود الشابان الى نفسيهما ، وتبدأ الفتاة حديثاً بلغتها التركية ، وهي تتقدم من صلاح ، كمـــا اخذ يتقدم منها :

— « انت من هذه البلاد التي نواجهها يا سيدي ؟

— نعم يا آنسة · · ·

— آه انها جميلة حقاً ! انها زمردة خضراء فاتنة ! »

ويخطر ببال صلاح ان يجيب الفتاة بكلام عذب ، يعبر عما شعر بـــه اذ رآها ، كهذه الجملة : « انها جميلة مثلك ! » او كهذه : « انت ترينهـــا كذلك لانك جميلة فتانة » ولكن حياءه الذي يبلغ حد الجبن حيال النساء ،

حال بينه وبين التلفظ بهذه الكلمات ؛ فاكتفى بان يتمتم ، بعد هنيهة غير قصيرة ، وجهد عسير :

— « مثلك ! »

والفتاة تنظر الى الافق ذاهلة ، ساعة طرقت سمعها تلك الكلمة ، تخرج من بين شفتي الشاب مضطربة حيية . فالتفتت اليه مشرقة الوجه ، بسامة العينين ، ندية الثغر ، وقالت :

— « اصحيح ما تقول ؟

— نعم يا آنسة ! فانت اجمل فتاة رأيتها في حياتي ! »

ويتعارف الشابان . ثم يقص كل منهما على الآخر سيرة حياته الماضية . فاذا « اوزجان » — وهذا اسمها — ابنة عظيم من عظماء العاصمة ، له نفوذه الواسع ، وجاهه الكبير ، ومنزلته الرفيعة في البلاط ، وفي « الباب العالي » . واذا هي تقدم هذه البلاد ، برفقة امها وخادمين — أمة ومملوك — تقضاء ايام ، ثم تعودان الى الاستانة ، عن طريق مصر وايتاليا .

الباخرة تقترب من اليابسة ، والظلمة تزحف من ورائها ، ناشرة على الكون حجاباً رقيقاً يكسب الاشياء معنى غريباً ، كان ينقبض له صدر صلاح . اما اليوم فانه يجد كل ما يحيط به ضاحكاً فاتناً . حتى الظلمة المنتشرة كانت تبسم في عينيه . ولكم تمنى ان تبعد اليابسة ، او تبطيء السفينة في سيرها ! فيطول اجتماعه الى هذه التي فتحت عيناها الخضراوان قلبه لعاطفة لم يخفق بها من قبل ، ولم يشعر بمثلها منذ بلغ مبلغ الرجال !

ليلة واحدة ، وفي صباحها سيودع هذا الحلم الاخضر الى الابد ! ؟ لا ان هذا لايطاق !

— « باي فندق ستنزلين يا اوزجان هانم ؟

— في ... « ميتروبول » ! ان شركة الملاحة استأجرت لنا جناحاً خاصاً ... وانت ؟

— بالطبع حيث تنزلين ! » .

فتبتسم الفتاة ، ثم تردف بهذه الكلمات :

— «لا ... افضل ان تنزل فندقاً آخر ... »

وكان يود صلاح ان يسألها عن السبب ... ولكنه عاد فصمت . أليس وراء رغبتها هذه عاطفة تشبه عاطفته ؟

نام الشاب تلك الليلة ، بعد ان ودع الفتاة ، قبيل غروب القمر ، وداعاً ود لو يدوم مدى الحياة . فقد وضع يده المرتعشة في يدها الساحرة — وقد خيل اليه انها ترتعش — دقيقة او بعض دقيقة ، وهو يضغط عليها — فيخيل اليه انها تضغط بدورها على يده . فكانت ليلة مليئة بالاحلام الذهبية ، واللذائذ البريئة . وفي الصباح غادر الشابان السفينة الى اليابسة ، في قارب واحد ؛ يحاذر احدهما ان يشعر الناس بما في صدره نحو صاحبه . فتنظر اوزجان الى صلاح من خلف حجابها الرقيق خلسة ، كما ينظر اليها على عجل . وكل منهما يود لو يعلن ذلك الحب ، ويشهد عليه السماء والارض ، وماضمتا .

في اليوم الثاني ارتدى صلاح احسن ثيابه ، وتزين اكمل زينة : فقص شعره ، وحلق لحيته ، وذهب الى فندق « ميتروبول » ... ليرى تلك التي وقعت من نفسه موقع الندى من العشبة العطشى . فلم يوفق ، اذ كانت اوزجان قد غادرت وحاشيتها الفندق الى نزهة في الضاحية . فعاد ادراجه ينعقد الفشل بين عينيه عبوسا ، لم يتعوده وجهه الطلق . ونام تلك الليلة ،

يحلم بمعبودته ، نوماً قلقاً ...

وفي صباح اليوم الثالث – وكان صلاح يستعد للخروج الى الشارع – رأى عبداً ، يكاد رأسه يناطح رتاج الباب ، يتقدم نحو غرفته ، – وراء الفندقي البدين الاشقر – وقد احدودب ظهره ، وانطفأ في عينيه شرر الرجولة ، ووهج الحياة . فعرف صلاح فيه مملوك اوزجان المعبودة .

– « اسعدت صباحاً يا سيدي « البك ! »

فيجيبه صلاح بلغته التركية :

– « صباحك سعيد ! تفضل ... »

ويحاول العبد ان يعتذر :

– « استغفر الله ! اقف بين يديك ... »

فيجلس صلاح ، آمراً العبد بالجلوس ، فيفعل خجلا ، ويقعد على طرف الكرسي ، قلقاً حائراً ...

– « ما الذي جاء بك الينا ؟ »

فيضحك العبد عن اسنان يخيل اليك انها لئالىء بيضاء ؛ ثم تنفرج شفتاه الضخمتان عن هذه الكلمات :

– « مولاتي ... اوزجان هانم ... تقرئك السلام ! »

فما يصل هذا الاسم الحبيب الى اذن صلاح حتى يعتدل في جلسته ، ويصطبغ خداه النحيلان الاسمران بحمرة مزيج من الفرح والخجل :

– « وعليكم السلام ... كيف حالها ؟ »

ثم مستدركاً :

– « وحال امها ؟

– انها بخير ياسيدي ! »

ويصمت العبد كالذاهل ، لايتحرك فيه حتى اهداب عينيه الحمراوين . ثم يقول :

– « مولاتي ... تحب ان تقابل سيدي ... اليوم ! »

فيكاد السرور يستخف صلاحاً ، ويخرجه عن رصانته المعتادة . الا انه يضبط شعوره ، ويأخذ بزمام نفسه :

– « متى ؟ واين ؟

– حيث يريد سيدي ! »

ويفكر صلاح طويلا : « اين ؟ هنا في الفندق ؟ ليس ذلك ممكناً ! وقد لاتجد اوزجان لائقاً دخولها مكاناً كفندق ... « كوكب الشرق».. لمقابلة رجل ! اذاً في الفندق الذي نزلته ! لا لا ! واما ؟ » ثم يقرر ان يكون اللقاء :

– « في رأس بيروت ... قرب المدرسة الامريكية ... الساعة العاشرة ... »

وينصرف الخصي ، بعد الاستئذان وأجراء مراسيم العبودية ، يمشي القهقرى ، حتى يخرج من الغرفة ... ويجلس صلاح يعد الدقائق التي تفصله عن لقاء معبودته ، مراقباً نفسه في مرآة تقع حياله . حتى اذا انتقل بفكره الى المكان المعين ، والتقى الحبيبة الفاتنة ، وقبلها في ثغرها البسام قبلة اودعها كل ما في قلبه... شعر باعصابه تتوتر ، وبقلبه يخفق خفقان المحموم . فقام يذرع الغرفة طولا وعرضاً ، ناسياً انه لما يذق في ذلك النهار طعاماً ، وانه اكثر من « تدخين » اللفائف ، قبل ان يدخل جوفه شيئاً . عندئذ

سارع الى السوق ، فتناول بعض الحلوى ، ثم امتطى عربة حملته الى المكان الذي سيشهد اول حبيب ، شغله حتى عن الصلاة في اوقاتها .

لم يبق بينه وبين الموعد الا دقائق ، ولكنها دقائق طويلة ، بطيئة ؛ خيل اليه انها ساعة او بعض ساعة . هذه عربة قادمة . انها عربتها هي ... ويتطلعها صلاح بكل ما أوتي من قوة وانتباه ... لا ! ... هذا سعيد بك ، رفيق زمن الدراسة في القاهرة .

— « صلاح ماذا تفعل هنا ؟ »

ويأمر الرجل السائق بالوقوف ، ثم يترجل . فيتعانق الشابان عناقاً حاراً . فالرفاقة من اقدس الروابط ومن امتنها .

— « انا مشتاق اليك ، ماذا تفعل اليوم ؟

— وانا كذلك ! وانت ماذا تفعل ؟

— انني موظف في قلم الولاية... وموعود بقائمقامية في القريب العاجل ! ولكن يا اخي ... انهم يطلبون لذلك ثمناً باهظاً ... ثلاثة آلاف ليرة ... ! »

ويسرد صلاح لرفيقه القديم قصته باقتضاب ، منذ تعيينه حاكماً للجزيرة حتى استقالته وعودته مريضاً ، بعد عجز الاطباء عن مداواته ... وهو شارد الفكر ، يتلفت نحو الطريق التي يأمل ان تأتي منها الحبيبة ... وجلا ، مضطرباً .

— « اتريد ان اوصلك ... الى مكان في عربتي ؟

— لا لا ... شكراً ! انتظر هنا عربة تمر ...

— هذا صعب ... دعني اوصلك الى حيث تريد ...

— انا شاكر جداً ... »

وتمر عربة فارغة :

— « اذاً خذ هذه العربة !

— طيب ! الى اللقاء !

— متى تريد ان نلتقي ؟

— سأزورك في الدائرة ... الى اللقاء ! »

ويخطو صلاح بضع خطوات نحو العربة المارة ، مستوقفاً السائق باشارة من يده ، وهو يتلفت ليتأكد من ان سعيد بك قد رحل .

— « أمر يا بك ؟ الى اين تأمر ؟

— لا لا ! اريد ان اسألك عن بيت ... يوسف بك ... هنا ... اين يكون ؟ »

فينظر السائق الى الشاب مغيظاً ، ثم ينتصب واقفاً ويأخذ بزمام حصانيه يحثها على السير ، وهو يتمتم بكلمات لم يفهمها صلاح ، وانما خيل اليه انها الفاظ بذيئة، وشتائم قذرة .

ويتنفس صاحبنا الصعداء ، وهو ينظر الى ساعته : انها العاشرة . وهذه ساعة المدرسة الكبيرة تدق ايضاً . ولكن صلاحاً لم يكن واثقاً : فقد تكون ساعته غير مضبوطة ! لذا اخذ يعد الدقات على اصابع يديه . حقاً انها الساعة العاشرة .

— « فلمَ لم تأتِ ؟ ايكون ذاك العبد الخصي قد ضحك علي ؟ أأرسلته هي لتهزأ مني ؟ ام اصابها مكروه ؟ »

لم تكد هذه الفكرة تعرو خاطر صلاح ، حتى اضطرب ، وشعر كأن

الارض تقشعر تحت قدميه . الا ان جزعه لم يطل . فقد اقبلت من بعيد عربة تنهب الارض نهباً ، يجلس قرب سائقها ذلك العبد الاسود ، ويبدو من خلفه طرف ثوب نسائي ، عرف صلاح فيه ثوب اوزجان نفسه ، الذي كانت ترتديه ساعة فارقها اول امس ، عند رصيف المرفأ .

هذه هي العربة تقف ، ويطل عليه الوجه الحبيب ، يبسم خلف حجابه الشفاف ، ويدعوه الى الصعود ، والجلوس بقربه . فيستجيب صلاح الدعوة ، وقلبه يجب وجيباً يهزه ، حتى ليكاد يسمع خفقاته- على الرغم من جلبة الدواليب ، ووقع حوافر الخيل ، على الشارع المبلط . وتنقضي ثوان قبل ان يعود الى صلاح هدوءه . ثم ينظر الى الفتاة خلسة ، فاذا بوجهها قد اصطبغ دماً ، واذا بصدرها البارز يعلو ويهبط ، بحركة سريعة ، كمن يلهث تعباً . فاستجمع الشاب كل ما في نفسه من جرأة ، واخذ يد الفتاة العاجية ، وضغط عليها بقوة . فالتفتت اليه ، وفي عينيها كل ما اودعت حواء من انوثة ، وخفر وفتنة ... وهي تضغط بدورها على يده ، وترتعش شفتاها تحت النقاب ارتعاش الزهرة ، يرويها ماء يتدفق فجأة في العروق :

— « احبك يا انسان عيني !

— وانا احبك يا روحي ! »

ولقد تمنى الشابان لو انهما في منجى من اعين الرقباء !

ولكن ... هذا العبد ، وهذا السائق ... والمارة ... ! — وان ندروا في هذه الناحية من رأس بيروت — فكل ما كان يحيط بالعاشقين يستثير النفس ، ويهز القلب : فالبحر تعانق الامواج صخوره ، وتغمرها مقهقهة مرحة ؛ والسماء تبسم عن زرقتها الممزوجة بالغمام المتقطع ، والنسيم يهب

معنبراً فاتراً يلهب الدماء ؛ والنماء يكسو بخضرتـه كل شيء حتى الحجارة والجدران ؛ واشعـة الشمس تداعب الكون حيناً ثم تحتجب حيناً آخر ، لتعود اشد وهجاً واكثر غنجاً ... والعربة تجري رخاء ، تهزهز العاشقين ، فيميل احدهما على الآخر ، فيعتذر ، وبوده لو يحمل صاحبه في صدره !

هذه هي الصخرة (الروشة) ! فيترجـل العاشقان ، وينتحيان مكاناً يقفان فيه ، ليمتعا الطرف بمنظرها البديع . انها اشبه ما تكون بمارد غاص في البحر حتى صدره ، ووقف ويداه خلف ظهره ، ينظر الى المـاء صامتاً متأملاً . وهذه الاعشاب التي تكلل راس الصخرة ، في هذا الفصل ، كأنها العمامة الخضراء !

— « الا ترين يا اوزجان ، ان هـذه الصخرة ترمز الى حبنا : نشأ في البحر قوياً ، وكالله الامل ! ... فكان موفقاً متبادلا ؟ »

فتطرب الفتاة للكلمات ، تنفرج عنهـا شفتا الشاب بياناً حيياً ، وترتمي على صدره ، نشوى ... فيأخذها صلاح بين ذراعيه ، ويطبع على شفتيها النديتين بقبلة كانت اولى قبلاته واروعها ... متناسياً ان هناك ، على قيد خطوات ، عيونا اربعاً تسترق النظر اليه ، والى صاحبته . الا ان المملوك امين مخلص ، يعلم ما يجب على العبد نحو سيده — او سيدته — في مثل هـذه الظروف ! فيمسك بيد السائق مبتعداً بـه ، ويتركان ذينك العاشقين في امان .

ويرنو احدهما الى الآخر لحظـة ، يغشي الحب بصريهما بسحابة الشهوة الجامحة ، ثم يعودان الى عناق يندمجان فيه ، كما تندمج الغمامة في الغمامة ، وكل يعب ريق صاحبه عباً .

ويلتقي العاشقان في اليوم التـالي ، في المكان نفسه ، كما يجتمعان في اليوم الثالث والرابع ، يتناجيان حينا ، ويتعانقان حينا آخر .

– « متى نتزوج يا اوزجان ؟

– يوم تريد يا صلاح ... ولكن ! »

فيضطرب صلاح (لولكن) هذه . فتطمئنه اوزجان ببسمة من عينيها الخضراوين ، وتلقي رأسها الاشقر في صدره ، وهي تتمتم :

– « الماما ... »

فيتنهد صلاح ، وقد سُرّي عنه :

– « آه ! »

ثم بعد صمت وجيز :

– « ولكن ! انت راضية ؟

– انت روحي يا صلاح !

– اذاً انا اقنع ... الماما ! »

فترنو اليه اوزجان حالمة ، وتقول عابثة :

– « تسحرها كما سحرتني ! »

ويضحك العاشقان ، ويتعانقان . ثم تقول الفتاة وفمها فوق فمه :

– « انا ... اكلمها الليلة اولا ... ثم تأتي انت غـداً ، واقدمك اليها ... اتريد ؟

– لك ما تريدين يا حبيبتي ! »

٣٤

لم ينم صلاح من تلك الليلة الا ساعات . فقضاها ، كالليالي الاربع المنصرمة ، في شبه يقظة ، يدبها طيف اوزجان الفاتنة ، وذكريات نهاراته الرائعة ، منذ ليلة الباخرة ، ولقاء هذا الملاك .

وفي الموعد المعين ذهب صلاح الى فندق « ميتروبول » يحدوه الامل ، ويستخفه الشوق . فما كان اشد عجبه ساعة استقبلته ، في الردهة الخاصة ، ام اوزجان لا معبودته !

انها امرأة دون الخمسين ، وان بدت في خفة حركاتها دون تلك السن . ولكنها تستقبل الشاب بجفاء مصطنع ، عبوس المحيا ، مقطبة الجبين . ومع ذلك فهي لاتنسى ما تفرضه اللياقة ، وما يقضي به الادب :

— « هل لك حاجة ، يا سيدي ... «البك» الصغير ؟»

فيرتبك الشاب حتى ليتلعثم . الا ان حركة في الغرفة المجاورة ، وجد فيها ريح اوزجان الحبيبة ، تحمل الى نفسه الاطمئنان والجرأة ، فيبتسم ، ويقول بلهجة تركية رائعة :

— « تعرفت الى الآنسة اوزجان هانم ... فاحببت ان اتعرف الى ام هذا الملاك البشري ! »

فتنظر السيدة الى هذا الشاب الفصيح اللسان ، العذب المحيا ، معجبة ،

ولكن دون ان تبسم . ثم تقول متهكمة :
— « شكراً يا سيدي ! وكيف وجدت الام ؟ »
فتبرق عينا صلاح حتى لتشعا نوراً :
— « الطف امرأة ... رأيتها في حياتي ! »

عند هذا تبتسم ام اوزجان راضية ، وتنبسط اساريرها ، فتبدو جميلة في عيني العاشق ، عذبة على الرغم من سنيها الخمسين ، فاتنة على انها في مثـل عمر امه .

فصلاح لايرى فيهـا تلك المرأة التي ودعت الشبـاب لزمن طويل غبر ، بل صورة حية لمعبودته ، وان شوهها الزمن ، وافسدها البلى . أليست هاتان العينان عينيها لحد ؟ وهذا الفم فمها ، بعض الشيء ؟ وهـذه البشرة المشرقة بشرتها النقية ؟

وكأن ذاك الثناء يلقيه هذا الشاب الجميل ، بحرارة المؤمن ، وصـدق المخلص ، قد فعل في نفس الام فعـل السحر . فقامت يهزهزها السرور ، وهي تردد :
— « انتم العرب ... حقاً اذكياء ساحرون ! »
ودخلت على ابنتها . فوجدتها في وسط الغرفة واقفة تحلم ، وهي اجمل ما تكون ، وازهى وافتن . فحاولت ان تخفي عنها رضاءها ، فخانتها عيناها الباسمتان .
— « ماما ! كيف وجدته ؟ انا كنت واثقة من انه يعجبك ! »
فتجيب الام ، ووجهها يشع رضى :
— « او تحبينه لهذا الدرجة ؟

– نعم يا ماما ! احبه كثيراً !

– ولكن ! ابوك !

– ابي يريد ما تريدينه انت ! الم تقولي لي امس انه يرغب مثلك في سعادتي ؟ »

فتترك الام ابنتها دون جواب ، وتتجه الى الباب منادية :

– « صلاح ! صلاح ! »

الا انها تدرك فوراً ، ان رفع « الكلفة » هذا سابق لاوانه ، فتصحح :

– « صلاح بك ! صلاح بك ! »

فينتصب الشاب واقفاً ، وينتظر . فتنقضي لحظات ينخلع في اثنائها قلبه . ثم تبدو ام اوزجان على عتبة الباب ، وهي تشير اليه ان تقدم . فيفعل . وما ان يرى معبودته – وقد سمرت في مكانها ، ترنو اليه حالمة او كالحالمة – حتى يقبل عليها ، تجذبه لحاظها جذب الخضرة الغمام .

وتلتفت الام الى الشابين ، وقد وقفت ما بينهما ، فتقرأ في عينيهما ما يغنيها عن الكلام . فتدعهما وشأنهما ، الى الغرفة الثانية . ويخرج العاشقان من ذهولهما بقبلة طويلة ، أتت اقراراً لرضاء الوالدة ، وتصديقاً لاذنها . ثم يدخلان عليها بخطى الذنب . فاذا بها تكتب في مذكرتها :

« هذا ما توقعته ، منذ رأيت اوزجان ، في القارب ، تنظر الى ذلك الشاب خلسة ... انني راضية بان تجد وحيدتي الرفيق الذي تحبه . فهل لك يارب ان تلقيها واياه ما يستحقان من سعادة ! »

فيضحك الشابان عالياً . وتلتفت الام ، وهي تحاول ان تخفي مذكرتها

الصغيرة في صدرها . فتراهما يركعان : اوزجان عن يمينها ، وصلاح عن يسارها . ثم يقبلانها ، هذا في خد ، وتلك في خد ، قبلة فيها كل ما للشباب من اخلاص ، وما في قلب العاشقين من عرفان جميل .

ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى صار الشابان زوجين ، امام الناس ، كما كانا امام الله ، منذ تعارفا في عرض البحر .

*

قضى العروسان اسبوعاً كاملا ، ودا لو يطول العمر بكامله . اسبوع من العسل والزهر ، واللذاذات الخالدة . فاوزجان امرأة كاملة الانوثة ، وصلاح شاب خلقه حبها خلقا جديداً .

وفي اليوم الثامن سافر صلاح الى مسقط رأسه ، تصحبه زوجه وامها في عربة ، والخادمان في عربة ثانية . فكان ذلك اليوم ، يقضي العاشقان اكثره وحيدين — اذ تنام الام — وسط الجمال يحيط بهما من كل صوب ، ويذكران نزهتهما الاولى الرائعة ، كان يوماً خالداً كالايام السابقة .

وفي منتصف الطريق ، بعد اربع ساعات من سير متصل ، تقف العربتان قرب « خان » يقوم هناك ، كالواحة في وسط الصحراء . فالخيل تعبة ، والبطون جائعة ، فيسارع صاحب الخان ، وامرأته واولاده ، فرحين بهؤلاء الزبائن الموسرين . اليس في استئجارهم عربتين دليلا كافياً ؟

وتدخل الام ، يتبعها العروسان ، غرفة في الخان ، تجاور الشاطي. حتى ليخيل اليك انها تستحم في البحر . فالامواج تغمر اقدامها اذ تتكسر على جدرانها ؛ فتهتز نوافذها ، ويتطاير الرشاش مداعباً الوجوه ، كما يداعب الشعور نسيم لا ينقطع طوال النهار .

– « ماذا عندك من طعام ... يا آغا ؟

– كل ما تأمر به يا بك ! عندنا سمك يلعب في المقلاة ! و ... لبنة ، وجبنة ... »

السمك بالطبع افضل ما يؤكل ، في هذه المحطة النائية . ولا سيما انه سمك طازج ، يصطاده الرجل لساعته ، ويقلوه فوراً . واوزجان تحب هذا الصنف من الطعام ، وهو مغذ سريع الهضم .

– « اذاً حضر لنا غداء من السمك ... وسواه مما عندك »

فيسارع الرجل الى تلبية الطلب ، تساعده امرأته وبناته الثلاث ، والمملوك كافور ، وامينة الأمة . ويجلس العروسان وامها ، تدور رؤوسهم بعد طول الركوب ، وتؤلمهم ركبهم بعد طول الجلوس . ولكن اوزجان مرح دائم ، وروح تحيي كل ما يحيط بها . انها تجد في كل شيء موضوعاً للكلام ، وسبباً للسرور . وترى في كل شيء معنى يستحيل في فمها جمالا رائعا ، وفي اشاراتها حسنا ماتعا .

– « آه ! كم اتمنى ان يكون لي ... لنا ، بيت عند شاطىء البحر !

– لنا ما تتمنين يا روحي ! بيتنا على مقربة من الشاطىء ، وسط الحدائق الغناء .

– صحيح ؟ آه ! ما اسعدني اذاً ! »

فيبتسم صلاح وتبتسم الام . ثم تقول :

– « انا افضل الحديقة على جوار البحر ... حديقة ملأى بالطيور ، والحيوانات الداجنة . هنا خروف يثغو ، وهناك بقرة تخور ، وحصان يصهل ...

– عندنا كل ذلك ! وسترين . بيتنا (فيلا) متواضعة جميلة ، ومزرعة صغيرة معاً . . . »

فتهمس اوزجان راضية ، وهي تنظر الى البحر بعينيها الناعستين ، كمن يناجي نفسه :

– « ما اجمل بيتنا ! خضرة الجنائن، وجمال القرية ، وزرقة البحر ! »

ثم ترنو الى زوجها نشوى، فيمسك بيدها – وقد القتها خلف الكرسي – ويكبس عليها معجبا . فتضغط بدورها على زنده ، وتتنهد سروراً .

*

– « لقد انتهى الطعام يا اسيادي ! »

فيجلس الثلاثة حول مائدة شرقية، هي عبارة عن منضدة واطئة «اسكملة»، وضع عليها خوان (صدر) يحمل صحونا فخارية ملئت سمكاً ، وزيتوناً ، ولبنة ، ومختلف التوابل . ويأكلون بايديهم ، بشاهيـة غريبة ، ولذة لم يجدوا مثلها الى مائدة من الموائد ، بشهادة الام :

– « لم اجد طعاماً اشهى من هذا الطعام ! »

اما العروسان العاشقان فوجود احدهما الى قرب الآخر كان كافياً لان يجعل الحياة لذيذة سائغة ، وكل شيء جميلا فاتناً .

وقبل الانصراف ، ينقد صلاح صاحب الخان ثمن طعامـه ، ونصف مجيدي فوق ذلك اكراماً . . . (بخشيش) . فيأخذ الرجل الفلوس فرحاً مسروراً ، ويدني النقود الفضية من فمه يقبلها ، ثم يرفعها الى رأسه ، وهو يدعو :

– « الله يبقيك ويبقي لك الخانم ! »

فيبسم صلاح ، وهو ينظر الى معبودتـه ، غامزاً بعينيه البدويتين .
وتسأله اوزجان :
– « كم نقدته بخشيشا ؟
– اوه ! شي. زهيد ! نصف مجيدي ... »
فتقول معاتبة بغنج :
– « اكثرت ! هذا اسراف ... العزاب ! »
فيضحك الجميع . ويكتشف صلاح حقيقة جديدة في زوجته الفاتنة :
انها ربة بيت ايضا .

٣٥

الشمس عند الافق قرص برتقالي احمر ، يرسل على الارض اشعته صفراء عليلة . والكون يملأه ضجيج الحياة ، تودع النهار الى هدأة الليل . فمن عصافير تزقزق ، الى بقر تخور ، وحشرات تطن . . . والعربة مجدة في السير ، تطوي الارض طياً ، يتطاير الزبد من شدقي حصانيها ابيض نقياً كرغوة الصابون الطرابلسي ، ويبلل الصُواح جسديهما الاصهبين ، فيلمعان في ضوء الاصيل لمعان الآجر بلله الماء .

هذه هي المدينة . . . بحدائقها الغناء ، تنبسط من شاطيء البحر الى سفح الجبل خضراء ، تكللها الازهار كما تكلل الثلوج قمم الجبال ومنحدراتها . وهذا جونها الصغير تمتزج زرقته بغبرة من مياه نهر ينصب فيه ، فيبدو كلسان ضخم ، تمده الارض لتلغ في البحر .

كل ما في هذه المدينة جميل ، او كذلك يراه صلاح ، وهو الى قرب فاتنته .

— « هل ترين هذه التلة التي تقوم عليها القلعة . . . ؟ وراءها نحو الشرق ، يقع بيتنا . . . »

فتحاول اوزجان ان تميز ذلك البيت — بيتها — مسترشدة باصبع صلاح الممدودة ، فلا ترى شيئاً ، والظلمة تكتسح المدينة ، وسائر الكون ؛ ولا

سيما هذه الحدائق الخضراء . ومع ذلك فهي تجيب :

— « لله ما اجمله ! انه عش جميل ، وسط تلك الاشجار الوارفة ! »

العربتان تخترقان شارع المدينة الاوحد ؛ فيتبعها اولاد الازقة ، يتعلق بعضهم بمؤخرة هذه او تلك ، ويقف البعض الآخر ، على قارعة الطريق ، يصرخون :

— « يا عربجي وراك ... وراك يا عربجي ! »

فيرفع السائق سوطه، ويلوح به مؤخرة العربة ، ليطرد اولئك الزعران. فيضحك رفاقهم الواقفون هنا وهناك ، ويصفقون ؛ وتعجب اوزجان لهم كيف يسرحون حتى تلك الساعة في الطريق العام :

— « ولكن ! اين اهلوهم ? ولمَ لايمنعونهم ? »

فيجيبها صلاح متألماً :

— « هو الفقر يا حبيبتي ! انهم فقراء ... ووفير نسلهم ... لذا يتركون اولادهم في الازقة ... اذ لا متسع في بيوتهم يلعبون فيه ! »

وتقول ام اوزجان ، بعد صمتها الطويل :

— « ثم المدارس ... ليس من مدارس تهذب هؤلاء المساكين ... وترعاهم !

— « نعم ! ففي هذه المدينة ، على اتساعها ،مدرسة واحدةفحسب... انشأتها الحكومة منذ بضع سنوات . والتعليم فيها غير الزامي ايضاً . وغير ذلك فلا تجدين غير كتاتيب تفسد اكثر مما تصلح ... والشعب بحاجة يا عزيزتي الى مدارس للامة ، مدارس تتعهدها حكومته ، وتربي فيها ابناء الامة على ضوء اغراضها وغاياتها . مدارس الزامية ، كثيرة ... في كل حي

من مدينة ، وفي كل قرية – كما هو الحال في بلاد الناس ! »

فتقول اوزجان مصادقة :

– « هذا حق يا عزيزي ! ولا سيا اننا امة مختلفة العناصر ، والعقائد ، واللغات ... فيجب لنا ، على الاقل ، ان تتوحد ثقافتنـــا ، وان تتحد اهدافنا ... »

وتتمتم الام بلهجة الغارق في احلامه :

– « لذلك ... اخذت السلطنة تتفسخ منذ اجيال ! »

فيستأنف صلاح ، بحماسة وايمان :

– « نعم ! ولو اتيح للسلطنة ... ان تصهر مختلف العناصر الراضخة لها بالتدريج ، في بوتقة الوطنية الصحيحة ، لتجنبت كثيراً من الويلات التي نزلت بها ، وهدت قواها ... ان الممالك لاتبنى على الجيوش فحسب ! »

ويلتفت،فاذا هم على مقربة من البيت الابوي – الذي فارقه منذ تسعة اشهر ، قضى اكثرها مريضاً . ولكن ! ما اعذب المرض اذا انتهى الى هذا الهناء الذي هو فيه !

– « خـــذ اليمين ... يا عربجي ! هذا البيت الوردي ... قف عنده ! »

ويترجل صلاح تتبعه عروسه وامها ؛ ويدخل الجميع الحديقة . وما ان يخطون بضع خطوات حتى يتعالى صوت ممدود متسائلا :

– « من ! »

فلا يجيب الشاب اذ يرى كلبه الاسود الهائل مقدماً ، يتطاير الشرر من عينيه ، في ظلمة الليل السمراء ، وهو يبصبص . فيناديه متحبباً :

— « زيتون ! زيتون ... كيف حالك ؟ »

ويقفز الكلب الى كتف سيده ، كمن يعانق صاحبه بعد طول البعاد .
فترتعب الحماة :

— « اعوذ بالله ! ما هذا ؟

— رفيقي منذ الطفولة ! ولد عندنا ولي من العمر اربع سنوات . ومنذ ذلك الحين لم يفارقنا . الا ترين انه ودود وفي يا ... ماما ؟ »

والصوت يردد ملحاً :

— « من ؟ ... من ؟ »

فينفد صبر صلاح ، ويصرخ بلء شدقيه :

— « انا ... صلاح ! صلاح ! »

ذاك ابو سمير : انه يركض مرحباً :

— « اهلا وسهلا بسيدي ! اهلا ومرحباً ! »

ويتصل النبأ السعيد الى سكان البيت ، فيسرع الخدم ، والحشم — ابو احمد ، وام محمود ، وابو علي ، وسمير ، وامه ... — ويتراكض اخوان صلاح ، واخواته : هذا يقبل يده ، وتلك تعانقه ، وذاك يرحب به ... والكل فرحون ، يستخفهم السرور والغبطة ، فيصرخون ، ويتكلمون دفعة واحدة ، وفي وقت واحد .

اما ابو سمير فقد سارع الى جلب مصباح ، ينير به الطريق امام ابن سيده الحبيب . فلما وصل ، وتبينت العيون ما امامها ومن امامها ، نظر الجميع الى هذه الحسناء الفاتنة التي ترافق صلاحاً ، وتلك المرأة الوقور التي الى جانبها ، مدهوشين معجبين معاً . الا ان الشاب لم يتركهم طويلا في حيرتهم ، فقدم

زوجته اليهم :

— « زوجتي ... وامها ! »

وتابع الجماعة سيرهم نحو البيت ، وقد صمتوا كأن على رؤوسهم الطير . هذا ابو صلاح وامه يقفان عند الباب، في الطبقة العلوية . فيتراكض صلاح، ويتسلق السلم الحجري الطويل ، على اربع دفعات . . . ثم يعانق اباه وامه ، ويقبل يديهما . فيقبلانه في جبينه صامتين ، والدمع في مآقيهما .

فاذا وصلت اوزجان وامها ، التفت صلاح اليها ، واخذ بيد زوجته ، وخاطبها بقوله :

— « هذان ابي ... وامي ! »

ثم يقول لابويه، وفي عينيه بريق الفخر :

— « زوجتي اوزجان ... وامها سديدة خانم ! »

فتقبل اوزجان يد « ابويها » الجديدين ، كما تصافحها سديدة باحترام . ويدخل الجميع الى النزل ، تأخذهم دهشة وارتباك يستوليان على كل قوم يتقابلون اول مرة .

ولكن صلاحاً لبق . فيخرج الجمع من ذلك الجو الخانق ، اذ يأخذ بتحديثهم حديث رحلته ، وتعرفه الى زوجته ، وزواجه غير المنتظر ... فيزيل ما تبادر الى ذهن امه وابيه من سوء . ويعود الى وجهيهما النبيلين انبساطهما المعتاد . ويقول ابو صلاح ، مخاطباً السيدة سديدة :

— « انا اعرف زوجك ... انه من كبار رجال الحاشية الملوكية . اجتمعت اليه مراراً في « المابين » ... وفي « الباب العالي » ! »

فتنظر اوزجان الى حميها معجبة ، راضية ، وتقول الام :

— « زوجي يحب هذه البلاد وسكانها ... لذا حملني على السفر اليها للنزهة ... يوم رأى الحالة ، في الاستانة مضطربة ...

— اذاً صحيح ما يتهامس به الناس سراً من اضطراب الامور ؟

— نعم يا سيدي ... ان حزب « الاتحاد والترقي » يتفاقم امره ... ويخشى اندلاع ثورة ! »

اما ام صلاح فام ، قبل كل شيء ! انها تفكر في راحة اولادها ومن حولها قبل تفكيرها في السياسة والامور العامة ، وان كانت على صلة بكل ذلـك :

— « انا اعتقد انكم بحاجة الى الراحة ، بعد هذا السفر الطويل ... والى الطعام ايضاً ... ! هذا افضل من السياسة الآن ... اليس كذلك؟»

فيضحك الجميع ،وتنصرف ربة البيت الى اعداد الطعام . فيتبعها ابنها :

— « كيف رأيتها يا امي ؟

— انها فاتنة ! ولكن ! ... كنت اريد ان افرح الك !

— انما ...

— انا اعلم جيداً ما تريد ان تقول : « انت كنت تخيرينني دائماً في انتقاء الفتاة التي احبها ! » صحيح ! والحقيقة انني مسرورة لك ! لقد احسنت ياصلاح .. انها ابنة اسرة شريفة ، وجميلة ... وانت تحبها ! اليس كذلك ؟

— نعم يا امي ! احبها كثيراً !

— الله يهنيك يا ابني ... ولكن كنت احب ان يكون مجيئك في غير هذه الايام ... لنستطيع القيام بواجبنا نحو زوجتك !

— ولكن ! يا امي ... نحن في نعمة ، والحمد لله !

- لا ! ما هذا الذي اردت ان اقوله ... مسكين عمك الشيخ .. !

- ماذا اصابه ؟

- توفي ! منذ ثلاثة اسابيع !

- آه ! »

ان وقع المصيبة في تلك الساعة كان اشد على صلاح منه في اي وقت آخر ... فدمعت عيناه ، وجمد في مكانه ذاهلا سادرا .

- « لا تبك يا صلاح ! ليتني لم اخبرك ! انت الان في افراحك .. فدع الحزن ! مات ... الله يرحمه ... كلنا ميتون يا ابني ! »

ويعود صلاح الى النزل ، يجفف بمنديله خديه ، ويحاول ان يكتم ما به . الا ان اوزجان اشد ملاحظة مما يظن ، فتهمس في اذنه :

- « ما بك يا روحي ؟

- لا شيء ... هو ... السرور ! » *

٣٦

لم يكن يخطر لسعاد في بال ان تجد راغباً في الزواج منها —وهي ام لستة اولاد ، صغيرهم في الثانية من عمره — قبل ان يجف قبر الشيخ . فضلا عن ان يتسابق الرجال، كهولا وشبانا، الى خطب ودها . فهذا عبد الرحمن البقال.. يخطبها الى اخيها ؛ وهذ سعدالدين النجار ، يطلبها الى ابن عمها؛ وهذا احمد.. البناء ، وسامح الموظف في ادارة « الديون العمومية » ، وسعيد المستخدم في دوائر المكوس (الجمرك) .

— « ترى لِمَ يتسابقون الى الاقتران بي ، والبنات يملأن البيوت ؟ انهم لا شك طامعون باموالي ! »

والواقع ان اكثر العازبين في البلدة — وكلهم عازم على الزواج ليؤلف اسرة ويحيا حياة منظمة — قد رغبوا في الزواج من سعاد لانها « الارملة الغنية» ، ولانها ارملة الشيخ الصافي ، ولانها « الارملة » فحسب : فلا نفقات ، ولا ما يتطلبه آباء البنات من مهور . وهم لم يمتنعوا عن الزواج من قبل — رغبة في حياة العزوبة وما يرافقها من حرية ومرح ، او هربا من التبعات —بل عجزاً .. عن تأدية تلك النفقات — نفقات الاعراس —وتلك المهور ، التي تبلغ مئات الليرات ، فضلا عن الهدايا ، وما تفرضه التقاليد ، وما تحمل عليه عواطف الود والحب .

فعبد الرحمن شاب في الرابعة والعشرين . نزل الى معترك الحياة ، وهو في اواسط العقد الثاني من عمره . وراح يعمل بجد ونشاط ، ليكسب قوته ، ويعين اباه في الانفاق على بيت ، يضم ستة اشخاص ما عـداه . وكذلك سعدالدين ... واحمد ... وسامح ... وكل شاب يضطر الى العمل ، ليأ كل خبزه بعرق جبينه . فمتى يستطيع هذا الشاب ان يجمع المال الذي تستلزمـه نفقات الزفاف ، والهدايا ، والمهر ؟

انه لن يستطيع ذلك ما دام ينفق ما يكسب ، او اكثر ما يكسب . ولن يستطيع بالتالي ان يتزوج الا ... من ارملة موسرة ، او ... خادمة متساهلة !!

لم يستقر ذلك الشعور في نفس سعاد حتى اخذتها العزة ، وراحت ترفض كل راغب في الزواج منها . فشاع في الناس ان هذه المرأة من الصابرات .. وانها من الشريفات :

— « لقد رفضت حتى الان عشرة خاطبين ...

— انها تريد ان تربي اولادها وتعنى بهم !

— انها .. لم تنس الشيخ المرحوم .. فقد كان يعزها .. ويكرمها ! »

وكان اشد الناس هزءاً باقوال الناس هذه سعاد نفسها ... وهي التي لم تمتنع رغبة عن الزواج ، بل طلابا لاكبر حظ ممكن . كالتاجر يكثر الطلب على بضاعته ، فيمسك عن البيع ، نشدانا لاوفر ربح . وسعاد التي لم تحقق احلامها ، في زواجها الاول ، ترغب في ان تحقق تلك الاحلام ، وقـد بلغت من العمر حداً باتت تفهم معه معنى الحياة ، وصارت الى حال ليس من سلطة تجبرها فيها على الرضوخ لغير ارادتها ... وهواها .

ولكن لمَ يلح ذووها في تزويجها ؟ هذا اخوها وامها، وعمتها، واختها .. انهم لا يلقونها ، او تلقاهم ، حتى يدعوها الى الزواج :

– « يا بنتي ! انت صبية .. حرام ان تبقي عزباء !

– يا اختي ! الناس طويلة السنتهم ! الافضل ان تتزوجي رجلا يسترك !

– يا ابنة اخي ... انا لا اريد سوى خيرك ! هذا سعيد ... رجل طيب ... وهو لا يطلب الا ان يكون لك خادماً ، ولاولادك حارساً ..

– يا اختي ! لا يجوز هذا الاصرار ... انا جربت حياة الترمل ! انها مرة على المرأة !! »

وسعاد تصر على انها لا تفكر في الزواج « الان » ...

– « يكفيني همي باولادي ! دعوني وشأني ! انا حرة ... ! »

فينصرف ذووها عنها ، محوقلين مغيظين ، او تنصرف هي عنهم غاضبة ، مهددة بان لا تعود الى الاجتماع معهم ، ما داموا يفتحون لها هذه « السيرة » في كل مرة !

*

مضت الايام واوزجان في نعيمين : من حبها صلاحا ، وهناء العيش ، في هذا البيت ، وسط قوم يعلم كل فرد منهم ما له وما عليه . فلا تنازع ، ولا خصام . بل سرعان ما اصبحت اوزجان صديقة الجميع ، يحبها الكل ، ويحترمها سائر من في البيت ، من الام والاب ، الى الاخوان والاخوات . اذا حضرت مجلس الاسرة ، ساد السرور ، وانبسطت الاسارير – على الرغم من الوقار يفرضه وجود ابي صلاح وامه – وعلى الرغم من الحزن الذي عمّ الاسرة لموت الشيخ الصافي – وما اعقبه من متاعب ، بدؤها في تكفل اخيه بايفاء ديونه ،

وآخرها في القال والقيل ، و « النكرزات » الاهلية !

بل اكثر من هذا : لقد باتت اوزجان سيدة البيت حقاً ، اذ تنازلت لها ام صلاح مختارة عن ادارته ، وقد رأت فيها المرأة العاقلة المثقفة ، وربة البيت الحكيمة المدبرة — وان ظلت الكنة لا تقدم على عمل ، قبل استشارة حماتها او حميها .

الا ان امراً واحداً كان ينغص على اوزجان وامها ، في بعض الاحيان ، ذلك الهنا ، هو توالي الاخبار بقرب اندلاع الثورة .. وسقوط السلطان . لذلك لم يستطع ابو اوزجان ان يفي بما وعد به ، من زيارة ابنته وصهره ، في اقرب وقت ، اذ علم بنبأ اقترانهما ...

اما الام ، فكانت تجد في الدجاجات ، وسائر الطيور ، وحيوانات الحديقة ، سلوى عظيمة . فتقضي معظم اوقاتها في العناية بها . وكان اشدها عرفاناً للجميل ارنب ضخم ، ابيض اللون ناصعه . لم يكن يرى السيدة سديدة قادمة حتى يقبل عليها ، ويقف بين قدميها ، كالكلب بين يدي صاحبه . فتجلس ام اوزجان القرفصاء ، وتطعم هذا الحيوان الوديع الجميل ما تحمله من حبوب ، وخضارة ، فيقرضها في يديها ، وهي تنظر اليه من وراء نظارتيها ، صامتة حيناً ، ومتحدثة حيناً آخر :

— « آه ما اجمل هذا الفم الصغير ! وهذه الوداعة الناعمة !

— لقد اكلت كثيراً اليوم ... اخاف ان تتخم يا ارنبي الصغير ! »

والارنب لاهٍ بما تقدمه له ام اوزجان ، يقرضه باسنانه اللؤلؤية ، ملقياً بين الحين والحين ، نظرة عجلى على هذا الكائن الكبير الرحيم .

اما اوزجان فكانت تقضي اوقات فراغها في التحدث الى حماتها . فالاستانة

وعظمتها ، وجمال مناظرها ، واهلها ... وما جبلوا عليه من رقة الطبـاع ، وحلاوة الشمائل ... ثم المدارس ، وخاصة مدارس الارساليات الاجنبيـة ، وحياة التلمذة ، وما لرفاقة من لذاذات بريئة ... كل ذلك مواضيع لا تنضب في سنين . وام صلاح تستمع الى هذا الملاك بلذة عجيبة . حتى بات ما بين الحماة والكنة ، من الفة ومحبة ، امتن مما كان بين الام وبناتها . بل باتت ام صلاح لا تجد صبراً على فراق هذه الابنة اللطيفة الحبيبة — على الرغم مما بين المرأتين من فروق في السن ، والثقافة ، والنزعات . بل كثيراً ما تعجبت ام صلاح ، واعلنت تعجبها ، ممن يقولون بالعداوة بين الكنة والحمـاة ، او كره هذه تلك :

— « حقاً يا اوزجان ان حبي لك يوازي حبي ولدي صلاح تماماً ...

— وهذا ما اشعر به يا .. ماما ! وما الذي يمنع كل الناس من ان يكونوا كذلك ؟ انا لا ارى سبباً سوى الجهل وسوء التربية .

— صدقت يا ابنتي ... جهل الكبار ، وسوء تربية الصغار ... فالحماة تجهل ، او تتجاهل ، ان لكنتها على ابنها ما لها هي على زوجها من حقوق .. وان محبة الابن لامرأته لا تتعارض مع ما يجب عليه لامه ! والكنة تجهل ، او تتجاهل ، واجبها نحو امرأة هي لها ، كما هي لزوجها ام حنون ...

*

دخلت ام صلاح يوماً على كنتها ، في غرفتها ، فرأتها تحيك ... قميصاً صغيراً من الصوف ... فابتسمت الحماة سروراً :

— « متى شعرت يا ابنتي ؟ »

فتجيب اوزجان خجلة فرحة معاً :

– « هذا الشهر ... »

لقد كانت هذه البشرى تعدل ، عند الحماة ، كل ما في الحياة من نعيم . ستصبح جدة ! يا طالما حلمت بذلك منذ عاد صلاح ، يصحب هذه الزوجة الممتازة . لذا حملت النبأ المسر الى ابي صلاح ، ساعة عاد ، والى صلاح . ولولا ما تفرضه اللياقة ، لاعلنته على الخدم ، وكل من ضم البيت ..

فيقبل صلاح على امرأته عاتباً ، يعانقها وهو يقول :

– « لمَ لم تخبريني ؟ »

فتتهالك اوزجان عليه بدلال ، وهي تتمتم :

– « لم ادر ... الا منذ ايام ... ! »

ويجلس الزوجان متعانقين ، يحلمان :

– « ستكون مثلك فتانة ... !

– بل سيكون مثلك غلاما ذكيا .. !

– آه ... انني اراها الآن ... وقد راحت تدب ، بجسدها البض الوردي .. تناديني : « بابا ! بابا ! »

– وانا اراه ... يمشي بقامته الهيفاء مخربا ، ويناديني : « ماما ! ماما ! »

– سيكون لها عيناك الخضراوان ... و « غمازاتك » الحلوتان ، وشعرك الذهبي ...

– سيكون له وجهك الاسمر ... وعيناك السوداوان ، ورجولتك الساحرة ... ! »

ويقهقه الزوجان ، وهما اسعد من الراعي ، يحلم تحت جرته الملأى بالسمن !

وكان اشد من في البيت ، من الاولاد ، ملاحظة ثريا ، شقيقة صلاح

الصغرى . فجاءت الى اوزجان يوماً ، وكانت قد بلغت الصداقة بينهما حد رفع (الكلفة) :

— « انت تسمنين يا امرأة اخي ... كنت أجمل من قبل ! »

فتضحك اوزجان لسذاجة هذه الابنة — التي لا تتجاوز الثامنة من عمرها — وتكتفي بان تهز رأسها، وهي تداعب باناملها شعر الفتاة الكستنائي المسترسل على كتفيها ، ضفائر مجدولة كالحبال . ولكن سرعان ما تذكر اوزجان كلمة لمعلمتها حامدة خانم ، في مدرسة الفنون بالاستانة ، كانت ترددها دوماً : « ما اضرَّ بالعقول مثل الوهم ، وما اضرَّ بالشرق مثل العقول الملأى بالاوهام ! » فتلتفت الى ثريا الصغيرة ، وتقول لها ببساطة ورصانة :

— « انا حبلى ! »

فتبتسم الفتاة راضية . ولكنها كأكثر البنات في هذه السن ثرثارة : .

— « اذن بعد ايام سيشقون بطنك ، ليخرج الولد .. مسكينة يا « جان » !

— لا يا عزيزتي ! بعد اشهر .. تسعة .. سيخرج الولد من تلقاء نفسه .. »

وتصمت ثريا لحظة سادرة مفكرة ، ثم تقول :

— « ولكن من اين ؟ »

فتضطرب اوزجان لهذا السؤال ، تلقيه فتاة لا غرض لها الا حب الاستطلاع والمعرفة ... وتود ان تجيبها عنه بما قالته امُّ لطفلها ، وكان قد بال حصاة ضخمة ... فحال دون ذلك دخول امها سديدة ، تحمل اربع بيضات طازجة ، جاءت بها من الخم فرحة مسرورة ...

— « انت هنا يا ثريا ؟

— نعم ! يا خالتي !

— امك ، تفتش عليك ... في البستان ... »

قالت سديدة ذلك بلغتها العربية الجديدة ، في لهجة ممتازة ، بالعطف على ما قضته في تعلمها .

اما اوزجان ، فقد سبقت امها اشواطاً بعيدة في دراسة هذه اللغة الجميلة، وان كانت من قبل، كامها، لا تعلم منها غير حروفها ، وقراءة القرآن ...

٣٧

عاد صلاح اليوم الى البيت مضطربا ، على غير عادته . فقد كان ينتظر كتاباً من حميه ، يخبره فيه حقيقة ما جرى في الاستانة ، عقيب الانقلاب ، وسقوط عبد الحميد ، ليطمئن واهل بيته الى مصيره . فقد جاء البريد — وكان يترقبه منذ اسابيع — وليس فيه شيء . . واوزجان القلقة على مصير ابيهـا ؟ وامها التي لا تنام الليل ، منذ ذاع في الناس خبر الانقلاب ؟ ومنذ اكتسحت الاقطار العثمانية موجة من الفرح الجنوني بالحرية ، وما وعد به رجال تركيا الفتاة ، من تحقيق المساواة ، بين العثمانيين كافة ، واقامة العدل؟

ذلك الفرح اظهره الناس بشتى الوسائل : فمن اقامة الزينات ، وتبادل التهاني والزيارات ، الى رقص في الشوارع وقيام بالتظاهرات ، والخطابة في المساجد ، والكنائس . . . بل لقد بلغت حمى السرور بالبعض حداً حسبوا معه ان الحرية هي الفوضى ، والتعدي على حقوق الغـير ، وسلب الناس اشياءهم .

ولم يكن في المدينة طيلة تلك الايام العشرة ، التي اعقبت حادثة نيسان ١٩٠٩،من بيت الا تحول الى مسرح — يمثـل عليه سكانه كل ما يحمل المرح على تمثيله من فصول الحياة . . . ما عدا بيت ابي صلاح . فان الفرح قد خرج منه يوم تخطى نبأ « الحرية » عتبة الباب .

فاوزجان وامها في هم مقيم مقعد ، وابو صلاح في قلق مما كان . فهو يرى بثاقب نظره ان ما يعلنه رجال الانقلاب من حرية ، وما تؤمله الامة من وراء ذلك ، ان هو الا اوهام ، سرعان ما تضمحل . فالحرية وما اليها اشياء لاتعطى بل تؤخذ بعد طول الاستعداد ، والجهاد ... وصلاح يقلقه الامران ... مصير ابي « اوزجانه » الحبيبة ، ومصير هـذه الامة التي راح يتلاعب بمصائرها افراد ما استكملوا نضجهم ، بدل فرد .

دخل صلاح البيت ، فاستقبلته اوزجان عند الباب ، عـلى عادتها ، باسمة . الا ان تلك البسمة لم تكن لتخفي ما في نفسها من اضطراب ، وما في وجدانها من قلق .

— « لا شيء في البريـد ايضاً ... يا عزيزتي . ولكنني ساكتب الى صديق لي ... فيطمئنني ... كوني براحة ... »

وتجاهد اوزجان نفسها على امساك دمع يترقرق في مقلتيها البديعتين ، وهي تضغط على يد صلاح ، تبتغي ان تسري اليها الطمأنينة والهدوء .

*

وهناك امر آخر كان يشغل بال صلاح ، بـل امران : توقف مكتبه للمحاماة — الذي يديره باسم ابيه وتحت اشرافه — بالعطف على الاضطراب الاجتماعي السائد ، والازمة التي انبثقت منه — وما صار اليه حال اولاد عمه الشيخ الصافي بعد وفاته . فقد تركوا المدرسة ، او اجبروهم على تركها . و « هم » تعني — في ذهن صلاح واهل بيته — جماعة امرأة عمه سعاد ، الذين لايرون للعلم ضرورة الا اذا رفع صاحبه الى منصب او وظيفة . وما دام طلاب الوظائف كثرا ، وليس لهؤلاء الايتام اب يشفع بهم او يساعدهم ،

فلينصرفوا منذ الآن الى تعلم صنعة او مهنة ، ان لم يثروا منها ، فهي تغنيهم عن الناس وحاجتهم ، على الاقل ٠

لذلك جعلوا موسى متمرناً في مصنع حداد ، على الرغم منه ؛ وجعلوا اسعد في خدمة نجار ، وهو الذي يرغب في الزراعة ؛ وخليلا في مخزن بقال ، وان كان يميل بفطرته الى الصناعات اليدوية ٠

وسرعان ما بات هذا الهم شغل صلاح الشاغل ٠ فالامر متعلق بشرف الاسرة ومنزلتها ٠ أيصبح اولاد عمه — وهم معاصروه اليوم وغداً — من السوقة ، ومن عامة الناس ، وهم احفاد رجال كانوا قادة الامة ، وزعماءها ؟

وما فتيء هـذا الامر يتجسم في مخيلة الشاب ، حتى اعتزم يوماً ان يفاتح به اباه :

— « وما رأيك يا بابا ٠٠٠ في امرهم ؟ هذا لايطاق ! انه عار علينا ان نترك اخوالهم البسطاء ٠٠٠ يتحكمون في مصيرهم ، ونحن قاعدون ! »

فينظر ابو صلاح الى ابنه معجبا بالروح التي بين جنبيه ، ويجيب متألماً :

— « معك حق يا بني ٠٠٠ ولكن ! بذلت كل ما في وسعي للحيلولة دون ذلك ٠٠٠ فأبوا علي تدخلي ! وخاصة امهم التي نظرت الي نظر العداء ، منذ وفاة زوجها المرحوم ٠٠٠ بل قبل ذلك ٠٠٠ منـذ ان تصالحنا ٠٠٠ وعادت العلائق الى حالتها الطبيعية ٠٠٠

— اذا ٠٠٠ يجب على الاسرة ان تعمـل عملا مشتركا ٠٠٠ وتفرض ارادتها على اولئك البسطاء ٠٠٠ رحمة بالاولاد !

— صحيح ! ولكن ٠٠٠ انت لا تجهل ان اجتماع هذه الاسرة على امر واحد متعسر ٠٠٠ وقد حاولت مراراً ان افعل ذلك — او ان احملهم على ان

يفعلوا واتبعهم – فكان عبثاً ... فالاثرة تعشش في قلوبهم ، وتمازج الدم واللحم ...

– هذا مرض الشرق القديم ... يا ابي ! واغا ... علينا ان لانيأس ! »

فيجيب الوالد ، وابتسامة تلازم ثغر الشيوخ ، كلما خاطبوا شاباً يجادلهم في امر ، تسخر على شفتيه :

– « يا بني ! انا لا ايأس ! وانت عليم بما عندي من كره ومقت لهؤلاء الناس ، الذين يتراجعون يائسين ، اذا ما فشلوا في عمـل او مشروع ... ليقبعوا في منازلهم ، منكمشين على انفسهم ... خاصة العلماء . ما اشد كراهيتي للكثيرين منهم ، الذين لا يعملون على تعليم الناس ما يعلمون ... واذا فعلوا مرة ، ولم تثمر جهودهم ، انصرفوا الى العزلة يرددون : « اذا رأيت هوى مطاعاً وشحاً متبعاً ... فعليك بخويصية نفسك ! »

فيصمت صلاح هنيهة ثم يقول :

– «هذا مرض آخر ، فيما ارى ... مبعثه رغبة الناس عندنا في احتكار العلم ... كما يحتكر التجار الحنطة والسمن ... للتجارة !

– صحيح يا ابني . واغا هذه الرغبـة نفسها منبثقة من الاثرة . الاثرة التي تجعل من كل فرد منا سلطاناً ... لايرى لغير خالقه حكماً ... لذا تجد الامة متفرقة ، لا تجتمع على مبدأ او هدف ، ولذا تجد ابناء المدينة الواحدة متناحرين ، لايضمهم غرض عام ، ولذا تجـد افراد الاسرة الواحدة متخاصمين ، لا تجمع بينهم جامعة ... »

فيهز صلاح رأسه بعنف ، مصدقاً لكلام ابيه ، والالم ينعقد في وجهه حمرة كحمرة الحمى ، وفي اوداجه انتفاخاً كانتفاخ الغضب ، وهو يفكر :

هذا المجتمع الهرم، المتفسخ ... كيف السبيل الى بعث الحياة فيه، او بعثه للحياة ؟ ! »

*

الا ان اشتغاله بمرض زوجته قد ملك عليه مشاعره : لقد وحمت اوزجان منذ ايام، واشتد بها الامر حتى امتنعت عن كل طعام، سوى بعض الفواكه والاثمار . فنحـل جسدها، وباتت تحس دواراً في رأسها — كلما قامت لحاجة، او تمشت في الحديقـة — وبتعب في ساقيها، اذا اطالت الوقوف . بل انها لتحم في بعض الليـالي، حتى يتصبب العرق من جسدها بارداً، قبيل الفجر، ويبلل اثوابها .

جرى كل ذلك في مدة وجيزة . واهل البيت، حتى امها، لا يرون في تلك العوارض غير اثر الوحام ونتائجه . الا ان صلاحاً لم يكن ليطمئن الى ان الوحام يعقب كل ذلك، فيسأل امرأته سراً، ويلحف في السؤال :

— « اوزجان ! قولي لي ! ممَّ تتألمين ؟

— ليس بي ألم يا روحي ... لا اتألم من شيء ! وانما هـذا الدوار في رأسي ... والحمى في الليل ... !

— انها من اثر الوحام، كما يقولون ... هل تريدين ان استدعي طبيباً؟

— لمَ الطبيب ما دام الامر مسبباً عن الوحام ؟ سينقضي عن قريب، وتزول هذه الاعراض ... »

لكن تلك الاعراض لم تزل . بل تفاقم الداء، واخذت اوزجان تسعل بين الحين والحين سعالا خفيفاً جافاً . الا انه يهزها هزّ الريح غصناً طرياً .. فاذا سمع ابو صلاح ذلك، طمأن ابنه القلق :

— « لا تخف يا ابني ! هذا من اثر البرد ... اقفل النوافذ جيداً في الغرفة .. المصاريع الخشبية ايضاً ..لان الزجاج لا يمنع البرد ولا الرطوبة .. ونحن في اواخر فصل الخريف ... ! »

فيقفل صلاح مصاريع النوافذ كلها .. ولكن السعال ما برح يتفاقم .

— « أأستدعي طبيباً يا اوزجان؟

— ولمَ الطبيب ... هذه اعراض وتزول ! »

افاقت اوزجان هذه الليلة ، قبيل منتصف الليل ، تسعل سعالا شديداً يمزق حنجرتها ، ويفعل في صدرها فعل الفلفل في الشفاه . فتنتصب في سريرها جالسة ، ثم تبصق في منديلها ، وتعود فتلقي برأسها التعب على المخدة ، تحاول ان تنام ، فلا تجد جفونها الى الكرى سبيلا . ويعاودها السعال فتبصق .. وصلاح نائم على مقربة منها في سريره ، نوماً قلقاً ، يتقلب ذات اليمين وذات اليسار ، هاذياً حيناً ، ومتنهداً حيناً آخر . فتنظر اوزجان اليه ، من وراء الظلمة التي تفصلها ، فتتأوه وتقول في نفسها :

— « مسكين صلاح ! انه غير مرتاح في نومه ! »

وتشعر اوزجان بالحمى تدب في اعضائها،وبقشعريرة من البرد تعقب ذلك . فتدثر باللحاف ، وتغطي رأسها حتى الاذنين ، وهي ترتجف . ثم تغفو لتصحو قبيل شروق الشمس ، مبللة بالعرق . فترى صلاحاً عند رأسها ، يتأمل ذلك الحسن الذابل ، وتلك الفتنة العليلة ، بعينين يترقرق فيهما الدمع ...

— « لا ... لن اصبر بعد اليوم ... سأستدعي الطبيب ... ! »

لقد مضى شهران بكاملها ، وصلاح يحاول ان يعتقد ، كما يوهمه ابوه ، وامه ، وحماته ... ان ما يصيب امرأته ان هو الا اعراض زائلة ... ولكن

هذا الضعف ... وهذا الاصفرار ... وهذا الدوار ؟ والحمى في الليل ؟ لا بد ان يكون باوزجان شي. ! هذه الفكرة وحدها كانت كافية لان تضيع صواب صلاح ...

– « ساستدعي الطبيب ! »

ويعود صلاح بعد ساعة مستصحباً امهر اطباء البلدة الثلاثة – داود افندي – طبيب العيلة منذ اربعين سنة .

وكان رجلاً ذكياً ، الا انه شاخ منذ زمن بعيد،وبات هو نفسه لا يؤمن بالطب والاطباء. لذلك كثر زبائنه ...خاصة في الاسر المحافظة ، التي لاتبيح تقاليدها الموروثة سفور المرأة ، الا على طبيب هرم كداود افندي ... ومع ذلك ، فكثيراً ما كان بعض اولئك النساء يحتفظن بحجاب وجوههن ، وقد كشفن عن سائر جسدهن ، بين يدي الطبيب !

دخل داود افندي على اوزجان ... يتبعه الزوج مضطربا قلقا . ففحص عن العلة فحص المدقق ، وقد وضع نظارتيه عند طرف انفه الكبير . فوجد ان الامر بسيط ، لا يتعدى نوعاً من البرداء (الملاريا) الحادة التي يسهل التخلص منها :

– « ليس بك شي. يابنتي ! تأخذين هذا الدواء الذي سأعطيه لزوجك، وبعد اسبوع ينتهي كل شي. ... سلامتك ! »

وينصرف الحكيم ، وهو يعيد نظارتيه الى قرابها ، ويمشط شعر لحيته باصابعه ، موصياً صلاحاً بان يمر بعيادته ، فيأخذ الدواء ...

لم يكن ذلك الدواء سوى (برشامات) من سلفات الكينا،ومركب نباتي يصنعه داود افندي ، ويوصي باستعماله كل مريض ، مهما كان مرضه ..

— « اعطها برشامتين ... وست حبـات ... في اليوم ... ولتأكل ما تشاء ! »

ولكن هذا العلاج لم يوقف سير الداء الذي كان ينخر صدر اوزجـان المسكينة . بل زاده شدة ، حتى باتت لا تستطيع القيام الا مستندة الى ذراع آخر ... وكثيراً ما كان صلاح يقوم بمساعدتها في الوصول الى المطبخ ، او الجلوس على كرسي الى النافذة ...

ولأمر يريده القدر ، تقضي سديدة ، ام اوزجان ، نحبها فجأة ، بسكتة قلبية ، وهي على اتم ما يكون المرء صحة ونشاطاً . فيحاول اهـل البيت كتمان الخبر المروع عن العليلة ، ولكن ... كيف السبيل الى ذلك ؟

وكأن هذه المصيبة قد اجهزت على البقية الباقية من صحـة اوزجان ، فراحت تبصق ، بعد كل سعلة ، قطعة من فؤادها ، تترك في فمها طعم الموت ، وفي انفها رائحته .

*

وجاء اليوم الذي يضع حداً للآلام ، وللحياة ... فقد جلس الجميع في غرفة اوزجان ، يحدثونها ، ويخففون عنها ما يجده المريض من الم الضعف بعد القوة ، والهدوء القسري بعد الحركة ، والنشاط . واوزجان في سريرها ، تبسم لهذا ولذاك وتلك بسمة الشمس ، تودع الكون عند الافق . وقد جلس صلاح تحت قدميها ، يحاول ان يبعث بنظراته ، في هذا الجسد العليل ، بعض القوة ، وفي تينك العينين الذابلتين ، بعض بريق كان يضيء فيهما ...

حتى اذا انقضى من الليل ثلثه ، قام ابو صلاح الى النوم ، وهو يوصي ابنه باحكام قفل النوافذ ... وبالنوم باكراً ، لان اول الليـل بكر ...

وساعة منه تفضل ساعات في آخره . وسرعان ما تبعت ام صلاح زوجها، وهي تتمنى لاوزجان الصحة والعافية .

وتمدد صلاح الى جانب حبيبته ، كما لم يفعل منذ اسابيع ، وراح يسألها ويجيب نفسه :

— « هل تذكرين يا اوزجان ... ليلتنـــا الاولى ؟ آه ! لن انسى تلك الساعات ما حييت ! لقد شعرت اذ ذاك شعوراً غريبا ... شعرت كأني املك الدنيا باسرها ... ويوم التقينا في العربة... اقرب رأس بيروت ؟ لقد كان في حياتي فجراً جديداً .. كان بدء حياتي... لانني لم اعش قبل ذلك ! او عشت ... ولكن عيشا ماديا ... عيش هذا السرير ، وهذه الغرفة ...! »

ثم يلتفت الى حبيبته العليلة ، فاذا بها وقد اغمضت عينيها ، تبسم ابتسامة هي في وجه المريض اشد ايلاما من الدمع . فيقوم صلاح، ويمسح جبينها بيده المرتجفة ، فاذا العرق قـــد نثر عليه قطرات باردة ، برودة الندى على الزهرة الذابلة . فيهمس خافت الصوت :

— « نامي يا روحي ! نوم الهنا ... ! »

ثم يخاطب ربه ، وقد انصرف الى سريره ، بحرقة والم ، فتسري في بدنه قشعريرة الاشفاق :

— « رباه ... ! صن اوزجان ! رباه ! انها املي في الحياة ... ! »

وتتحرك العليلة متململة في فراشها . ثم تتمتم :

— « صلاح ! لمَ اطفأت القنديل ...؟ آه ! اتركه مشتعلا ... انني احس بصدري ينطبق ! »

فيرجع صلاح اليها ، ويجيب والهاً :

— « ولكن ... القنديل مشتعل يا روحي ! »

ثم يقبل على زوجته ، يكاد يصرعه شعور غريب ، لم يميزه ساعته ، ويمسك بيدها المثلوجة :

— « اوزجان ... ما بك ؟ اوزجان ؟ »

فتفتح العليلة عينيها الخضراوين ، وقد عاد اليها بريقها المشع . وترنو الى صلاح سادرة ، وهي تشد بيدها النحيلة على يده ، ثم تطبق تينك العينين ، وتتمتم :

— « صلاح ... ! روحي ... ! »

لم يصدق صلاح ما رأى ! وكيف يصدق ان لجة الفناء تبتلع هذا الملاك ، هذه الروح التي ملأت حياته سنة وبعض السنة :

— « اوزجان ... ! اوزجان ... ! »

وعبثاً كان صراخه وبكاؤه ... فقد انطفأت اوزجان كما ينطفيء المصباح ينفد زيته . ولو لم يجد صلاح في دمعه فرجاً لجن ... فراح يجهش بالبكاء ، كطفل سلبته لعبة غالية .

وكأن ام صلاح — والام تستشعر آلام ابنها عن بعد ، بحاسة غريبة — قد شعرت بما يلقى ابنها من عذاب ، فهبت من رقادها مذعورة ، وسارت نحو غرفته . فاذا صلاح مكب على جثة من كانت لدقائق اوزجان ، معبودة الاسرة ، ومحط آمالها — وهو يبكي بكاء صامتا ، يهزه هز البرداء المحموم .

وما انتصف ذلك الليل ، حتى طوى العدم حياتين معاً : اوزجان الشهيدة ، وجنينها البريء .

٣٨

ثلاثة اشهر ، قضاها صلاح ذاهلا، معتزلا الناس ، حتى اهله الاقربين ٠٠ يسحق الالم نفسه ، ويعصر الحزن قلبه !

الا ان شيئاً من الرغبة في الحياة ، والطمأنينة الى العيش ، قد عاوده بعد ذلك – وان كانت تلك المصيبة القاصمة قد قطعت ما بينه وبين الحياة ، او قرّبت ما بينه وبين الحياة – حياة الناس المادية الجوفاء !

وكانت سعاد قد اقامته وصياً على اولادها ٠ فوجد في تلك المشاغل بعض السلوى ٠٠٠ وفي لطف امرأة عمه ٠٠٠ بعض العزاء !»

وجاء يوم رأى الشاب نفسه مضطراً فيه ٠٠٠ الى الاقتران ٠٠٠ بسعاد ! ففعل ، على الرغم من ارادة ابيه وامه ٠٠٠ واضطرب الشيخ الصافي في قبره، رثاء له ، واشفاقاً عليه !

وتمت نبوءة العرافة !

طبع من هذا الكتاب الفا نسخة على ورق عـادي

و ٢٥ نسخـة على ورق ممتـاز

مرقومـة من ١ الى ٢٥

Bachad M. Darghouth

KHATYATUL CHEIKH

Roman

Editeur : Dar Almakchouf Beyrouth

1938

